الإمام الصادق

والمذاهب الأربعة

تأليف

أسد حيدر

الجزء الاول

مطبعة النجف «في النجف»

١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م


BOBST LIBRARY
3 1142 02914 8551

Haydar, Asad
"
[al-Imām al-Ṣādiq wa-al-madhāhib al-arbaʻah]

الإمام الصادق

والمذاهب الأربعة

تأليف

اسد حيدر

الجزء الاول

مطبعة النجف « في النجف »

١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦ م

الأهداء

الى : صادق بيت الوحي ، رضيع ثدي النبوة وربيب مهد الإمامة ؛

الى : منبثق أنوار العلم والهداية والتقى .

الى : منهل شرائع الكتاب وسنة المصطفى .

الى : إمام الامة بالحق وقدوة الأئمة بالصدق .

الى : ابي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه صلواة من ربه ورحمة .

أرفع صحيفتي هذه وهي بضاعتي المزجاة راجياً حسن القبول فهو غاية النجاح ومنتهى الأمل والسعادة لعبدكم

أسد حيدر

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة على محمد وآله الطيبين الطاهرين

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ

القرآن الكريم

المقدمة

في ساعة من ساعات الفراغ آويت لمكتبي ، اروّح النفس من عناء الدراسة الشاقة بمطالعة كتب السير والتاريخ ، وكل كتاب تناولته لم أجد فيه بغيتي ورغبت عن مطالعته من دون أن أعرف السبب الحقيقي لذلك ، حتى وقعت يدي على مقدمة ابن خلدون بدون مقدمة وكأنه كان هو المطلوب دون غيره .

فطالعته وما كنت مستوفياً ابحاثه من قبل ، فراقني اسلوبه وجذبني تعبيره ، ولم استوف الغرض من مطالعته حتى فوجئت بهذه الكلمة القاسية والقول المؤلم :

« وشذ أهل البيت فى مذاهب ابتدعوها وفقه انفردوا به » .

فاخذتني الدهشة استغرابا ، إنها لجرأة على مقام أهل البيت وأصبحت عند ذلك « كالمستجير من الرمضاء بالنار » .

وهناك نسيت نفسي وتجردت من العوامل التي دعتني الى ملافاة هذا الرجل والاجتماع به ، وشعرت ان الرجل كان منقاداً للعاطفة العمياء فى هذه الجرأة ، وجعلت أعلل نفسي في البحث عن المذاهب الاسلامية وتكوينها وبيان مذهب أهل البيت ومكانته في التشريع الاسلامي ، وبقيت الفكرة تخامرني وأنى لي بتحقيقها وأنا تحت سلطة شواغل لا تعرف الرحمة ولا تحلم بالعدل ولكن اذا أراد الله شيئاً هيأ أسبابه ، فتسلمت رسالة من صديق فاضل من أهل الموصل(*) كنت قد اجتمعت به خارج النجف ، واتصلت به اتصالا وثيقاً ، ودارت بيننا ابحاث علمية يطول ذكرها وكان يطلب مني فى رسالته أن أذكر له شيئاً

(*) هو الاستاذ السيد هاشم زين العابدين الموصلي من اسرة تعرف بآل الصراف مات أبوه وهو طفل فكفله أخواله (آل الدباغ) نشأ متحرراً من قيود التقاليد طالباً للحقيقة اجتمعت معه فى (ناحية الخضر) وكان موظفاً هناك فدارت بيننا مراسلات مهمة ولازلت احتفظ بها وتوفى رحمه الله فى معهد الحقوق من الجامعة السورية وسننشر أهم رسائله وترجمته التى هى بقلم صديقه السيد عبد الزهراء الخطيب .

عن حياة الامام الصادق لأنه لا يعرف عنه إلا انه ابن محمد الباقر استاذ أبي حنيفة .
وهذا ما حفزني على نشر الحقيقة بالبحث عن حياة الامام الصادق عليه السلام وبيان مذهب أهل البيت وفقهم الذي انتشر فى عصره ، ولا يتسنى لي الدخول في هذا المضمار دون أن أتعرض لذكر المذاهب الاسلامية ونشأتها والتعرف على أئمتها بدراسة حياتهم دراسة تاريخية اظهاراً للحقائق وخدمة للحق ، فوضعت هذا الكتاب وقد منحته وقتاً من أوقاتي بالرغم من تلك العراقيل الشائكة التي كدستها الظروف في طريق الوصول الى الغاية ، وواجهت المصاعب وجهاً لوجه فجاء هذا المؤلف في عدة أجزاء متتالية وموسوعة كبيرة ، وقد أعطيت فيها صورة واضحة عن تلك العصور التي لها أثرها فى ايجاد عوامل التفرقة بين المسلمين والتي فسحت المجال لخصومهم فى التدخل بين صفوفهم بدافع التشفي والانتقام لبث روح العداء والتباغض .
ولم أجهد نفسي فى ابراز الكتاب مؤنق العبارة رشيق اللفظ ولان فاتني التفوق فى الانشاء وسعة الخيال ومهارة الفن في ابرازه فلن يفوتني إخلاص النيـة وصدق القول والتثبت في النقل والاتزان في الرد فهو بهذا الشكل أتقدم به خدمة لأهل البيت عليهم السلام بما استطعته، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه انيب .

المؤلف

مدخل البحث

الصادق

بين عهدين

— ١ —

أتاح القدر لبني أمية فرصةً نادرة ، إذ انتخب عثمان (١) خليفة للمسلمين بعد عمر بن الخطاب ، فاصبح زعيم الأمة ورب دستها المطاع ، وأميرها المسلط وخليفة صاحب الرسالة ، وبذلك برقت لهم الآمال من بين ظلمات اليأس ، وتنشقوا روائح الراحة فتعلقوا بعرى الفوز وطلع فجر ليلهم الذي باتوا ينشدون فيه أملهم الضائع ويأسفون لحزبهم الفاشل .

وبعد أن خاب كل أمل منهم في نيل بغيتهم لاعادة ذلك الحزب المنحل ، والمنهزم في ميدان المعارضة للحق .

ولكن الأقدار تجري بين عشية وضحاها لامتحان الخلق وغربلة الناس، فاذا بهم يسوسون الامةو يتلاعبون بالإمرة .

ولسنا بصدد البحث عن حوادث عهد الخليفة عثمان ، وما فيه من بلاء ومحن وما لقي المسلمون من ابناء أبيه .

---

(١) عثمان بن عفان بن العاص بن أميه بن عبد شمس وامه أروى بنت كريز ابن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس . بويع له بالخلافة سنة ٢٣ و ٢٤ وقتل صبيحة الجمعة ١٨ ذى الحجة سنة ٣٥ فكانت خلافته ١٢ سنة وحوصر فى داره ٢٢ ليلة ودفن فى حش كوكب مقبرة لليهود واختلف في عمره فقيل ٩٠ و٨٨ و٧٥ و٨٦ و٦٣ انظر الطبرى ج ٣ — حوادث سنة ٣٥

عندما أصبح مروان بن الحكم الطريد بن الطريد (١) والوزغ بن الوزغ أميناً عاماً ووزيراً خاصاً للخليفة الجديد ، يجبى بالأموال ويختص بخمس الغنائم ويتنعم باموال الامة بعد ذلك الشقاء ، ويتقلب باحضان الراحة بعد العناء .

والاغيلمة الذين على أيديهم هلاك الامة ، يتولون الحكم ويتلاعبون بالامرة كتلاعب الغلمان بالكرة وينزون على منبر رسول الله نزو القردة . (٢)

فلنترك ذلك العهد وما فيه من احداث وحوادث ولا نناقش ذلك الانتخاب الذي فاز فيه عثمان ، لا بسابقة في الاسلام ، ولا قرابة فى رحم ،

---

(١) مروان بن الحكم بن ابي العاص بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف ولد يوم احد وقيل عام الخندق وقيل بالطائف قال ابن عبد البر ولد على عهد رسول الله (ص) سنة ٢ من الهجرة وطرد رسول الله أباه وهو طفل لا يعقل ، وبهذا لا تثبت له صحبة .

ويعرف مروان بخيط الباطل ولما بويع بالخلافة قال فيه أخوه عبد الرحمن بن الحكم

لحا الله قوماً امروا خيط باطل على الناس يعطى ما يشاء ويمنع

ونظر اليه على (ع) فقال ويلك وويل امة محمد منك ومن بنيك ، بويع له بعد معاوية بن يزيد سنة ٦٤ ومات سنة ٦٥ قتلته زوجته أم خالد بن يزيد وهو معدود فيمن قتله النساء — انظر ابن عبد البر ج ٣ — ٤٢٨ بهامش الاصابة ط الاولى سنة ١٣٢٨ والحكم ابن العاص نفاه النبي (ص) الى الطائف ثم اعيد الى المدينة فى خلافة عثمان وروى الزهري وعطاء ان اصحاب النبي (ص) دخلوا عليه وهو يلعن الحكم فقالوا يارسول الله ماله قال دخل على شق الجدار وانا مع زوجتي فلانة فكلح في وجهي ، ومر النبي (ص) بالحكم فجعل الحكم يغمز النبي (ص) باصبعه فالتفت فرآه فقال اللهم اجعله وزغاً فزحف مكانه .

ومر الحكم يوماً فقال (ص) ويل لامتي مما فى صلب هذا ومن حديث عائشة انها قالت لمروان أما أنت يامروان فاشهد ان رسول الله لعن أباك وأنت فى صلبه وطرده النبي (ص) ونفاه الى الطائف ورده عثمان ومات فى خلافة عثمان سنة ٣٢ وضرب فسطاطاً على قبره وعاب الناس عليه ذلك — انظر الاصابة ج ١ — ٣٤٦

(٢) حديث — اخرج ابن جرير في تفسيره قال : رأى رسول الله (ص) بنى الحكم ابن ابى العاص ينزون على منبره فساءه ذلك فما استجمع ضاحكا حتى مات وانزل الله فى ذلك (وما جعلنا الرؤيا التى اريناك إلا فتنة للناس) واخرجه السيوطى فى اللؤلؤ المنثور من حديث عبد الله بن عمر ويعلى بن مرة والحسين بن علي وغيرهم (وطرق هذا الحديث كثيرة)

وما هو باولى من علي لو كان هناك انتخاب حر ومقاييس صحيحة .

ونكل الأمر لاصحاب محمد الذين شاهدوا تلك الاوضاع الشاذة ، فاعلنوا مقاطعة الخليفة ، عندما القى مقاليد الحكم بيد بني ابيه ، فقامت الجماعات بالتظاهر ضده في عاصمة المسلمين وفي طليعتهم أم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير و . و .

فكانت هناك ثورة تمخضت عن قتل عثمان في داره .

— ٢ —

وجد معاوية (١) نفسه بدائرة ضيقة بعد قتل عثمان ومبايعة علي بالخلافة .

أيعلن معارضة علي ؟ وقد عقدت بيعته على أكمل وجه وناصره أصحاب محمد ، والقلوب تغلي على بني أمية ، أم يدخل فيما دخل فيه الناس كارهاً كدخوله في الاسلام هو وأبوه من قبل وهو لا يجهل مكانة علي ومنزلته في الاسلام فهو أول القوم اسلاماً واقدمهم ايماناً وأفضل الناس بعد رسول الله واقربهم منه .

نفس طبعت على العدل ولا تأخذها في الله لومة لائم ولا يستطيع معاوية أن يعمل في عهده عمله الذي يحاول به نجاح مهماته ، ولا ترض نفس معاوية أن ترضخ ، كما انه يعرف علياً وسيرته وخشونته في الأمر .

وعلي يعرف معاوية ، وعلى أي طابع طبعت نفسه ، وهو أدرى بحركاته ومايهدف اليه في دهائه ، الذي استطاع ان يستجلب به رضا عمر ويخاتل عثمان من قبل .

(١) معاوية بن ابي سفيان بن صخر بن حرب بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف ولد قبل البعثة بخمس سنين وقيل بسبع سنين اسلم عام الفتح ومات في رجب سنة ٦٠ قال ابو عمر معاوية وابوه من المؤلفة قلوبهم وقال ابن ابي الحديد كان معاوية مطعون في دينه انظر ج ١ ص ١١١ وقول الزمخشري في ربيع الأبرار في نسبه وكانت إمارة معاوية عشرين سنة ولاه عمر ابن الخطاب الشام وحاسب عماله إلا معاوية وبعد وقوع الصلح تم الأمر لمعاوية فاستقل مدة عشرين سنة .

إذاً كيف يصنع معاوية ؟ اذا اشتد جانب علي وعظمت شوكته فكان موقفه تجاه هـــذه المشاكل موقف حيرة وارتباك ودنياه حبلى ولا يعلم ما تلد في الغد .

كاد معاوية ان يفر من ميدان المعارضة لعلي لأنه أعزل من كل سلاح يستطيع به مقابلة علي إن أعلن حربه وليس له حجة يستهوي بهـا قلوب الناس بماذا يدعي معاوية وأي أمل له بالخلافة والامرة على المسلمين ؟ هو يعرف نفسه ولا يفوته منها كل شيء ، فهو ابن هند (١) وابن ابي سفيان (٢) زعيم المشركين ومثير الحرب على صاحب الرسالة .

نعم كاد معاوية ان يهزم ويخضع لسلطان علي وهو كاره له ، ولـكن خروج أم المؤمنين عائشة (٣) .

---

(١) هند بنت عتبـة بن ربيعة بن عبد مناف والدة معاوية ـ كانت تثير شعور المشركين باراجيزهـا في حروبهم على النبي وتشجعهم هي وباقي نساء المشركين وكانت ترجز يوم أحد (نحن بنات طارق) وبذلت لوحشي ما يحب ان قتل حمزة عم النبي (ص) فلما قتل مثلت به واستخرجت كبده فشوت منـه واكلت ـ انظر الاستيعاب بهامش الاصابة ج ٤ ـ ٤٢٦ وتوفيت في عهد عمر بن الخطاب في اليوم الذي مات فيـه ابو قحافة والد ابي بكر الصديق .

(٢) ابو سفيان : هو صخر بن حرب بن امية بن عبـد شمس وامه صفية بنت حرب الهلالية مات في خلافة عثمان سنة ٣٤ وقيل ٣١ وهو ابن ثمان وثمانين سنة وكان يكنى بابي حنظلة الذي قتل يوم بدر كافراً قتله علي (ع) .

(٣) عائشة بنت ابي بكر الصديق زوجة النبي (ص) امها ام رومان بنت عامر بن عويمر الـكنانية ولدت بعد المبعث باربع سنين دخل بها النبي (ص) في السنة الثانيـة من الهجرة وهي بنت تسع سنين وتوفي عنها وهي بنت ١٧ أو ١٨ سنة وماتت سنـة ٥٨ وقيل سنة ٥٧ ودفنت بالبقيع بامر منها وان تدفن ليلا وصلى عليها ابو هريرة .

ونقض (١) طلحة والزبير (٢) بيعة علي فتحا له باب امل ارتج عليه من قبل ، فاسرع بالكتاب الى الزبير (أني قد بايعتك ولطلحة من بعدك فلا يفوتكما العراق) وليس له بغية بهذه البيعة إلا الفرار من علي والخروج عن سلطانه ، إذ لا يجد من نفسه قدرة على اتباع علي (فعلي مع الحق والحق مع علي) .

وبهذه البيعة انتهى رأيه ليتخلص من تلك المشاكل الشائكة ووجد فسحة في الامل وفرجاً بعد الشدة ان انتصر حزب المعارضين لعلي (ع) .

---

(١) طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة وامه الصعبة الحضرمية شهد احداً وابلى بها بلاءاً حسناً ولم يشهد بدراً وآخى النبي (ص) بينه وبين الزبير وقيل بينه وبين كعب بن مالك وكان أحد أبطال الثورة على عثمان وقتل يوم الجمل مع عائشة قتله مروان بن الحكم اخرج البغوي بسند صحيح قال لما كان يوم الجمل نظر مروان الى طلحة فقال لا أطلب ثاري بعد اليوم فنزع بسهم فقتله وكان ذلك في جمادى الاولى سنة ٣٦ ومات وله أربع وستون سنة ودفن بالبصرة ثم نقل لمكان آخر فيها – انظر الاصابة ج ٢ ص ٢٣٠ وابن كثير ج ٧ – ٢٤٦

(٢) الزبير بن العوام بن خويلد بن اسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب القرشي امه صفية بنت عبد المطلب أحد أصحاب الشورى الستة قتل يوم الجمل يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ٣٦ وعمره ٦٦ ولا يعرف قبره اما قبره الحالي الواقع في مدينة الزبير قريباً من البصرة فقد شيد على الظن يقول ابن كثير في تأريخه ج ١١–٣١٩ في حوادث ٣٨٦ ما هذا نصه وفي محرمها كشف أهل البصرة عن قبر عتيق فاذا هم بميت طري عليه ثيابه وسيفه فظنوه الزبير بن العوام فاخرجوه وكفنوه ودفنوه واتخذوا عند قبره مسجداً ووقفوا عليه أوقافاً كثيرة وجعل عنده خدام وقوام وتنوير .

ويقول ابو الفرج بن الجوزي في المنتظم ج ٧ – ١٨٧ في حوادث سنة ٣٨٦ ما هذا نصه (فمن الحوادث فيها ان اهل البصرة في شهر المحرم ادعوا انهم كشفوا عن قبر عتيق فوجدوا فيه ميتاً طرياً بثيابه وسيفه وانه الزبير بن العوام فاخرجوه وكفنوه ودفنوه بالمربد بين الدربين وبنى عليه الاثير ابو المسك عنبر بناء وجعل الموضع مسجداً ونقلت اليه القناديل والآلات والحصر والسمادات واقيم فيه قوام وحفظة ووقف عليه وقوفاً (والله أعلم بحقيقة الحال) .

ولعل معاوية في غفلة عن سلاح فاتك يستطيع به أن يأمل نجاح امره وتكون له حجة في مقابلة علي وهو الاعلان في الطلب بدم عثمان ، ولا استبعد بعدَ ذلك عن تفكيره أو انه غافل عنه فهو بدهائه ومكره لا تعزب عنه هذه الفكرة ولكن فى نظر الواقع أنها فكرة خاطئة وحجة ليس لها برهان فعثمان قتل بايدي المسلمين وما هو ولي دمه وليس منـــه في شيء وبنوه أولى بذلك ولا يعزب عن معاوية مثل هذا فهو بحاجة الى من يدعم حجته ويؤيد هذه الدعوى الكاذبة ، ولكنه جعل هذه الفكرة فى حقيبة آماله ولم يستطع ابرازها إلا بعد أن عرف نجاحها بيد غيره (والتجربة اكبر برهان) فهذه أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر من تيم تعلن الطلب بدم عثمان الأموي وهي التي فتحت باب المؤاخذة عليه ووازرها على ذلك قوم أراقوا بايديهم دمه بالأمس وهم يمسحون بها دموع الحزن المصطنعة اليوم (واعثماناه انه قتل مظلوماً) دوت هذه الصرخة واذا بالشام تقوم لها وتقعد .

— ٣ —

انتحل معاوية لنفسه حق الطلب بدم عثمان وانه أقرب الناس اليه وأولاهم بدمه ، وان عثمان قتل مظلوماً وقد جعل الشارع لوليه سلطاناً .

اذاً لمن يطالب معاوية والكل مشتركون في اثارة الناس عليه ؟

وما غرض معاوية إلا مناوأة علي وجعله هو القاتل وحده ، ولم يلتفت الى المعارضات التي قام بها اصحاب محمد ضد عثمان ، فانهم ما كادوا يلمسون منه ميله لابناء أبيه واختصاصهم بالغنائم وتوليتهم الأمر وتقريب مروان بن الحكم وجعله أميناً للدولة واهانة بعض الصحابة وتبعيد آخرين — حتى أعلنوا مقاطعته

والغضب عليـه فهذا عبـد الرحمن بن عوف (١) المناصر لعثمان والباذل جهده في انتخابه هجره وأوصى أن لا يصلي عثمان عليه ـ ١ ـ وكان يقول : عاجلوه قبل أن يتمادى فى ملـكه وقال لعلي (ع) : خذ سيفك وآخذ سيفي فانه قـد خالف ما أعطاني .

وكان طلحة من أشد الناس على عثمان حتى كان عثمان يدعو : اللهم اكفني طلحة فانه حمل على هؤلاء وألبهم علي ، والله اني لارجو أن يكون منها صفرا وأن يسفك دمه ـ٢ـ .

وهذه أم المؤمنين عائشة تعلن معارضـة عثمان ، وتخرج شعراً من شعر رسول الله (ص) وثوباً من ثيابه ونعلاً من نعاله ثم قالت : ما اسرع ما تركتم سنة نبيكم وهذا شعره وثوبه ونعله لم يُبل بعدُ ـ٣ـ فغضب عثمان غضباً شديداً حتى مادرى مايقول ، وكانت تقول : ان عثمان عطل الحدود وتوعد الشهود ، واغلظت لعثمان واغاظ لها ، وقال : ماأنت وهذا إنما أنت امرأة امرني أن تقري في بيتك فقال قوم مثل قوله وقال اخرون : ومن اولى بذلك منها فاضطربوا بالنعال وكان

ـ ١ ـ البلاذري ج ٥ ـ ٧٥ .
ـ ٢ ـ الـكامل لابن الاثير ج ٣ ـ ٨٦ .
ـ ٣ ـ البلاذري ٥ ـ ٤٨ .

(١) عبد الرحمن بن عوف بن عبد الحرث بن زهرة بن كلاب القرشى الزهرى اسمـه فى الجاهلية عبد عمرو ـ وقيل عبد الـكعبة امه الشفاء بنت عوف بن الحرث بن زهر ولد بعـد الفيل بعشر سنين وكان من المهاجرين وشهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله (ص) وهو أحد الستة اصحاب الشورى وكان من أهل الثروة الطائلة وخلف من بعـده الف بعير وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس وأوصى بان يتصدق من ماله بخمسين الف دينار وصولحت احـدى نسائه التى طلقها فى مرضه عن ربع الثمن بثلاث وثمانين الف انظر الرياض النضرة ـ ٣٨٩ وكان عنده من الذهب ما كسر بالفؤوس ـ وتوفي سنة ٣٢ وقيل ٣١ ودفن بالبقيع .

أول قتال بين المسلمين بعد النبي (ص) ـ ١ ـ وهذا عمرو بن العاص وزير معاوية وشريكه في الامر كان من الثائرين والمحرضين على عثمان يقوم اليـه في ملاء من الناس ويقول: انك قد ركبت نهابير وركبناها معك فتب نتب ـ ٢ ـ وقال له: اتق الله ياعثمان، فقال له عثمان: وانك هناك يابن النابغة قملت جبتك منذ عزلتك عن العمل ونودي من ناحية اخرى تب الى الله ـ ٣ ـ فخرج إلى فلسطين وأقام هناك وجعل يحرض الناس على عثمان حتى رعاة الغنم ولما بلغـه قتله قال: انا أبو عبدالله إذا حككت قرحة نكأتها ـ ٤ ـ.

وجلّ الصحابة أظهروا الانكار على عثمان لسوء ما ارتكبه بنو أميـه الذين حملهم على رقاب الامة وكان جيش مصر تحت قيادة عبدالرحمن بن عديس البلوي وهو ممن شهد الحديبية وبايع بيعة الشجرة واشترك في حصاره جمع من أهل بدر كرفاعة بن رافع الانصاري وغيره.

وقتل نيار بن عياض وهو من الصحابة المحاصرين له.

على ان النصوص التاريخية مجمعة بالاتفاق على مكاتبـة الصحابة من أهل المدينة إلى من بالآفاق منهم: إن أردتم الجهاد فهلموا اليه فان دين محمـد قد أفسده خليفتكم ـ ٥ ـ.

ومهما يكن من أمر فقد أعلن معاوية الطلب بدم عـثمان ولا يريد بذلك إلا اعـلان الحرب على علي لانه يبغض علياً بغضاً لايحمله قلب إنسان على وجـه

ـ ١ ـ البلاذري ج ٥ ـ ٨٤.
ـ ٢ ـ الطبري ج ٣ ـ ٣٦٩.
ـ ٣ ـ الكامل ٣ ـ ٨٠.
ـ ٤ ـ البلاذري ٥ ـ ٧٤.
ـ ٥ ـ الكامل ج ٣ ـ ٨٣ والبلاذري ج ٥ ـ ٦٠ والطبري ج ٣ ـ ٤٠٠

البسيطة ان معاوية يبغض علياً لايمانه وعدله ، وعلي يبغض معاوية لنفاقه وظلمه .

لذلك سلك معاوية طرق المكر والخداع واتخذ اعوانا هم على شاكلته يثيرون الناس لحرب علي بتهمة قتل خليفة المسلمين ، ودب وهم هذه الفكرة في افئدة ضعفاء العقول والايمان وأحاطوا بقميص عثمان يبكون عليه ويتوقدون لطلب القود من قاتله .

قدم قبيصة العبسي إلى المدينة رسولاً من معاوية ، فقال علي : ماوراءك ؟ قال : تركت قوماً لا يرضون إلا بالقود قال ممن؟ قال : من خيط رقبتك ، وتركت ستين الف شيخ يبكون تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد البسوه منبر دمشق فقال علي : أمني يطلبون دم عثمان ؟ - ١ -

ماهذا العطف من معاوية على عثمان وهذه الرحمة المرتجلة اين كانت عاطفة معاوية على ابن عمه يوم كان محصوراً وترده اخباره ويستنجده فلا يجيبه بشيء ويستغيث به وفي أذنيه صمم يحدثنا الطبري ج ٣ - ٤٠٢ ان عثمان كتب الى إلى معاوية بن أبي سفيان وهو بالشام، بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد فان أهل المدينة كفروا واخلعوا الطاعة ونكثوا البيعة فابعث الي من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول .. فلما جاء معاوية الكتاب تربص به وكره اظهار مخالفة اصحاب رسول الله (ص) وقد علم اجتماعهم .

لا يستطيع معاوية نصرة عثمان كيف وهو يحاول ان ينتصر المسلمون عليه فيقتل فتكون له وسيلة لنجاح الخطط التي رسمها ضد علي وبني هاشم لان الامويين يحاولون ان يكيلوا لهم صاع الانتقام بكل وسيلة ، وكانوا في حذر من تنازل عثمان عن العرش فتفشل ريحهم ويخيب كل أمل لهم في الأمر، لذلك كان مروان

- ١ - الكامل ج ٣ - ١٠٠

وباقي الحزب الأموي يقفون حاجزاً دون تحقيق ذلك وكلما أراد علي إصلاح أمر عثمان بالاتفاق بينه وبين الثائرين ، من طريق التفاهم وإيقاف تيار الخلاف عند حده لكن الامويين يسلكون طرق الشغب ويوقدون نارالفتنة فكانت مواعيد عثمان كلها فاشلة وأعمال مروان تزيد حراجة الموقف .

وكان الخليفة المقتول يأمل بمعاوية نصرته في تلك المشكلة ولكنه خذله بصورة لامجال للتشكيك فيها .

ولماازداد نشاط الثوار عاود عثمان أمله الفاشل فانتصر بمعاوية مرة اخرى فارسل جيشا تحت قيادة يزيد القسري وأمره أن يقيم بذى خشب ولا يتجاوز ، وقال له لاتقل الشاهد يرى مالا يراه الغائب فاني أنا الشاهد وأنت الغائب ، فاقام الجيش حتى قتل عثمان فاستقدمه معاوية إلى الشام وإلى هـذا يشير أبو أيوب الانصاري صاحب رسول الله (ص) بقوله لمعاوية : إن الذي تربص بعثمان وثبط يزيد بن أسد عن نصرته لأنت .

فمعاوية بطلبه لثأر عثمان بعد موته وخذلانه له في حياته دليل على سوء نواياه وما يقصده من وراء ذلك .

وهو لايقيم لقتل عثمان وزناً ولا يرى له قيمة ولكنها حجة استهوى بها أمة أخضعها لارادته وسيرها كاشاء ، وإلا فان قتلة عثمان هم انصارمعاوية وحزبه وهو يعرف ذلك .

ولجأ لهـذه الوسائل لتمنحه الضروف يوماً ما أهليـة المقابلة لعلي والبيت الهاشمي فهو بحاجة الى ابراز شخصيته بصورة القبول لهذا الغرض .

وقد نجح معاوية في مخاتلته ومكره فقد أصبح خصماً لعلي وطرفاً مقابلاً والتف حوله ضعفاء العقول الذين يحاولون الوصول لغاياتهم بكل وسيلة فهاهم يقومون

في الاندية والمجتمعات ويبثون بين الافراد والجماعات يذيعون بين الناس ان خليفة المسلمين قتله علي بن أبي طالب وهم يبكون ويتألمون واستدرجوا لهذه الغاية من عرف بالنسك ووسم بالصلاح لتكون كلمته أوقع في النفوس ، وسرت هذه الدعوى المفتعلة بخطى واسعة وتلقتها الاقطار الشامية بكل قبول فاصبح شتم قاتل عثمان على السنتهم وهم يتوقدون بنار الغيض لطلب الثار ومعاوية وحزبه يحركون شعور الناس بنشر قميص عثمان .

فيطول بكاؤهم ويعلو نحيبهم واقسموا ان لا يمسهم الماء إلا للغسل من الجنابة وأن لا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن قام دونهم قتلوه .

وجاء عمرو بن العاص إلى دمشق راجلا ومعه ابناه يبكي كما تبكي المرأة وهو يقول واعثماناه أنعى الحياء والدين حتى دخل دمشق وانظم لجانب معاوية على حرب علي وذلك لما بلغه بيعة علي لانه يكره ولاية علي وبيعته ـ ١ ـ

وازداد نشاط خصوم علي بهذه الفكرة وقويت شوكة معاوية وعظم جانبه وبرأ الكل من دمه إلا علي وحده وانقلب المعارضون لعثمان والثائرون عليه الى جهة الشفقة والحنان .

وكانت أم المؤمنين عائشة تتطلع اخبار المدينة وهي في مكة وقد تركت عثمان محصوراً وقدم عليها رجل يقال له اخضر فقالت : ماصنع الناس ؟ قال قتل عثمان المصريين : فقالت : إنا لله وإنا اليه راجعون ايقتل قوماً جاؤا يطلبون الحق وينكرون الظلم والله لا نرض بهذا فهي بهذه اللحظة متمسكة بالانكار على عثمان وإن من رأيها أحقية المطالبين لعثمان والثائرين عليه ثم لقيها رجل آخر فسألته ماصنع الناس قال قتل المصريون عثمانا قالت العجب لاخضر زعم المقتول هو القاتل

ـ ١ ـ الكامل ج ٣ ـ ١٢٩ .

ولم يظهر إلى هذا الحد منها تغير وتبدل ولكن عندما بلغها قتل عثمان وبيعة علي(ع) وهي تريد الخروج إلى المدينـة نادت ردوني ان عثمان قتل مظلوماً ـ فاطلبوا بدم عثمان ـ ١ ـ .

ليت هـذه انطبقت على هذه ان تم الأمر لصاحبك (تعني عليا) ردوني ردوني قتل والله عثمان مظلوما والله لاطلبن بدمه فقال لها الرجل ولم؟ والله إن اول من امال حرفه لأنت ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلاً فقـد كفر ، قالت قلت وقالوا وقولي الأخير خير من الاول فقال لها :

فمنك البداء ومنك الغير ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الامام وقلت لنا إنه قد كفر

والتف حولها بنو أمية الذين هربوا إلى مكة وجاء طلحة والزبير فايدوا هذا الرأي وانظموا لجانب عائشة ومن هناك تألف جيش البصرة وكثر نعي عثمان واعلان الحرب على علي .

فكانت حرب الجمل (٢) وبعدها صفين وانتهت بذلك التحكيم الذي جرى بغير ما أنزل الله وارتحل علي إلى دار البقاء بعد أن أدى رسالته على أكمل وجه وأقام في الامـة العدل وسار بسيرة الرسول واهتدى بهديه فصلوات الله عليـه ورحمته ومغفرته ورضوانه .

وقام من بعده ولده الحسن بنص من أبيه وهو ريحانة رسول الله وسبطه

ـ ١ ـ الطبرى ٣ ـ ٣٦٩ والكامل ج ٣ ـ ١٠٢ .

(٢) كانت حرب الجمل فى سنة ٣٦ هجرية فى جمادى الآخرة وقتل فيها من الطرفين عدد لايقل عن عشرة الاف وفيها قتل طلحة رماه مروان بن الحكم بسهم فقتله وقد اشتهر عنه قوله اينما اصابت فتح وكذلك وقعة صفين ابتدأت فى هذه السنة وانتهت فى امر التحكيم فى شهر رمضان سنة ٣٧ .

الذي خلفه في أمته فكان ما كان من مقابلة معاوية له باعلان الحرب عليه ومقابلته له بما يكره واستعماله طرق الخداع والمكر لتفريق الناس عنه ليضرب معاوية ضربته القاضية ويتم له الأمر بالظفر والغلبة .

فكان من حكمة الحسن وحسن تدبيره تنازله للصلح ليوقف تيار غلبة معاوية عند حده وقيده بشروط تقف حاجزاً دونه ودون مآربه ولكنه لم يف بشيء منها وكان يثقل عليه وجود الحسن في الوجود فتوصّل إلى قتله بالسم فانا لله وإنا اليه راجعون وتم لمعاوية ماأراد (وإن ربك لبالمرصاد)

— ٤ —

ما كان معاوية يحلم يوماً ما بتلك العظمة فيتسنم عرش الخلافة الاسلامية لقد كان صعلوكاً لامال له وذليلا تحت عزة الاسلام ووسم هو وأبوه وحزبهم الفاشل بالطلقاء يوم فتح الله على نبيه ونصره نصراً عزيزاً « ودخلوا في الاسلام وقلوبهم مملوءة بالكفر والحقد على الاسلام يتربصون الفرص لمحوسطوره وقلع جذوره . ماتغير شيء من نفسيات ابي سفيان وبني أمية بعد دخولهم في حضيرة الاسلام قلامة ظفر » .

فلا يستغرب من معاوية تلك المقابلة التي قابل بها علياً بوجه لا يعرف الخجل فهو وريث ذلك العداء المتأصل بين بني هاشم وبني امية فتلك « عداوة جوهريه ذاتية يستحيل تحويلها ويمتنع زوالها » فما أعظم محنة المسلمين وما أشد بليتهم عندما يعود أمرهم لخصوم لا يعرفون الرحمة ولا عهد لهم بالعدل . وناهيك بما في القلوب من حقد وبما في النفوس من حب الانتقام ، وقد آن الأوان لتحريك ساكن الغل واظهار مكنون العداء .

وانه يثقل على معاوية ذكر علي بخير وتأبى نفسه أن يرى في الوجود

أنصاراً لعلي يحفظون به وصايا محمد ويرعون حقه ،لذلك أصدر أمره الى عماله عامة بنسخة واحدة : انظروا من قامت عليه البينة انه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان واسقطوا عطاءه :

فما أعظم بلاء الامـــة عندما فتح معاوية عليهم باب التشفي والانتقام وما اكثر المأخوذين بهذه التهمة ومعاوية يحاول بذلك ان يوقع بين صفوف الامة عداء تتوارثه الاجيال وان يوجد العصبية بين القبائل ليشق الطريق الى غايته .

ويحدثنا المدائني في كتاب الاحداث انه كتب الى عماله نسخة واحـدة أن برأت الذمة ممن روى شيئاً فى فضل ابي تراب واهل بيته ، وقام الخطباء فى كل كورة ينالون من علي ويقعون فيـه وفي أهل بيته ، وكان أشد الناس بلاء أهل الـكوفة لـكثرة من بهـا من شيعة علي إذ استعمل عليهم زياد بن سمية وضم اليـــه البصرة فكان يقتل كل من اتهمه بحب علي وهدم داره وقطع الأيدي والأرجل ، فكان ذلك الدور أعظم خطراً على المسلمين .

أما الذين على شاكلة معاوية قد أخلصوا له وقاموا بما يحب فاعلنوا شتم علي والبراءة منه .وبعدذلك فـكرمعاوية ان هذا العمل الذي يقوم به لا يثمر كثير فائدة لانه عمل ارهابي وسرعان ما يتبدل الوضع ، فضم لهذا العمل شيئاً آخر من تقريب خصوم علي والمتظاهرين بعدائه والمعروفين بشيعة عثمان واغداق العطاء عليهم ومنحهم الصلاة الجزيلة ورعايتهم والعناية بهم وتسجيل أسمائهم وأسماء عشائرهم ليـكونوا فى محل الاعتبار، ورفع أسمائهم للبلاط الأموي ليشملهم بعطفـه ويرعاهم بلطفه ، فما أكثر المتقربين اليه خوفا من شفرة السيف وظلمـة السجن وضيق اللحدوعناء المطاردة والتبعيد .

ثم فكر معاوية بشيء يستطيع به نجاح خططه عندما يستعمل اولئك الدجالين وذوي الضمائر الرخيصة لوضع الأحاديث على صاحب الرسالة بما تشاء نفسه وتتطلبه رغباته بدون التفات الى مؤاخذة وعدم مبالاة بجريمة الكذب على الله وعلى رسوله كما انه لم تقف أمامه حواجز عند ارتكاب جرائم قتل المسلمين على الظنة والتهمة وسلب الأموال وهتك الاعراض وسبي النساء وهدم الدور والقاء الجثث فى الطرقات والقتل فى المساجد واخذ البرىء بالسقيم الى غيرها من جرائم يتصدع لها قلب المسلم وتكاد نفسه تذهب حسرات .

وها نحن نتخطى عهد معاوية ولا نقف موقف المدقق الذي يريد حصرها فليس من غرضنا ذلك ، وكفانا رجال التحقيق من علماء الامة ، والتاريخ الصحيح اضبارة بيان وشاهد عدل فليس لنا من الوقت ما يتسع لنشر تلك الصحائف السود وذكر تلك الفظائع المؤلمة .

فاعمال معاوية سجلها التأريخ عليه وهي بعيدة عن روح الاسلام مجانبة للعدالة وضرب الحصانة عليه باسم الصحبة بدعة في الدين وافتراء عليه .

ومضى معاوية لسبيله مثقل باوزاره تاركاً وراءه ولي عهد فرضه على المسلمين بشكل حتمي كما فرض على نفسه الحلم الاصطناعي ومداراة الناس ليحملهم على اجابته ، ومن سوء حظ الامة ان يلي أمرها فاسق لا يعرف إلا الرذيلة وهو أشر خلق الله وألعنهم ، وسيعلم الذي مهد له ذلك وولاه رقاب المسلمين ، ولا يستبعد من معاوية وكيده للاسلام ومحاربته له من البداية الى النهاية أن يرشح يزيد لعلمه بما طبعت عليه نفسه من الفسق وعدم المبالاة بما يرتكبه ليتم الخطط التي رسمها معاوية في حياته لمحاربة الاسلام وأهل البيت وشرع في تطبيقها في حياته وعهد الى يزيد لتنمو فى عهده فينال معاوية غرضه . فكان يزيد كما أراد أبوه فقد قام بدور

خطر ومثل تلك العظائم التي يقف القلم عند بيانها .

فكانت باكورة عمله ان قتل الحسين ابن بنت رسول الله وسبى نساءه بصورة يذوب لها قلب كل انسان مهما اختلفت ملته ونحلته فضلا عن المسلم الذي يعرف الحسين ومنزلته من رسول الله (ص) ومكانته من الاسلام ، وما أعظمها من جريمة تقشعر لها الجلود وتذوب لها النفوس حسرات فكانت وقعة الطف سلسلة لفجائع مروعة ونكبات أليمة ، فانا لله وانا اليه راجعون .

وفى السنة الثانية أباح مدينة الرسول وترى جنده يجوسون خلال ديار الوحي ليفسدوا فيها ويهلكوا الحرث والنسل يتدفقون فى شوارع ذلك البلد الطيب يهجمون على البيوت ، ليهتكوا اعراضاً ويسلبوا أموالا فلا تزعجهم أصوات النساء المعولات على أزواجهن وأولادهن .

وترى مخدرات ذلك البلد كاسراب القطا تتخطفها البزات الجارحة ، أو كقطعان الغنم تتناهبها الذئاب الضارية فهن تحت تصرف اولئك الوحوش ثلاثة ايام يفعلون ماشاءوا ، ومروان بن الحكم ينظر تلك الفجائع فيهتز طربا ومرحاً يعجبه ان يرى شيوخ الصحابة ووجوه العرب وأبطال الاسلام يقادون لقائد الجيش ليأخذ منهم البيعة ليزيد بيعة عبودية . فبعين الله ما لقيت الامة ، ولا تخفى على الله خافية في الأرض ولا فى السماء .

وفى السنة الثالثة هدم الكعبة ولعلها أبلغ امنية لنفس الامويين ليجعلوا يوماً بيوم الهبل واللات والعزى . هـذا هو ولي عهد معاوية ـ الذي عرف لياقته للحكم وصلاحيته للامر فلنترك عهده ونتخطى فظائعه بدون تفصيل فهي أشهر من أن تذكر .

— ٥ —

تحول الأمر من بعد يزيد بن معاوية من آل أبي سفيان الى بني الحكم لأن عهد معاوية بن يزيد (١) لم يطل وفر بنفسه من ولاية ورثها بدون حق وهو يعرف أهلها وإن أباه وجده غاصبون لها فصرح بذلك في خطبته فقال:

إن هذه الخلافة حبل الله ، وإن جدى معاوية نازع الامر أهله ، ومن هو أحق به منه علي بن أبي طالب وركب بكم ماتعلمون ، حتى أتته منيته فصار في قبره رهيناً بذنوبه ، ثم قلد أبي الأمر وكان غير أهل له ونازع ابن بنت رسول الله (ص) فقصف عمره وانبتر عقبه وصار في قبره رهيناً بذنوبه ثم بكى وقال : إن من أعظم الامور علينا علمنا بسوء مصرعه وبئس منقلبه ، وقد قتل عترة رسول الله (ص) وأباح الخمر ، وخرب الكعبة ولم اذق حلاوة الخلافة ، فلا اتقلد مرارتها فشأنكم أمركم والله لأن كانت الدنيا خيراً فقد نلنا منها حظاً ولان كانت شراً فكفى ذرية ابي سفيان ما أصابوا ، منها - ٢ - ثم تنازل عن عرش أقيم على جماجم الابرياء من المسلمين وخلع برداً نسج على نول المكر والخداع والتمويه وفر بنفسه عن التلبس بتلك الجرائم فعفى الله عنه .

وولى الامر مروان بن الحكم - بعد أخذ ورد ووقوع فتن في الشام

---

(١) معاوية بن يزيد أبو عبدالرحمن ويقال أبو يزيد ويقال أبو ليلى استخلف بعهد من أبيه فى ربيع الاول سنة ٦٤ وكان شابا صالحاً وكانت مدة خلافته أربعين يوما ولم يخرج الى الناس بعد هذه الخطبة ولا فعل شيئاً من الامور ولاصلى بالناس ومات وهو ابن ٢١ سنة وقيل ٢٣ وقيل غير ذلك ودفن بمقابر باب الصغير بدمشق ولما حضرته الوفاة قيل له الا توصى فقال : لا اتزود مرارتها واترك حلاوتها الى أمية ولما دفن حضر مروان دفنه فقال : اتدرون من دفنتم قالوا نعم معاوية بن يزيد فقال : مروان نعم هو أبو ليلى الذى يقول فيه الفزارى

انى ارى فتنة تغلى مراجلها والملك بعد ابى ليلى لمن غلبا

- ٢ - ابن حجر فى الصواعق ١٢٤ .

وغـيره وتعصب بين القبائل وحروب في جميع الاقطار وكـثرت الدعاة ضـد بني أمية .

فأصبح مروان خليفة المسلمين ـ ولم تطل أيامه ومات سنة ٦٥ قتلته زوجته أم خالد بن يزيد وهو معدود فيمن قتلته النساء ـ ١ ـ .

ثم جاء دور عبدالملك بن مروان ـ بويع له بعـد أبيه والامور مضطربة والبـلاد تموج من فوضى الأمويين وسوء سيرتهم وعبدالله بن الزبير قارب أن يتم له الأمر والمختار بن أبي عبيدة نهض لطلب ثار الحسين ونكل بقاتليه ومزقهم كل ممزق وشفى صدور قوم مؤمنين وقضى على علوج الشرك وقتلة أولاد الانبياء فرحمه الله وجزاه خيراً فكان مجيء عبدالملك للحكم ـ مجيء فاتك لايقف عنـد حد وناقم لايعرف قلبـه الرحمه وظالم لاعهد له بالعـدل فكان دوره دور ارهاب وجور .

— ٦ —

وبهذا الدور في عهد عبدالملك بن مران ولد الامام الصادق (ع) في ليلة الجمعة غرة شهر رجب سنة ثمانين من الهجرة والأمة الاسلامية تلاقي تلك الأحكام القاسية وقدانتشر فيهادعاة الفساد وتحكم أئمة الجور واستولى على الاقطار الاسلامية أولئك الجزارون الذين يتقربون لأئمتهم بضحايا البشرية بدون جناية والاحرار من الأمة الذين ينكرون تلك الاعمال الوحشية عرضة للاخطار ومحلاً للنقم .

ولد عليه السلام في حجر الرسالة ونشأ في بيت النبوة وترعرع في ربوع الوحي وتربى بين جده زين العابدين وأبيه الباقر ، أقام مع جده علي بن الحسين

---

٢ ـ انظر ترجمة في الاستيعاب والاصابه .

اثنى عشر سنة وقيل خمس عشرة سنة وعلى رواية المدائنى ستة عشرة سنة وأخذ عنه في حياته وتربى في مدرسته وبدون شك ان جده زين العابدين هو أفضل الهاشميين وسيد أهل البيت في عصره وأعلم الامة في زمانه وأورعهم وأصدقهم حديثاً وبعد وفاته تفرد بتربيته أبوه الباقر وهو هو في علمه وورعه فنشأ الامام تلك النشأة الصالحة وهو خليفة أبيه والمتحمل اعباء الامامة من بعده وعاشر أباه بعد وفاة جده تسعة عشر سنة .

ولا شك ان الامام الصادق ـ نشأ في وسط مجتمع لايتصل بآل البيت إلا من طريق الحذر والتكتم لشدة المراقبة التي تحوط بهم من السلطة الاموية ، وشاهد طلاب العلم يتصلون بمدرسة جده وأبيه وهم باشد حذر ، لان ذلك الدور لايستطيع به أحد أن يتظاهر بالاتصال بآل محمد ومن عرف في ذلك فانما مصيره القبر أو ظلمة السجن إلى حيث الأبد .

نشاء الصادق ، في عصر تتنازع فيه الاهواء ، وتضطرب فيه الافكار وطغت فيه موجة الزندقة والالحاد وتلاطمت فيه امواج الظلم والارهاب .

وتقرب الناس الى ولاة الامر بالوشايات والاتهامات فلا حرمة للنفوس ولا قيمة للدين ولا نظام يشمل الرعية بل هي فوضى والامراء يحكمون بما شاؤا والرعية بين أيديهم العوبة لاغراضهم .

وأشد الناس بلاء هم انصار آل محمد وشيعتهم واتخذوا شتم علي سنة يتمون به فرضهم فلا يدخل الداخل الى مسجد ولا معبد ولا مجلس ولا حلقة علم إلا ويسمع تلك العبارات التي يعبر بها أولئك القوم عن سوء سريرتهم ولايكاد يصغى لخطيب أو قصاص أو واعظ إلا وكانت براعة استهلاله شتم علي (ع)

فكان آل محمد يلاقون تلك المشاق ويواجهون تلك المصاعب بقلوب

مطمئنة بما وعد الله الصابرين وكل هذه الامور شاهدها الامام الصادق فى نشأته أو أخذ عنها صورة واقعية قبل حدوثها فبعين الله مالقيت الامة الاسلامية ومالقى آل محمد الذين هم حملة العلم ومبلغي رسالة الاسلام أدرك الامام الصادق صلوات الله عليه ثلاث سنين من خلافة عبدالملك ، وتسعة سنين وثمانية أشهر من خلافة الوليد بن عبدالملك ، وثلاثة سنين وثلاثة اشهر وخمسة أيام من خلافة سليمان ، وسنتين وخمسة واشهر من خلافة عمر بن عبدالعزيز وأربعة سنين وشهراً من خلافة يزيد ابن عبدالملك وعشرين سنة من خلافة هشام بن عبدالملك ، وسنة واحدة من خلافة الوليد بن يزيد ، وستة اشهر من خلافة يزيد بن الوليد وبعده لم يبق خليفة للامويين بعينه لكثرة الاضطرابات حتى زال ملكهم في سنة ١٣٢ .

فكل هذه الادوار شاهدها الامام الصادق ، وهو يعيش وأهل بيته بتلك الدائرة الضيقة محاطاً بالرقابة ، لتلك الاتهامات التي يحوكها ضده المتقربون لخصوم آل محمد وهو يرى بين آونة وأخرى مصارع زعماء الشيعة وسجن آخرين ومطاردة السلطة لبقية السيف منهم ، وكان يطرق سمعه مدة تسعة عشرة سنة شتم جده علي (ع) وانتقاص آله وكان يرى بعض ولاة المدينة يجمع العلويين يوم الجمعة قريباً من المنبر يسمعهم شتم علي وانتقاصه ، حتى ولى عمر بن عبدالعزيز سنة ٩٩ فرفع السب عن علي (ع) كما سيأتي بيانه .

فكانت نشأة الامام الصادق نشأة خشونة وملاقات مصائب وخوض غمرات ومحن وبلاء ومع هذا كله فانه كان لايمتنع من الجهر بالحق وارشاد الناس وتحذيرهم من مخالطة أولئك الظلمة وكان ينهى عن المرافعة اليهم وينهى عن الامتزاج بهم وإعانتهم في شيء والتولى لهم وقبول أي عمل منهم .

وفي أيامه كان خروج زيد بن علي في الكوفة فكان يلزم بمتابعته ويقول

بايعوه ولما قتل زيد كان يأبنه بكلماته البليغة ويلعن قاتله وذلك في أيام هشام بن عبدالملك ذلك الجبار الذي أظهر العداء لآل أبي طالب بصورة ارهابية بعد قتل زيد وأمر عماله بالتضييق عليهم وأن تمحى أسمائهم من ديوان العطاء وملأ منهم السجون وكتب لعامله يوسف بن عمر الثقفي يقطع لسان الكميت ويده لانه رثى زيداً ومنع العطاء عن أهل المدينة لاتهامه أياهم بالميل الى زيد وألزم آل أبي طالب بالبراءة من زيد الى آخر ماهنالك من فجائع وأمور كانت تحوط بالامام وتنكد عيشه ولكن عناية الله قضت بأن يزداد شعور الناس نحو آل محمد مع تلك المحاولات التي اتخذها الامويون ، فكانت هنا اجتماعات ومؤتمرات سرية لحدوث إنقلاب عام يزيل مملكة الامويين وتحويلها لآل محمد وبانتشار الدعاة لهذه الفكرة وحصول خلاف بين الامويين انفسهم اضطربت الدولة ودب في جسمها الضعف وأحاطت بها عوامل الانهيار فكانت فترة سعيدة اغتنمها الامام الصادق لفتح أبواب مدرسته وليقوم بما يجب عليه من توجيه الناس وبث الاحكام وتعاليم الدين فهو بين شيخوخة الدولة الاموية وطفولة الدولة العباسية قام في عصر ازدهار العلم لتعليم الناس حتى عد تلامذته أربعة آلاف رجل .

وكان بيته في تلك الفترة كالجامعة ، يزدان على الدوام بالعلماء الكبار في الحديث والتفسير والحكمة والكلام ، فكان يحضر مجلس درسه في اغلب الاوقات الفان وبعض الاحيان أربعة آلاف من العلماء المشهورين – ١ – .

وكان يؤم مدرسته طلاب العلم ورواة الحديث من الاقطار النائية ، لرفع الرقابة وعدم الحذر فارسلت الكوفة والبصرة وواسط والحجاز الى جعفر بن محمد افلاذ أكبادها ومن كل قبيلة من بني أسد ومخارق ، وطي ، وسليم ، وغطفان ،

– ١ – انظر مجلة رسالة الاسلام العدد ٤ السنة ٦ .

وغفار ، والازد ، وخزاعة وخثعم ومخزوم ، وبني ضبة ، ومن قريش ، ولا سيما بني الحارث بن عبدالمطلب،وبني الحسن بن الحسن بن علي – ١ – .

ونقل عنه الحديث واستفاد منه العلم جماعة من الأئمة وأعلامهم مثل يحيي ابن سعيد الانصاري ، وابن جريج ومالك بن أنس ، والثوري ، وابن عيينة ، وأبي حنيفة ، وشعبة ، وأيوب السجستاني ، وغيرهم ، وعدّوا أخذهم منه منقبة شرفوا بها وفضيلة اكتسبوها : – ٢ –

ونالت مدرسة الصادق شهرة عظيمة – كما يأتي بيان ذلك إن شاء الله – ففي تلك الفترة السعيدة ، كان هو زعيم الحركة الفكرية في ذلك العصر .

ويعتبر في الواقع انه أول من اسس المدارس الفلسفية في الاسلام ، ولم يكن يحضر حلقته العلمية أولئك الذين أصبحوا مؤسسوا المذاهب الفقهية فحسب بل كان يحضرها طلاب الفلسفة والمتفلسفون من الانحاء القاصية : – ٣ –

– ١ – انظر كتاب جعفر بن محمد اسيد الاهل

– ٢ – كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي في مطالب السؤال ج ٢ – ٥٥ .

– ٣ – تاريخ العرب للسيد مير علي الهندي ١٧٩ .

— ٢ —

ما كاد المسلمون يلمسون من الامويين انحرافهم عن الدين واستهانتهم برجال الأمة ، ومحاربتهم أهل البيت حتى اشتد انكارهم على تلك السيرة الملتوية وذلك النظام الجائر الذي لا يعرف العدل ولا عهد المسلمين به من قبل .

وكانت نهضة الحسين (ع) صرخة داوية فهي على دعاة الجور بركان بلاء ونقمة ولدعاة الحق شعلة هداية يستنيرون بها في طريق الوصول الى الدعوة الصالحة ، وأعقبتها سلسلة ثورات دموية ، مهدت الطريق لحدوث انقلاب الحكم وابعاد أولئك القوم الذين تربعوا على دسته ، فقد ثقلوا على الناس وطال عهدهم الجائر ، فكان افقهم مثقلا بسحب السخط على أعمالهم ، فتألفت الجمعيات السرية التي كان هدفها تحقيق ثورة اصلاحية ، لنقل الحكم من أمية التي تعتبر في الواقع عدوة للاسلام من البداية إلى النهاية ، إلى آل محمد الذين هم دعاة الحق وأئمة العدل .

وكان العباسيون فى طليعة أنصار العلويين ، وهم أشد الناس حماساً لتحقيق ذلك الغرض . وكان لمحمد بن عبد الله بن الحسن نشاط سياسي في ذلك العهد ، وبويع في مؤتمر عقده الهاشميون من العباسيين والعلويين ، واول من بايعه السفاح وأخوه المنصور .

ومهما يكن من أمر فقد اندلعت نيران الثورة وهتافات الثوار الى الرضا من آل محمد فوقعت الواقعة بامية ودارت بهم الدوائر فزال ملكهم وأراح الله العباد والبلاد منهم ، وتطلع المسلمون الى العهد الجديد الذي يأملون به العدل وتطهير الأرض من الفساد .

٢ — جرت الحوادث ودارت عجلة الزمن ، وانتقل الأمر الى بني العباس الذين انتحلوا انطباق آل محمد عليهم دون غيرهم ، وبويع السفاح (١) فكان عهده عهد ثورة شغل الناس بمطاردة الامويين وتتبع البقية منهم واستطاع بمهارته ان يظهر للناس عطفه على أبناء عمه باكرامهم وعدم التعرض لهم يحاول بذلك جلب قلوبهم ، واقناع الامة التي ترى ان الحق لهم دونه وانه أحد الأفراد المطوقين بالبيعة لآل علي فاقتضت سياسية الدولة الفتية أن يسير على خطة المجارات لأبناء عمه والتظاهر باخذ الثار من قتلة الحسين (ع) .

ولم تطل أيامه حتى مضى لسبيله وقد عهد بالأمر لأخيه المنصور (٢) وهو ذلك الداهية الذي صقلت جوهره الأيام وأعطته التجارب درساً من التيقض وجعلته يحذر أشد الحذر حتى من أقرب الناس اليه . قام المنصور والدولة لم ترتكز دعائمها على اسس قوية فهي مهددة من نواح شتى فالعلويون ، يرون العباسيين دعاتهم وأنصار دعوتهم والامة متجهة بانظارها اليهم ، وان الأمر لهم دونهم ، وقواد الثورة يرون ان قيام العباسيين بالأمر كحكومة مؤقتة يحولون الأمر عنها متى شاؤا ، وبقية السيف من الامويين يخشى على الدولة من انتشارهم فى الآفاق .

وعلماء المدينة يجهرون بالفتوى بان بيعة العباسيين غير صحيحة ، ومن هذا وذاك من الأمور التي تقف أمامه فتكدر عيشه ، وأهم شيء عنده أمر العلويين وفى طليعتهم جعفر محمد الصادق ـ فكان يحذر أشد الحذر ويحاول زوال

---

(١) السفاح هو عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بويع له بالخلافة سنة ١٣٢ وتوفى بالجدرى فى الانبار يوم الاحد ١١ فى ذى الحجة سنة ١٣٦ وكانت خلافته اربع سنين وتسعة أشهر .

(٢) هو عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس وهو اكبر من أخيه السفاح وأمه أم ولد اسمها سلامة وكان اكبر من أخيه ابى العباس بويع له بالخلافة سنة ١٣٦ وكانت خلافته ٢٢ سنة وتوفى سنة ١٥٨ .

تلك العقبات بكل حيلة ولا يقف عند حد .

والمنصور عندما يلي الخلافة يرجع بتفكيره الى الوراء ، ويتذكر سالف أيامه وماضيه المحزن يوم كان جوّالاً ، تتقاذفه أمواج الخوف ، وتسوقه الحاجة ، وطلب العيش الى رواية الحديث ، وهو لا ينسى ضرب السياط وظلمة السجن فى عهد الدولة الاموية ، ولا ينسى استعطاف الناس بمدح آل محمد ، وهو أحد رواة حديث الغدير –١– كل ذلك لا تنمحي صورته عن مخيلته فهو امامه ومعه .

والآن وقد أصبح أمير المؤمنين تجبى له الأموال من الشرق والغرب ، واودع فى خزائنه ما يكفي للدولة عشر سنين بعد أن كان لا يجد درهماً واحداً ، وتحوط به آلاف من الجنود ، بعد أن كان يتطلع المسافة البعيدة وحده خائفاً ، فهو بحكم الغريزة الجنسية أن يشح بما اوتي حتى على نفسه ، فكان يرقع ثيابه ، ويحاسب على الدانق حتى عُرف به ، ويكون في حذر من أقل واهمة يتخيل بها زوال ملكه ، فحصنه بالسيف وجعل بينه وبين الخطر سوراً من أشلاء الأبرياء ، وبحراً من الدماء التي حرم الله اراقتها إلا بالحق .

ولنستعرض شيئاً من معاملته فى حكمه وكيف كان هو فى عهده .

اتخذ طبيباً نصرانياً يستعين به على قتل من لا يود أن يتظاهر فى قتله فكان يدس السم بالدواء فهذا الخصيب النصراني (كان زنديقاً معطلا) لا يبالي بمن قتل ، ارسل اليه المنصور يأمره بان يقتل محمد بن ابي العباس فاتخذ سماً قاتلا ثم انتظر علة تحدث به فوجد حرارة فقال له الخصيب : خذ شربة دواء ، فقال هيئها فهيأها له وجعل فيها ذلك السم ثم سقاه فمات منها . فكتبت امه تخبر المنصور فامر

–١– تأريخ بغداد (ج ١٢ ص ٣٤٤)

بضرب الخصيب ثلاثين سوطاً خفيفة وسجنه ثم أطلقه وأعطاه ثلاث مائة درهم -١
هذه دية القتيل في شرع المنصور .

وهناك نوع آخر من ألوان العذاب التي كان يعذب بها من وقع تحت قبضته ، وهو وضع الاحياء في البناء فهذه اطلال الهاشمية وبغداد لو تمكنت من الافصاح من شيء لكان أول شيء تفصح عنـه هي جثث الابرياء الذين دخلوا في بطونها بدون جرم . وعند الله تجتمع الخصوم . لقد سلبت الرحمة من قلبه فلا يعرف لها موضع فيه ، وكان يقف أمام المشاهد المحزنة موقف رجل لئيم مسلوب الانسانية والعاطفة لا وقفـة الرجل الكريم الذي تؤلمه مناظر البؤس وتزعجه مواقف الشقاء .

مر موكبه عندما أراد الحج بابنـة عبد الله بن الحسن وكان أبوها تحت اسره حمل مع من حمل من العلويين فارادت استعطافه والرفق بحال أبيها فانشأت :

ارحم كبيراً سنه متهدم ... في السجن بين سلاسل وقيود
وارحم صغار بني يزيد انهم ... يتموا لفقدك لا لفقـد يزيد
إن جدت بالرحم القريبة بيننا ... ما جدّنا من جدّكم ببعيد

فكان جواب المنصور اذكرتنيه ثم أمر به فاحدر في المطبق وكان آخر العهد به . هذه صورة من جور المنصور وقساوته لم تعطفه عاطفـة الرحم ولم تدعه الانسانية الى الرحمة بهذه المسكينة ولم يراقب القربى وحرمة النسب وذل موقفها بين يديه وكيف يؤمل منـه العطف على أهل بيت ينظر اليهم نظر خصم ملأ قلبه عليهم حقداً وانتفخت أوداجه غضباً .

إنه لا يرى لملكه بقاء إن بقى منهم أحد في الوجود ، وكان الفتك بهم

-١- الطبرى ج ٧ – ٣٠٩

هو شغله الشاغل ولا يتوقف في تنفيذ إرادته مهما كانه الأمر فقام بذلك العمل الارهابي وفتك بهم فتكا ذريعاً يوم دخل المدينة محتجاً ، باداء فريضة الحج ، وما الحج أراد ولكنه أراد أن يعرف حقيقة الامر عندما يقوم بمهمة الفتك بآل محمد .

وهاهو يدخل المدينة وبنو الحسن في سجن رياح ، فأمر بالقبض على من بقي منهم فترى شرطته وقواده يعلوهم الغضب ويرتكبون الشدة ، يأتون بابناء علي واحداً بعد واحد ويودعونه في السجن بأشد مايتصور من القسوة ، وكان العباس ابن الحسن بن الحسن(١) واقفاً على باب داره وأمه تراقبه ، وقلبها كجناح الطير من الخوف فقبض عليه الشرطة ، فأخذتها الدهشة ولم تستطع شيئاً في الدفاع عنه إلا أنها طلبت منهم أن تشم ولدها وتودعه ، فكان الجواب بشدة وغلظة لا يكون ، وقبض على محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان أخو بني الحسن لأمهم ، فاحضره امامه وكلمه بما لايليق ذكره وأمر بان يشق ازاره لتبدو عورته ، وأمر بضربه بالسياط فضرب حتى سال دمه ، وأرجعه لأخوانه فاقعد الى جنب أخيه عبدالله بن الحسن وكان قد أخذ العطش منه مأخذا فاستسقى ماءً فلم يجسر أحد أن يسقيه إلا خراساني شذت طبيعته فسقاه ماءً .

ثم صدّر المنصور أمره بحملهم من المدينة الى العراق بعد أن اثقلوا بالحديد وضربوا بالسياط وهو مطرب لنغمة السلاسل وانين المعذبين فسار ذلك الموكب في شوارع المدينة محاطا بالجند وهو يسرع الخطا من المدينة الى الكوفة ، الى مقرهم

(١) هو العباس بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب وامه عائشة بنت طلحة الجود بن عمر بن عبدالله التيمي وكان العباس احد فتيان بني هاشم وله يقول ابراهيم بن علي الشاعر :

لما تعرضت للحاجات واعتلجت ... عندي وعاد ضمير القلب وسواسا
سميت اسمي لحاجاتي ومصدرها ... براً كريماً اثوب المجد لباساً

توفي في سجن المنصور سنة ١٤٥ لسبع بقين من شهر رمضان وهو ابن خمس وثلاثين سنة

الاخير ذلك السجن المظلم الذي لايعرف فيه الليل من النهار فقد أودعهم المنصور في بطن الارض ، وفعل بهم مالا يفعل الحيوان المفترس بفريسته وعاملهم باقسى مايتصور من الشدة .

— ٣ —

لقي أبو عبدالله في هذين العهدين كثيراً من المشاكل، فهو في العهد الأموي عرضة لأخطار أولئك القوم الذين يكيدون آل محمد (ص) ويتوقعون الفرص للفتك بهم ، وهو في عصره عميد البيت النبوي وسيد الهاشميين والمبرز من آل محمد (ص) ومن رجال الأمة الذين كانوا يهم الدولة أمرهم باتجاه الانظار اليهم ولا يستبعد من الأمويين أن يقابلوه بكل أذى وشدة ، ولكن الله سبحانه وتعالى عصمه منهم وردّ كيدهم عنه . ولما دب الضعف في جسم الدولة كانت فترة سعيدة استطاع الامام أن يركن الى الراحة والأطمئنان فتوافدت عليه طلاب العلم من رجال الأمة كما مر ذكره .

أما في العهد العباسي فهو قذى في عيونهم لانه زعيم أهل بيت ثارت الأمة لأجلهم وانهارت الدولة الاموية بالدعوة لهم .

وقد كان في أيام السفاح برفاهية نظراً للظروف والاوضاع التي سايرها السفاح بمقتضى سياسة الدولة . وفي زمن المنصور كانت المشكلة أشد مما هي عليه من قبل ، فقد كان المنصور يقضاً لايفوته ما لجعفر بن محمد من المنزلة في المجتمع ويعظم عليه إتجاه الانظار اليه وقد عاشره من قبل وعرف منزلته وعلمه ، لذلك كان حذراً منه أشد الحذر ، والمخاوف تحيط به والاوهام والشكوك تساوره ، كما

أن الوشاة ماؤا سمع المنصور من الاكاذيب على جعفر بن محمد (ع) مما جعله يحاول الفتك به .

وكانت سياسة جعفر بن محمد وانعزاله ونظره الى الامور بعين الواقع برهنت على كذب أولئك الوشاة وخففت من سورة غضب المنصور بالنسبة ولكنها لم ترفع أصل الاتهام وكثرت الوشاة على أبي عبدالله الصادق (ع) فاثارت من المنصور كوامن ضغنه وحركت عوامل غيظه فحج في سنة ١٤٧ ودخل المدينة وأمر الربيع باحضار جعفر وقال له : أبعث الى جعفر من ياتينا به تعبا قتلني الله إن لم اقتله ، فتغافل عنه الربيع لينساه ، ثم أعاد ذكره وقال : أرسل اليه من يأتيني به متعباً ، فلما حضر الصادق (ع) أعلم أبا جعفر حضوره ، فلما دخل عليه قابله بوحشية وكلام لامجال لذكره .

وقال : اتخذك أهل العراق إماماً يجبون اليك زكاة أموالهم وتلحد في سلطاني وتبغى الغوائل قتلني الله إن لم اقتلكفقال : ياأمير إن سليمان أعطي فشكر وإن أيوب ابتلي فصبر ، وإن يوسف ظلم فغفر ، وأنت من ذلك السنخ . فقال أبو جعفر الي وأنت عندي يا أبا عبدالله البرىء الساحة السليم الناحية القليل الغائلة جزاك الله من ذي رحم أفضل ماجزى ذوي الارحام عن ارحامهم ، ثم تناول يده فأجلسه معه ثم قال علي بالمتحفة فاتي بدهن فيه غالية فخلفه بيده . ثم قال في حفظ الله وفي كلاءته . ثم قال : ياربيع الحق أباعبدالله جائزة وكسوة ، قال الربيع فلحقته فقلت له : إني قد رأيت قبل ذلك مالم تره ورأيت بعد ذلك ماقد رأيت فما قلت يا أبا عبدالله حين دخلت ؟ قل (ع) قلت : اللهم احرسني بعينك التي لاتنام ، واكفني بركنك الذي لايرام ، واغفرلي بقدرتك علي ، لا أهلك وأنت رجائي ، اللهم انك أكبر وأجل ممن أخاف واحذر ، اللهم بك أدفع في

نحره واستعيذ بك من شره . -١-

وتركزت في ذهن المنصور فكرة الفتك بجعفر بن محمد ، لأنه يعلم أن مئات الآلاف يقولون بامامته وتجبى له الأموال وينظر بعين العظمة والاحترام ، كما أن أكثر المتفنين حول المنصور والموآزرين له يذهبون الى القول بامامته .

وأراد امتحانه مرة ليكون له طريق فى المؤاخذة . فدعا ابن مهاجر وقال : خذ هذا المال وآت المدينة والق عبد الله بن الحسن وجعفر بن محمد وأهل بيتهم وقل لهم إني رجل غريب من أهل خراسان من شيعتكم وقد وجهوا اليكم بهذا المال ، فادفع الى كل واحد منهم على هذا الشرط كذا وكذا فاذا قبض المال فقل إني رسول واحب أن يكون معي خطوطكم بقبض ما قبضتم مني . ومضى فلما رجع قال له ابو جعفر : ما وراءك ؟ فقال : اتيت القوم وهذه خطوطهم ما خلا جعفر بن محمد فاني أتيته وهو يصلي في مسجد الرسول (ص) فجلست خلفه وقلت ينصرف واذكر له فعجل وانصرف ، فالتفت إلي فقال ياهذا : اتق الله ولا تغرنّ أهل بيت محمد ، وقل لصاحبك اتق الله ولا تغرن أهل بيت محمد ، فانهم قريبوا العهد بدولة بني مروان وكلهم محتاج ، فقلت : وما ذاك أصلحك الله ؟ فقال : ادنو مني فدنوت ، فاخبرني بجميع ما جرى بيني وبينك حتى كأنه ثالثنا ، فقال له يا ابن مهاجر إنه ليس من أهل بيت نبوة إلا وفيهم محدّث وان جعفر بن محمد محدثنا اليوم . (٢)

وصعبت على المنصور تلك الطرق التي اتخذها جعفر بن محمد فى حذره

-١- ابن الجوزى فى صفوة الصفوة ج ٢ - ٩٦ وابن الصباغ المالكى فى الفصول المهمة ٢٠٧ والمفيد فى الارشاد ٢٥ .

(٢) ابن شهراشوب ٢ - ٣٠٢ .

واحتياطه عن أي مؤاخذة من المنصور له ليستحل بها إباحة دمه فانه لم يبق طريقاً إلا سلكه من ارسال الكتب المزورة عن لسان شيعة جعفر بن محمد يدعونه للنهوض وارسال الأموال الكثيرة مع اناس استخدمهم المنصور لهذه الغاية عساه أن ينجح بموافقة جعفر (ع) في قبض المال أو جواب الكتب ، ولكن تلك المحاولات ذهبت ونصيبها الفشل وكان المنصور يهمه أمر جعفر بن محمد اكثر من غيره وله معه أخبار أهمل كثير من المؤرخين ذكرها ، وكانت بينهما صلة أيام بني أمية وعاشره فى خلافته أكثر من عشر سنين ، ولقي في هذه المدة جهداً وامتحن غير مرة ، وكان الخطر محدقا به لأن المنصور لا يجهل مكانته ، فهو الشخصية التي كان يتطلع اليها الناس يوم طلع فجر النهضة العلمية وكان لمدرسته حركة واسعة ونشاط علمي ، وازدحم عليه طلاب العلم ، واشتهر ذكره ، وكان زعيم أهل الحديث في معركة أهل الرأي وأهل الحديث كما يأتي بيانه . فكان المنصور يخشى خطر هذه الشهرة ، ويحذر من حدوث انقلاب مفاجىء من قبل العلويين ينضم اليه علماء الأمة الذي اتصلوا بجعفر بن محمد وعرفوا منزلة أهل البيت، مع علمه بمعارضته لبيعة محمد بن عبد الله « فانه اعترض على هذه البيعة معلناً أنها جاءت سابقة لأوانها ، ولكن المنصور يخشى أن ينضم الصادق لدعوة العلويين فيشتد الخطر على الدولة الجديدة .

ولكن جعفر بن محمد كان بحدسه الصائب ونظره الثاقب يخترق الحجب ويستشف احداث المستقبل ويخبر بكثير من الكوائن قبل وقوعها » .

فكان من رأيه عدم التعرض لطالب الأمر ، ونهى قومه عن عقد تلك البيعة وكان ينصحهم في التجافي عن شؤون الدولة في عصره . وقد عرض عليه الخلافة أبو مسلم الخلال وزير آل محمد فى بدء الدعوة ، قبل وصول الجند اليه فابى

الامام قبولها ، ولم يقنع أبو سلمة بهذا الرد وحاول اقناع الامام بكل صورة ، وعندما أقبلت الرايات كتب ابو سلمة اليه : إن سبعين الف مقاتل وصل الينا فانظر أمرك ـ ١ ـ فاجابه بالرد وان الأمر للسفاح وللمنصور من بعده .

وكان الصادق أخبر بصيرورة الخلافة لبني العباس دون غيرهم من الهاشميين (ولذلك كان أسد الهاشميين رأيا بمعارضته لبيعة النفس الزكية . والواقع ان ائمة أهل البيت كثر تحدثهم قبل عصر الصادق عن الدولة الهاشمية وتعددت اشاراتهم الى ملك بني العباس وانهم سيطؤن أعناق الرجال ويملكوا الشرق والغرب ويجمعون من الأموال مالم يجتمع لأحد من قبلهم وان مدة ملكهم ستطول وتكون أضعاف مدة الدولة الاموية اخبروا بهذه الحوادث قبل وقوعها) ـ ٢ ـ ومما يؤثر عن جعفر بن محمد فى هذا الباب قوله : علمنا غابر ومزبور نقش في القلوب ونقر فى الاسماع عندنا الجفر الأحمر والابيض ومصحف فاطمة والجامعة فيه مايحتاج الناس اليه ـ ٣ ـ .

ـ ١ ـ مناقب ابن شهراشوب ٢ ـ ٣١٠

ـ ٢ ـ انظر ـ مؤرخ العراق ابن الوطي لمالى العلامة الشبيبى

ـ ٣ ـ كشف الغمة س ٢٢٧

الامام الصادق

تأريخ حياته ، أقوال العلماء فيه ، مكانته العلمية ، مدرسته ، تلامذته ، ملوك عصره وامراء بلده .

التأريخ هو مرآة تأخذ الصور فتحفظها للاجيال ، وهو للجميع لايختص بامة دون أخرى ولا يتقيد برأي دون رأي ، وهو أمين ، والأمين يقبح به أن يخون أمانته .

يسجل الحوادث على ماهي عليها بصورها واشكالها فلا تغيير ولا تبديل ولا نقل صورة وترك اخرى . هذه هي وظيفة التاريخ الصحيح .

ولكن التلاعب السياسي الذي لعب دوراً هاماً فى سيطرته على نظام التاريخ وتصرفه في سيره وساب حريته فى أداء أمانته جعلنا نعترف بأنه لم يتمكن من اداء واجبه على الوجه الصحيح ، وقد أودعت فى طياته اشياء هي أعظم عليه من وخز المدى ، وتركت اشياء هي مفخرته عندما يؤديها للاجيال ، وان من المؤسف جداً أن يفقد التاريخ حريته وتلتوي به الطرق ، واذا به ينظر فى مرآة الغير ولا ينظر الغير في مرآته .

ولإن مني التاريخ بتلك القيود فهو لا يخلو من حقائق يطمئن اليها كل باحث وها نحن على ضوء تلك الحقائق ننتزع من أشواك العصبية والأهواء زهرة { حياة الامام الصادق } وإن اكثر المؤرخين قد اهملوا اخباره وسيرته ولم يذكروا إلا النزر منها ، ومن وقف على ما كتبه ابن كثير في تاريخه عن بعض

الشخصيات التي لاقيمة لها في سوق الاعتبار يعرف مدى انحرافه وانه أهمل الواقع وظلم الحقيقة وتراه عندما يأتي لذكر جعفر بن محمد الصادق في حوادث ١٤٨ يقتصر على قوله : (وفيها مات الامام جعفر الصادق) ، ولا يروق له ذكر شيء عن حياته .

واغرب شيء وقفنا عليه أن البحاثة محمد محي الدين المعروف بالتتبع وضبط الالفاظ في تصحيحه وتعليقه على الكتب أهمل اسم جعفر بن محمد وغير اسمه فيقول عند ذكر وفاته في العنوان - وفاة محمد بن جعفر العلوي انظر مروج الذهب ج ٣ ص ٢١٢ طبع دار الرجاء . وهب أن ذلك غلط مطبعي أو من الناسخ في أصل الكتاب فان الواجب عليه التنبيه والالتفات لهذا الغلط .

ومثل شخصية جعفر بن محمد تلك الشخصية الاسلامية العظيمة يجب على التاريخ اعطاءها حقها من البحث فهو ابرز شخصية في عصره واعلم الأمة على الاطلاق ، ولا نتجاوز الحقيقة إن قلنا ان الامام الصادق (ع) كان أعلم أهل عصره وهو أولى الناس بحفظ أمانة الدين ، ولا نبعد عن الواقع ، إن قلنا ان تلك الخطوات التي سار عليها في عصر ازدهار العلم قداعطت الأمة درساً ، وعلمتهم كيف يجب أن يكون المصلح الذي يقتدي به عظماء الأمة ورجال الدعوة ، وان يستقل العلم بمؤهلاته النفسية ويفرض نفسه على المجتمع بقيمه الروحية ، بدون التزام بالقوة . بل الأولى أن يكون مقبولا من حيث هو ، لامن حيث الارهاب والسلطة أو المغريات الخداعة ، وإن الكثير ممن درسوا حياة الامام الصادق (ع) إنما سلكوا طرق الحذر والتكتم ، فتلك دراسة سطحية لاتتجاوز حدود دائرة الحذر أو التعصب ، وقد رسمت صورته في أطار التأريخ بريشة مفن مرتعشة أخذت معانيها من طريق التلقين لامن طريق الفن والواقع ، لذلك لم تبرز طبق الاصل

ومع هذا فقد جاءت سليمة من التشويه وفريدة في الابداع .

وغرضنا في البحث عن حياة الصادق بيان منزلته العلمية بالقياس إلى غيره ممن أخذ الشهرة وما هو منه في شيء والاسباب غير مجهولة والحقيقة غير صامتة . وهنا يلزمنا أن نتخلى عن الموضوع ونستمع الى أقوال علماء الامة ورؤساء المذاهب وحفاظ الحديث وكبار المؤرخين والكتاب من القدماء وبعض المعاصرين بدون احاطة للكل ، بل من يحضرنا ذكره فلنصغ لأقوالهم تمهيداً للبحث .

في كل زمان رجل منا أهل البيت يحتج الله به على خلقه ، وحجة زماننا ابن أخي جعفر لا يضل من تبعه ولا يهتدي من خالفه ـ ١ ـ

زيد بن علي (ع)

إن جعفراً كان ممن قال الله فيه : (ثم أورثنا الكتاب الذي اصطفينا من عبادنا) . وكان ممن اصطفاه الله وكان من السابقين في الخيرات ـ ٢ ـ وانه ليس من أهل بيت إلا وفيهم محدّث وان جعفر بن محمد محدثنا اليوم . ـ ٣ ـ

المنصور الدوانيقي

جعفر بن محمد اختلفتُ اليـه زماناً فما كنت أراه إلا على احدى ثلاثة خصال ، إما مصلّ ، وأما صائم وأما يقرء القرآن ، وما رأت عين ولا سمعت اذن ولا خطر على قلب بشر افضل من جعفر بن محمد الصادق علماً وعبادة وورعاً ـ٤ـ

مالك بن انس

ـ ١ ـ مناقب ابن شهر اشوب ٢ ـ ١٤٧
ـ ٢ ـ اليعقوبي ٣ ـ ١١٧
ـ ٣ ـ المناقب ٢ ـ ٣٠٢
ـ ٤ ـ تهذيب التهذيب ٢ ـ ١٠٤

كنت إذا نظرت الى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيين ـ ١ ـ

عمرو بن المقدام

مارأيت افقه من جعفر بن محمد لما اقدمه المنصور بعث الي فقال : يا أبا حنيفة ان الناس قد افتتنوا بجعفر بن محمد فهيىء له من المسائل الشداد فهيأت له أربعين مسألة ، ثم بعث الي أبو جعفر وهو بالحيرة فاتيته فدخلت عليه وجعفر بن محمد جالس عن يمينه فلما ابصرت به دخلتني من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق مالم يدخلني لأبي جعفر ، فسلمت عليه واومأ إلي فجلست ثم التفت اليه فقال يا أباعبدالله هذا أبو حنيفة فقال : نعم ، ثم اتبعها قد أتانا كأنه كره مايقول فيه قوم انه إذا رأى الرجل عرفه ، ثم التفت المنصور إلي فقال : يا أبا حنيفة الق على أبي عبدالله من مسائلك فجعلت القي عليه فيجيبني ، فيقول انتم تقولون كذا وأهل المدينة يقولون كذا ونحن نقول كذا فربما تابعنا وربما تابعهم وربما خالفنا جميعا حتى اتيت على الاربعين مسألة ، ثم قال أبو حنيفة : السنا روينا ان اعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس ؟ ـ ٢ ـ

ماهذا ببشر وإن كان فى الدنيا روحاني يتجسد إذا شاء ويتروح إذا شاء فهو هذا وأشار الى الصادق .

ابن أبي العوجاء

جعفر بن محمد الصادق هو ذو علم غزير وأدب كامل في الحكمة وزهد في الدنيا وورع تام عن الشهوات وقد أقام بالمدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين اليه ويفيض على الموالين له اسرار العلوم ، ثم دخل العراق وأقام بها مدة ماتعرّض

ـ ١ ـ تهذيب التهذيب ٢ ـ ١٠٤

ـ ٢ ـ مناقب أبي حنيفة للموفق ج ١ ص ١٧٣ وجامع اسانيد أبي حنيفة ج ١ ص ٢٢٢ وتذكرة الحفاظ للذهبي ج ١ ص ١٥٧

للأمامة قط ولا نازع في الخلافة أحداً ، ومن غرق في بحر المعرفة لم يقع في شط ومن تعلا الى ذروة الحقيقة لم يخف من حط - ١ -

أبو الفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستاني

الامام الصادق كان من بين أخوته خليفة أبيه نقل عنه من العلوم مالم ينقل عن غيره . كان رأساً في الحديث ، روى عنه يحيي بن سعيد وابن جريح ومالك ابن انس وابن عيينة وابو أيوب السجستاني وغيرهم

القرماني في تاريخه

جعفر بن محمد كان من سادات أهل البيت فقهاً وعلما وفضلا .

ابن حبان

جعفر بن محمد ثقة لا يسئل عن مثله - ٢ -

الحافظ أبو حاتم

جعفر بن محمد هو من علماء أهل البيت وساداتهم ذو علوم جمة وعبادة موفورة وأوراد متواصلة وزهادة بينة وتلاوة كثيرة يتتبع معاني القرآن ويستخرج من بحره جواهره ويستنتج عجائبه ويقسم أوقاته على انواع الطاعات بحيث يحاسب عليها نفسه ، رؤيته تذكر بالآخرة ، واستماع كلامه يزهد في الدنيا ، والاقتداء بهديه يورث الجنة ، نور قسماته شاهد انه من سلالة النبوة ، وطهارة افعاله تصدع انه من ذرية الرسالة ، نقل عنه الحديث واستفاد منه العلم جماعة من اعيان الأمة وأعلامهم مثل يحيي بن سعيد الانصاري وابن جريح ، ومالك بن انس والثوري وابن عيينة ، وايوب السجستاني وغيرهم ، وعدوا أخذهم منه منقبة شرفوا بها

- ١ - الملل والنحل ج ١ - ٢٧٢ - ط ٢
- ٢ - تهذيب التهذيب ٢ - ١٠٤

وفضيلة اكتسبوها ـ ١ ـ

كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي

جعفر بن محمد الامام الناطق ذو الزمام السابق أبو عبدالله جعفر بن محمد الصادق أقبل على العبادة والخضوع ، وآثر العزلة والخشوع ونهى عن الرئاسة والجموع ـ ٢ ـ

أبو نعيم

جعفر بن محمد بن علي بن الحسين كان مشغولا بالعبادة عن حب الرئاسة ـ ٣ ـ

عبدالرحمن بن الجوزي

جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن أبي طالب وكنيته أبو اسماعيل ويلقب بالصادق والطاهر والفاضل ، واشهر القابه الصادق ـ ٤ ـ

أبو المظفر يوسف شمس الدين

أدركت في هذا المسجد (يعني الكوفة) تسعمائة شيخ كل يقول حدثني جعفر بن محمد ـ ٥ ـ

الحسن بن علي الوشاء

جعفر بن محمد ، ازدحم على بابه العلماء ، واقتبس من مشكاة انواره الاصفياء ، وكان يتكلم بغوامض الاسرار وعلوم الحقيقة وهو ابن سبع سنين ـ ٦ ـ

عبدالرحمن بن محمد الحنفي البسطامي

جعفر بن محمد ، الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه ، ويقال : ان أبا حنيفة

ـ ١ ـ مطالب السؤول ج ٢ ص ٥٥
ـ ٢ ـ حلية الاولياء ج ٣ ـ ١٩٢
ـ ٣ ـ صفوة الصفوة ج ٢ ـ ٩٤
ـ ٤ ـ تذكرة الخواص ٣٥١
ـ ٥ ـ المجالس للسيد الامين ج ٥ ـ ٢٠٩
ـ ٦ ـ مناهج التوسل ١٠٦ الجوائب

من تلامذته وكذلك سفيان الثوري . وحسبك بهما في هذا الباب - ١ -

أبو بحر الجاحظ

جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فقيه صدوق - ٢ -

ابن حجر العسقلاني

مناقب الصادق فاضلة ، وصفاته في الشرف كاملة ، جرى على سنن آبائه الكرام وأخذ بهديه وهديهم عليه وعليهم السلام ، ووقف نفسه الشريفة على العبادة وحبسها على الطاعة والزهادة ، واشتغل باوراده وتهجده وصلاته وتعبده لو طاوله الفلك لتزحزح عن مكانه .

الوزير أبو الفتح الاربلي

أبو عبدالله الامام المعظم جعفر الصادق ، صاحب الخارقات الظاهرة والآيات الباهرة المخبر بالمغيبات الكائنة أمه وأم أخيه عبدالله أم فروة بنت القاسم ابن محمد بن أبي بكر وأمها اسماء بنت عبدالرحمن بن أبي بكر ولذا كان جعفر بن محمد عليه الرضوان يقول ولدني أبو بكر مرتين ولد سنة ٨٣ وتوفي سنة ٤٨ ودفن بالبقيع - ٣ -

نقيب حلب

محمد بن حمزة بن زهرة

جعفر الصادق نقل الناس عنه من العلوم ماسارت به الركبان وانتشر صيته في جميع البلدان ، وروى عنه الأئمة الأكابر كيحيى بن سعيد وابن جريج ومالك والسفيانين وأبي حنيفة وشعبة وأيوب السجستاني - ٤ -

أحمد بن حجر الهيثمي

- ١ - رسائل الجاحظ للسندوبى ١٠٦
- ٢ - تقريب التهذيب ٦٨
- ٣ - غاية الاختصار ٦٢
- ٤ - الصواعق المحرقة ١٢٠

ولد الصادق بالمدينة يوم الجمعة عند طلوع الفجر سنة ٣٨ وعاش ٦٥ سنة وكانت امامته أربعاً وثلاثين سنة ، وقد نقل الناس عنه على اختلاف مذاهبهم ودياناتهم ماسارت به الركبان ، وقد عد اسماء الرواة عنه فكانوا أربعة آلاف رجل توفي في شوال سنة ١٤٨ ودفن بالبقيع مع أبيه وجده وقيل قتله المنصور الدوانيقي بالسم ـ ١ ـ

محمد سراج الدين الرفاعي

جعفر الصادق بن محمد الباقر زين العابدين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم سمي الصادق لصدقه ، وينسب اليه كلام في صفة الكيمياء والزجر والفال ولد سنة ٨٠ بالمدينة ودفن بالبقيع .

عمرو بن الوردي في تاريخه

جعفر الصادق بن محمد الباقر الامام السيد أبو عبدالله الهاشمي العلوي الحسيني المدني ، وكان يلقب بالصابر والفاضل والطاهر ، وأشهر القابه الصادق . حدث عنه أبو حنيفة وابن جريج وشعبة والسفيانان ومالك وغيرهم ـ ٢ ـ

جمال الدين أبو المحاسن

جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب السادس من الأئمة الاثني عشر والدته أم فروة كريمة القاسم بن محمد بن أبي بكر (رض) .ولد الامام جعفر في المدينة المنورة سنة ٨٢ ﻫ وهو اكبر اولاد الامام محمد الباقر تلمذ على والده فريد زمانه في العلم والفضل ، استمر على حلقة تدريس وإفادات جعفر الصادق الامام الاعظم أبو حنيفة ، واستفاد منه أولا في المعارف الظاهرية والباطنية ، وكان للامام اليد الطولا في الجفر والكيمياء والالمام

ـ ١ ـ صباح الاخبار ٤٤

ـ ٢ ـ النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٨

بسائر العلوم . وكان ممن تتلمذ على الامام موجد فن السكيمياء جابر ، لم يكن له نضير في الزهد والتقوى والقناعة وحسن الاخلاق ، ولصدق حسبه سمي بالصادق .
كان أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء العباسيين يدعو الى تعظيم الامام وتكريمه ويستنير بآرائه وارشاداته ونصائحه ، وعرض ابو مسلم الخراساني الخلافة ابتداءً على الامام جعفر الصادق فلم يقبلها ، كان له من الأولاد سبعة ابناء وثلاث بنات ، توفي فى سنة ١٤٨ عن عمر ناهز ٦٥ سنة في المدينة المنورة ودفن بجوار جده ووالده ، والمذهب الشيعي عرفوا صاحب الترجمة بامام ولانتمائهم اليه سموا بالجعفرية ـ ١ـ

جعفر بن محمد الصادق وهو ابن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب الهاشمي رضي الله عنهم يكنى أبا عبد الله وامه ام فروة بنت القاسم بن محمد بن ابي بكر الصديق وام ام فروة اسماء بنت عبد الرحمن ابن ابي بكر ، وكان من سادات أهل البيت سمع أباه ومحمد بن المكندر وعطاء بن ابي رباح ، روى عنه عبد الوهاب الثقفي وحاتم بن اسماعيل ووهيب بن خالد وحسن بن عياش وسليمان ابن بلال والثوري والداروردي ويحيى بن سعيد الانصاري وحفص بن غياث ومالك بن انس وابن جريح ، ولد سنة ثمانين ومات سنة ثمان وأربعين ومائة وهو ابن أربعة وستين سنة ـ٢ـ

محمد بن طاهر بن علي المقدسي

ـ ١ ـ قاموس الأعلام تأليف ش سامي ج ٣ ص ١٨٢١ استانبول وقد ترجمت الكلمة عن اللغة التركية .

ـ ٢ ـ الجمع بين رجال الصحيحين ج ١ ص ٧٠

جعفر الصادق أبو عبد الله جعفر بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين السبط الهاشمي القرشي سادس الأئمة الاثنى عشر عند الامامية : كان من أجل التابعين وله منزلة رفيعة فى العلم أخذ عنه جماعة منهم ابو حنيفة ومالك وجابر ابن حيان ، ولقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قط ، له اخبار مع الخلفاء من بني العباس، وكان جريئاً عليهم صداعاً في الحق ، وصنف تلميذه جابر بن حيان كتابا فى الف ورقة يتضمن « رسائل الامام جعفر الصادق » وهي عدد ٥٠٠ رسالة مولده ووفاته بالمدينة ـ ١ ـ

خير الدين الزركلي

(لولا السنتان لهلك نعمان) ابو حنيفة

يقول الألوسي : (هـذا أبو حنيفة وهو من أهل السنة يفتخر ويقول بافصح لسان لولا السنتان لهلك نعمان) يعني السنتين اللتين جلس فيهما لأخذ العلم عن الامام جعفر الصادق ـ ٢ ـ

جعفر الصادق فاق جميع اقرانه من أهل البيت وهو ذو علم غزير وزهد بالغ في الدنيا وورع تام عن الشهوات وأدب كامل فى الحكمة .

الشيخ عبد الرحمن السلمي

جعفر الصادق كان من بين اخوته خليفة أبيه ووصيه ، نقل عنه فى العلوم مالم ينقل عن غيره وكان اماماً في الحديث ومناقبه كثيرة .

السويدي في سبائك الذهب

جعفر الصادق له عمود الشرف ، ومناقبه متواترة بين الانام، مشهورة بين

ـ ١ ـ الاعلام ج ١ ص ١٨٦

ـ ٢ ـ التحفة الاثنى عشرية ـ ٨ ـ ط/١

الخاص والعام ، وقصده المنصور الدوانيق بالقتل مراراً فعصمه الله .

جمال الدين الداوردي

ولا مشاحة ان انتشار العلم في ذلك الحين قد ساعد على فك الفكر من عقاله فاصبحت المناقشات الفلسفية عامة في كل حاضرة من حواضر العالم الاسلامي ، ولا يفوتنا أن نشير الى ان الذي تزعم تلك الحركة هو حفيد علي بن ابي طالب المسمى بالامام الصادق وهو رجل رحب افق التفكير بعيد اغوار العقل ملم كل الالمام بعلوم عصره ، ويعتبر في الواقع انه أول من أسس المدارس الفلسفية المشهورة في الاسلام ، ولم يكن يحضر حلقته العلمية اولئك الذين أصبحوا مؤسسوا المذاهب الفقهية فحسب . بل كان يحضرها طلاب الفلسفة والمتفلسفون من الانحاء القاصية ـ ١ ـ

السيد مير علي الهندي

جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي ابن ابي طالب رضي الله عنهم أجمعين ، وكنيته ابو عبد الله وقيل ابو اسماعيل ، والقابه الصادق والفاضل والطاهر وأشهرها الأول ، نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر صيته في جميع البلدان وروى عنه الأئمة الكبار كيحيي ومالك وابي حنيفة ـ ٢ ـ

محمود بن وهيب البغدادي

الامام أبو عبد الله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب رضي الله عنهم الهاشمي المدني الصادق ، أمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن ابي بكر الصديق رضي الله عنهم ، روى عن أبيه والقاسم بن محمد ونافع وعطاء

ـ ١ ـ تاريخ العرب ١٧٩
ـ ٢ ـ جواهر الكلام ١٣ / ط بغداد

ومحمد بن المنكدر والزهري وغيرهم ، وروى عنه محمد بن اسحق ويحيي الانصاري ومالك والسفيانيان وابن جريج وشعبة ويحيي القطان وآخرون ـ واتفقوا على امامته وجلالته ـ قال عمر بن ابي المقدام : كنت اذا نظرت الى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيين ـ ١ ـ

ابو زكريا محي الدين بن شرف

جعفر الصادق أبو عبدالله بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب. روى عنه كثيرون كمالك والسفيانان وابن جريج وابن اسحاق ، واتفقوا على امامته وجلالته وسيادته ولد سنة ٨٠ وتوفي سنة ١٤٨ قيل مسموماً ، وثقه في روايته الشافعي وابن معين وابو حاتم والذهبي وهومن فضلاء أهل البيت وعلمائهم ـ٢ـ

احمد شهاب الدين الخفاجي

كان جعفر بن محمد الصادق مستجاب الدعوة اذا سأل الله شيئاً لا يتم قوله إلا وهو بين يديه .

الشبلنجي في نور الابصار

جعفر بن محمد سيد بني هاشم ابو عبد الله العلوي : الذهبي

جعفر بن محمد ابو عبدالله فقيه صدوق ـ ٣ ـ الزرقاني

ابو عبد الله جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي ابن ابي طالب رضي الله عنهم أجمعين أحد الأئمة الأثنى عشر على مذهب الامامية و كان من سادات آل البيت ، ولقب بالصادق لصدقه وفضله أشهر من أن يذكر .

ابن خلكان في وفياته

ـ ١ ـ تهذيب الاسماء ج ١ س ١٥٥

ـ ٢ ـ انظر شرح الشفاء .

ـ ٣ ـ شرح المواهب ج ١ س ٥١

سلالة النبوة ومعدن الفتوة ابو عبد الله جعفر الصادق بن ابي جعفر محمد الباقر ابن زين العابدين علي بن الحسين الهاشمي العلوي وامه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن ابي بكر ، فهو علوي الأب بكري الام ولد سنة ثمانين في المدينة (وفيها) توفي ودفن بالبقيع في قبر فيـــه أبوه محمد الباقر وجده زين العابدين وعم جده الحسن بن علي رضوان الله عليهم أجمعين واكرم بذلك وما جمع من الاشراف الكرام اولي المناقب وانما لقب بالصادق لصدقه في مقالته وله كلام نفيس في علوم التوحيد وغيرها وقد ألف تلميذه جابر بن حيان الصوفي كتابا يشتمل على الف ورقة يتضمن رسائله وهي خمس مائة رسالة .

مرآة الجنان ج ١ ص ٣٠٤ اليافعي

وقال الشيخ المناوي في الكواكب الدرية ج ١ ـ ٩٤ ـ عند ذكر الامام جعفر الصادق وكانت له كرامات كثيرة ومكاشفات شهيرة منها :

انه سعى به عند المنصور فلما حج احضر الساعي وقال للساعي اتحلف قال نعم تحلف فقال جعفر للمنصور : حلّفه بما أراه فقال حلفه فقال: قل برئت من حول الله وقوته والتجأت الى حولي وقوتي لقد فعل جعفر كذا وكذا فامتنع الرجل ، ثم حلف فما تم حتى مات مكانه .

ومنها ان بعض الطغاة قتل مولاه فلم يزل ليلته يصلي ثم دعا عليه عند السحر فسمعت الضجة بموته .

ومنها ـ انه لما بلغه قول الحكم بن العباس الكلبي في عمه زيد :

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة ولم نر مهدياً على الجذع يصلب

قال اللهم سلط عليه كلباً من كلابك فافترسه الأسد .

ومنها ـ ما أخرجه الطبري من طريق ابن وهب قال سمعت الليث بن سعد

يقول حججت سنة ثلاث عشرة ومائة فلما صليت العصر رقيت ابا قبيس فاذا رجل جالس يدعو فقال يارب حتى انقطع نفسه ثم قال يا حي يا حي حتى انقطع نفسه ثم قال إلهي اني اشتهي العنب فاطعمنيه وان بردي قد خلق فاكسني قال الليث فما تم كلامه حتى نظرت الى سلة مملوءة عنباً الى آخر ماذكره .

السادس من الأئمة جعفر الصادق ذو المناقب الكثيرة والفضائل الشهيرة روى عنه الحديث كثيرون مثل مالك بن أنس وأبي حنيفة ويحي بن سعد وابن جريج والثوري ، ولد رضي الله عنه بالمدينة المنورة سنة ثمانين من الهجرة ، وغرر فضائله على جبهات الأيام كاملة ، وأندية المجد والعز بمفاخره ومآثره آهلة وتوفي رضي الله عنه سنة ١٤٨ — ١ —

عبد الله الشبراوي

جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب الهاشمي ابو عبد الله الصادق المدني أحد الأعلام حدث عن أبيه وجده وابى امه القاسم بن محمد وعروة وعنه خلق لا يحصون فمنهم ابنا موسى وشعبة والسفيانان قال الشافعي وابن معين وابو حاتم ثقة مات سنة ١٤٨ عن ٦٧ — ٢ —

الجزري

ابو عبد الله جعفر الصادق كان من سادات أهل البيت ولقب بالصادق لصدقه فى مقالته ، ولد سنة ثمانين وروى عنه مالك بن انس وابو حنيفة وكثيرون من علماء المدينة — ٣ —

محمد الخضري

— ١ — اتحاف الاشراف ٥٤

— ٣ — الخلاصة ٧٦

— ٣ — التشريع الاسلامى ٢٦٣

واكبر شخصيات ذلك العصر فى التشريع الشيعي بل ربما كان اكبر الشخصيات في ذلك في العصور المختلفة الامام جعفر الصادق ، وعلى الجملة فقد كان الامام جعفر من أعظم الشخصيات فى عصره وبعد عصره وقد مات فى العام العاشر من حكم المنصور .

الدكتور أحمد أمين

جعفر بن محمد كان اماماً مفخرة من مفاخر المسلمين لم تذهب قط ، وانما بقي منها في كل غد قادم حتى القيامة صوت صارخ ، يعلّم الزهاد زهداً ويكسب العلماء علماً ، يهدي المضطرب ويشجع المقتحم ، يهدم الظلم ويبني للعدالة ، وهو ينادي بالمسلمين جميعاً أن هلموا واجتمعوا وان قوماً لم يختلفوا في ربهم وفي نبيهم لمجموعون مهما اختلفوا في يوم قريب ـ ١ ـ

عبد العزيز سيد الأهل

كان بيت جعفر الصادق كالجامعة يزدان على الدوام بالعلماء الكبار في الحديث والتفسير والحكمة والكلام ، فكان يحضر مجلس درسه فى أغلب الأوقات ألفان وبعض الأحيان اربعة آلاف من العلماء المشهورين ، وقد الف تلاميذه من جميع الاحاديث والدروس التي كانوا يتلقونها فى مجلسه مجموعة من الكتب تعد بمثابة دائرة معارف للمذهب الشيعي أو الجعفري

السيد محمد صادق نشأة الاستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة

أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين هو أحد الأئمة الاثنى عشر على مذهب الامامية كان من سادات أهل البيت النبوي لقب بالصادق لصدقه فى كلامه .

فريد وجدي

ـ ١ ـ كتاب جعفر بن محمد ص ٦

جعفر الصادق وهو ابن محمد الباقر بن علي زين العابدين كان من سادات أهل البيت ولقب بالصادق لصدقه ، وفضله عظيم ، له مقالات فى صناعات الكيمياء والزجر والفال وكان تلميذه جابر بن حيان قد ألف كتابا يشتمل على الف ورقة تتضمن (رسائل الصادق) وهي خمس مائة رسالة ، واليه ينسب كتاب الجفر وسيذكر ، وكان جعفر أديبًا تقيًا دينًا حكيما فى سيرته -١-

بطرس البستاني

وبهذا نكتفي عن ذكر أقوال بقية العلماء الآخرين ، وسيأتي محل آخر ننشر فيه آراء علماء العصر من المسلمين . ويلزمنا التنبيه على شيء مرّ ذكره في بعض هذه الأقوال وهو نسبة الزجر والفال الى الامام الصادق (ع) وهذا من الخطأ والاشتباه وإنما كان الامام يستشف ما وراء الحجب وينظر المستقبل بحكمته وصفاء باطنه يخبر بالحوادث قبل وقوعها ، ومما يؤثر عنه فى هذا الباب قوله : « علمنا غابر ومزبور نقشٌ في القلوب ونقر فى الاسماع وعندنا الجفر الأحمر والأبيض ومصحف فاطمة فيها جميع ما يحتاج الناس اليه ، وقد اخبر بأن الخلافة للسفاح ومن بعده للمنصور وتبقى فى أولاده من بعده ، وأخبر بمقتل محمد وابراهيم على يد المنصور ، وكان معارضاً لبيعة محمد في المؤتمر الذي عقده الهاشميون من عباسيين وعلويين لبيعة محمد بن عبد الله وقال لعبد الله بن الحسن لا تفعلوا فان الأمر لم يأت بعدُ ، فقال عبد الله : لقد علمت خلاف ما تقول ، قال الصادق : لا ، ولكن هذا وابناؤه دونك وضرب بيده على ابي العباس ثم نهض فاتبعه عبد الصمد بن علي وابو جعفر المنصور فقالا له : أتقول ذاك ؟ قال : نعم أقوله والله واعلمه ، وليس فى وسعنا بسط القول في علمهم وانكشاف حقائق الأشياء

-١- دائرة المعارف ج ٦ ص ٤٦٨

لهم فقد أخبروا بكثير من الحوادث قبل وقوعها ، وصدر عن الصادق كثير من ذلك .

وأما نسبة الزجر والفال اليه فهو خطأ نشأ من اشتباه فى الاسم وتقارب فى الزمن وذلك ان جعفر بن محمد البلخي المعروف بابي معشر الفلكي كان مشهوراً بالزجر والفال واستاذ عصره فى التنجيم ونقل الناس اخباره وشاع ذكره .

قال في البداية والنهاية ج ١١ ص ٥١ : والظاهر ان الذي نسب الى جعفر بن محمد الصادق من علم الزجر والفال واختلاج الاعضاء إنما هومنسوب الى جعفر بن أبي معشر هذا وليس بالصادق وانما يغلطون

مدرسته

ليس من المبالغة والخروج عن الواقع وصف مدرسة الامام الصادق بأنها جامعة اسلامية ، خلفت ثروة علمية وخرَّجت عددا وافراً من رجال العلم ، وعدّت أسماء تلامذته والمتخرجون من مدرسته فكانوا أربعة آلاف رجل ، وقد صنف الحافظ أبو العباس بن عقـدة كتاباً جمع فيـه رجال الصادق ورواة حديثـه وانهاهم الى أربعة آلاف . قال الشيخ المفيد في الارشاد : (إن اصحاب الحديث قد جمعوا الرواة عن الصادق من الثقات على اختلافهم في الاراء والمقالات فكانوا أربعة آلاف) .

وقال الشيخ محمد بن علي الفتال : (قد جمع أصحاب الحديث اسماء الرواة عنه من الثقات على اختلافهم في الآراء والمقالات فكانوا أربعة آلاف) .

وقال السيد علي بن عبدالحميد النيلي في كتاب الأنوار : (ومما اشتهر بين العامة والخاصة ان اصحاب الحديث جمعوا اسماء الرواة عنه فكانوا أربعة آلاف) .

وقال الشيخ الطبرسي في أعـلام الورى : (ولم ينقل عن احد من سائر العلوم ما نقل عنه ، فان اصحاب الحديث قد جمعوا أسماء الرواة عنـه من الثقات فكانوا أربعة آلاف رجل ، وقال في القسم الثالث : (وروى عن الصادق من أهل العلم أربعة آلاف إنسان) .

وقال ابن شهر اشوب في المناقب : (نقل عن الصادق من العلوم مالا ينقل عن أحد ، وقد جمع أصحاب الحديث اسماء الرواة من الثقات على اختلافهم في الآراء فكانوا أربعة آلاف) .

وقال المحقق في المعتبر في جملة كلامه عن الصادق : (فانه انتشر عنه من

العلوم الجمة ما بهر به العقول وروى عنه جماعة من الرجال مايقارب اربعة آلاف رجل) .

وقال الشهيد في الذكرى : (إن ابا عبدالله جعفر بن محمد الصادق كتب من اجوبة مسائله اربعمائة مُصنف لاربعمائة مصنف ، ودوّن من رجاله المعروفين أربعة آلاف رجل من أهل العراق والشام والحجاز) .

وقال الشيخ حسين والد العلامة البهبهاني في ذكر الصادق : (ودّون العامة والخاصة ممن تبرّز بتعلمه من العلماء والفقهاء أربعة آلاف) .

فهي في العصر الذي أقبل المسلمون على تعلم العلوم الجديدة التي يدرسونها الى جانب الفقه والتفسير قد كانت مصدراً لتلك العلوم .

ولو تسنى لمدرسته الظهور التام لأدى رسالته على أكمل الوجوه ، ولحمل الناس على المبادىء الصحيحة ، وصدهم عن ارتكاب اخطار المعتقدات الفاسدة التي آلت بالأمة الى الانهيار .

ولكن مثل هذه الشهره لاتروق لبني العباس ، وفي نظرهم أن ذلك هو أعظم خطر يهدد كيان الدولة . فكانت شهرة الصادق توقض مضاجعهم ، وتبعثهم على القلق والأرتباك فكانوا يتخذون التدابير ضده ، ويضعون الخطط الموصلة إلى غلق ابواب تلك المدرسة الاسلامية التي يخشى منها اتساع نفوذ العلويين ، وعلو مكانتهم في المجتمع ، وهم بأهم منطقة تتجه اليها انظار الأمة من سائر الاقطار الاسلامية وهي المدينة المنورة فاستطاعوا بعد مدة ـ بما يطول شرحه ـ من غلق أبواب تلك الجامعة الاسلامية التي كان يهمهم أمرها .

تلامذته ورواة حديثه

ونحن نذكر اشهر من اخذ العلم عن الامام الصادق بدون تفصيل في الموضوع واطالة في البحث واليك قسما منهم :

﴿ مالك بن أنس الأصبحي ﴾ رئيس المذهب المالكي روى عنه جماعة كالزهري ويحيي الانصاري وابن جريح وشعبة والثوري وابن عيينة والقطان وخلق كثير وكان قد أخذ العلم عن الصادق واشتهر عنه قوله : مارأت عين ولا سمعت اذن ولا خطر على قلب أحد أفضل من جعفر بن محمد عبادة وورعا وعلما وستأتي ترجمته بالتفصيل .

﴿ أبو حنيفة ﴾ الامام أبو حنيفة المتولد سنة ٨٠ والمتوفي سنة ١٥٠ رئيس المذهب الحنفي أخذ عنه جماعة كثيرون وأخذ هو عن الصادق حتى اشتهر عنه لولا السنتان لهلك نعمان وما رأيت افقه من جعفر بن محمد كما مر وستأتي ترجمته .

﴿ سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ﴾ من أهل الكوفة ومن رؤساء المذاهب البائدة روى عنه خلق كثير من علماء الأمة كمحمد بن عجلان والاوزاعي وحماد بن سلمة ويحي بن سعيد القطان وفضيل بن عياض وكان قد أخذ عن الصادق وله اختصاص به يروي لنا عن آدابه واخلاقه ومواعظه .

﴿ سفيان بن عيينة بن أبي عمران ﴾ المتوفي سنة ١٩٨ والمدفون بالحجون روى عن الصادق وأخذ عنه وروى عنه خلق كثير كالأعمش والثوري وشعبة وهمام ويحيي بن سعيد والشافعي وابن المديني قال الشافعي : لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز وهو أحد رؤساء المذاهب البائدة .

﴿ شعبة بن الحجاج ﴾ المتولد سنة ٨٠ والمتوفى سنة ١٦٠ ابن الورد العتكي

مولاهم الكوفي روى عنه أيوب وابن المبارك خرّج له الجماعة وروى عنه خلق كثير قال الشافعي لولا شعبة لما عرف الحديث بالعراق وقال أحمد شعبة: امة واحدة

﴿ فضيل بن عياض بن سعد بن بشر التميمي اليربوعي ﴾ المتوفى سنة ١٨٧ قال الجزري : (هو أحد أئمة الهدى والسنة ، روى عنه الاعمش وسليمان التيمي وابن المبارك وابن القطان وأحمد بن المقدام وخلق كثير ، وثقه النسائي وغيره ، وخرّج له البخاري والترمذي ومسلم والنسائي ـ ١ ـ

﴿ حاتم بن اسماعيل ﴾ المتوفى سنة ١٨٠ كوفي الاصل خرّج له البخاري ومسلم والترمذي والجماعة وكان ثقة في الحديث ، أخذ عن الصادق وأخذ عنه خلق كثير منهم اسحاق وابن معين ـ ٢ ـ

﴿ حفص بن غياث بن طلق بن معاوية بن مالك ﴾ أبو عمرو الكافي روى عن الصادق وروى عنه احمد ، واسحق ، وأبو نعيم ، ويحيى بن معين ، وعلي بن المديني وعفان بن مسلم ، وعامة الكوفيين ، ولي قضاء بغداد ثم عزل وولي قضاء الكوفة ، وكان كثير الحديث حافظا له ثبتاً فيه مقدما عند المشايخ كتبوا عنه من حفظه ثلاثة آلاف أوأربعة آلاف حديث خرّج له الجماعة اجمع ـ ٣ ـ

﴿ زهير بن محمد التميمي ﴾ أبو المنذر الخراساني المتوفى سنة ١٦٢ اخذ عن الامام الصادق وعنه أبو داوود الطيالسي ، وروح بن عبادة وأبو عامر العقدي وعبدالرحمن بن مهدي ، والوليد بن مسلم ، ويحيى بن بكير ، وأبو عاصم وغيرهم وثقه أحمد ويحيى وعثمان الدارمي وهو من رجال الصحاح ـ ٤ ـ

ـ ١ ـ تهذيب التهذيب

ـ ٢ ـ خلاصة الكمال ٥٦

ـ ٣ ـ تأريخ بغداد ج ٨ ـ ١٨٨ والخلاصة ص ٧٤

ـ ٤ ـ تهذيب التهذيب ج ٣ ـ ٣٤٨

﴿يحيى بن سعيد بن فروخ القطان الحافظ البصري﴾ المتولد سنة ١٢٠ والمتوفى سنة ١٩٨ روى له رجال الصحاح وحدث عنه ابن مهدي وعفان ومسدد وأحمد واسحاق ، وابن معين ـ ١ ـ وعده ابن قتيبة في المعارف من الشيعة وهو غلط . نعم اتهم بذلك وسيدخل (قفص الاتهام فيما بعد) *

﴿اسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الانصاري المتوفى ببغداد سنة ١٨٠ روى عنه محمد بن جهضم ويحيى بن يحيى النيسابوري ، وأبو ربيع الزهراني ، وأبو معمر الهذلي وغيرهم ، قال ابن سعد ثقة وهو من أهل المدينة قدم بغداد ولم يزل بها حتى مات ، خرّج له البخاري ومسلم والجماعة ـ ٢ ـ

﴿ابراهيم بن محمد بن أبي يحيى الاسلمي أبو اسحاق المدني﴾ المتوفى سنة ٩١ روى عن الصادق ، وله كتاب مبوّب عنه في الحلال والحرام ، وذكره الشيخ الطوسي في الفهرست ، وروى عنه ابراهيم بن طهمان والثوري وهو أكبر منه وكنى عن اسمه ، وابن جريج والشافعي وسعيد بن أبي مريم وأبو نعيم وآخرون ويعدّ من مشايخ الشافعي وقد أكثر عنه في كتبه ـ ٣ ـ وقد اتهم ابراهيم بالحط من السلف فضعف ونسب الى الكذب ولعل سبب ذلك اختصاصه بحديث أهل البيت أكثر من غيره .

﴿الضحاك بن مخلد أبو عاصم النبيل البصري﴾ المتولد سنة ١٢٢ والمتوفى سنة ٢١٤ روى عن الصادق وعنه البخاري وأحمد بن حنبل وابن المديني واسحاق ابن راهويه ، قال ابن شيبة والله مارأيت مثله .

ـ ١ ـ تذكرة الحفاظ ج ١ ـ ٢٧٥ وتهذيب التهذيب ج ١١ ـ ٢١٦

* — اسم كتاب المؤلف لم يطبع

ـ ٢ ـ تهذيب التهذيب ج ١ — ٢٨٢

ـ ٣ ـ « « « ١ — ٧٦٠

﴿ محمد بن فليح بن سليمان المدني ﴾ المتوفى سنة ١٧٧ روى له البخاري والنسائي وابن ماجة عبدالوهاب بن عبدالمجيد بن الصات المتوفى سنة ١٩٤ روى عنه محمد بن ادريس الشافعي وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين وابن المديني وغيرهم قدم بغداد في أيام المنصور وحدث بها وثقه ابن معين وكانت غلة عبدالوهاب في كل سنة مائتين وأربعين الف ينفقها على أصحاب الحديث لايحول الحول على شيء منها خرّج له مسلم والبخاري .

﴿ عثمان بن فرقد العطار أبو معاذ البصري ﴾ خرّج له البخاري في صحيحه والترمذي وروى عنه ابن المديني وابن المثنى وزيد بن احزم ، قال ابن حبان مستقيم الحديث .

﴿ عبدالعزيز بن عمر بن عبدالعزيز الزهري بن أبي ثابت الاعرج المدني ﴾ المتوفى سنة ١٩٧ خرّج له الترمذي في صحيحه .

﴿ عبدالله بن دكين الكوفي ﴾ خرّج له البخاري في الأدب المفرد وثقه أحمد ، وروى عنه يحيى الوضاحي وموسى بن اسماعيل .

﴿ زيد بن عطا بن السائب ﴾ روى عنه اسرائيل وجرير بن عبدالحميد وثقه أبو حاتم .

﴿ مصعب بن سلام التميمي الكوفي ﴾ أحد رواة الصادق وعنه أحمد وأبو سعيد الاشبح خرّج له الترمذي ، قال ابن معين : ليس به بأس ، وقال العجلي وقال أبو حاتم شيخ محله الصدق ،

﴿ بسام بن عبدالله الصيرفي ﴾ خرج له النسائي ووثقه يحيى بن معين .

﴿ بشير بن ميمون الخراساني ﴾ روى عنه أحمد بن عاصم الخراساني ، قدم بغداد وروى الحديث عن جعفر بن محمد الصادق (ع) خرّج له ابن ماجة .

﴿ الحارث بن عمير البصري ﴾ نزيل مكة روى عن الصادق (ع) وعنه ابن عيينة وابن مهدي وأبو اسامة .

﴿ المفضل بن صالح الأسدي ﴾ أبو جميلة الكوفي خرّج له الترمذي وروى عنه محمد بن عبيدالله المحاربي .

﴿ أيوب السجستاني ﴾ أيوب بن أبي تميمة السجستاني أبو بكر البصري مولى عنزة ، ويقال مولى جهينة روى عنه الاعمش وقتادة وهومن شيوخه والحمادان والسفيانان وشعبة ، وخلق كثير ، وثقه ابن سعد وابن معين ولد سنة ٦٦ ومات سنة ١٢١ ـ ١ ـ

﴿ عبدالملك بن جريج القرشي ﴾ أحدالعلماء المشهورين ويقال : ـ إنه أول من صنّف الكتب في الاسلام ، ولد سنة ٨٠ وتوفي سنة ١٤٩ .

وغير هؤلاء ممن نسب لمدرسة الصادق ، وأخذ عنه وروى حديثه ، وذكر ذلك ابن حجر في تهذيب التهذيب ولسان الميزان ، والذهبي في ميزان الاعتدال وتذكرة الحفاظ ، والجزري ، في الخلاصة والخطيب في تاريخه ، ولا يصعب على المتتبع احصاءهم ، وقد افرد بعض علمائنا رسائل في عددهم وذكر اسمائهم رحمهم الله تعالى .

من الشيعة

ابان بن تغلب

أبو سعد الكوفي ، روى عن السجاد ، والباقر ، والصادق ، ومات في أيامه قال الشيخ في الفهرست : ابان بن تغلب بن رباح ابوسعيد البكري الحريري مولى جرير بن عباد ، ثقة جليل القدر عظيم المنزلة فى أصحابنا ، لقي أبا محمد علي ابن الحسين وأبا جعفر الباقر وروى عنهم ، وكانت له عندهم حظوة وقدم ، وقال له ابو جعفر الباقر : اجلس فى مسجد المدينة وأفت الناس فاني أحب أن يرى في شيعتي مثلك . وكان غزير العلم متضلعاً في عدة علوم وله كتب ذكرها ابن النديم فى الفهرست منها كتاب معاني القرآن ، كتاب القرآت ، كتاب من الاصول في الرواية على مذهب الشيعة ـ ١ ـ .

وقال ابن سعد في الطبقات ابان الربعي توفي في الكوفة فى خلافة أبي جعفر وعيسى بن موسى وال علي الكوفة وكان ثقة وروى عنه شعبة ، وقال فى التهذيب روى عنه موسى بن عقبه ، وشعبة ، وحماد بن زيد وابن عيينة وجماعة ، وثقه أحمد ، ويحيى ، وابو حاتم ، والنسائي .

قال الذهبي فى ميزان الاعتدال ابان بن تغلب الكوفي شيعي جلد لكنه صدوق فلنا صدقه وعليه بدعته (٢) وقد وثقه أحمد بن حنبل وابن معين وابو داود

ـ ١ ـ ابن النديم ٣٠٨ .

(٢) لم يكن ابان مبتدعاً ولكنه بتفضيله لعلي وقوله بامامته اصبح مبتدعاً فى نظر الذهبي واضرابه .

خرج له مسلم وابو داود ، والترمذي ، وابن ماجة .

قال الجوزجاني : ابان بن تغلب زائغ مذموم المذهب ، قال ابن حجر واما الجوزجاني فلا عبرة بحطه على الكوفيين ، فالتشيع في عرف المتقدمين هو اعتقاد تفضيل عثمان ، وان علياً كان مصيباً في حروبه وان مخالفه مخطىء مع تقديم الشيخين ، وربما اعتقد بعضهم ان علياً أفضل الخلق بعد رسول الله واذا كان معتقد ذلك ورعاً ديناً صادقا مجتهداً فلا ترد روايته ـ ١ ـ

﴿ ابان بن عثمان ﴾ بن احمر البجلي ابو عبد الله أصله كوفي ، وكان يسكنها تارة والبصرة أخرى ، وقد أخذ عنه أهلها منهم ابو عبيدة معمر بن المثنى وابو عبد الله محمد بن سلام ، واكثروا الحكاية عنه في اخبار الشعراء والنسب والأيام روى عن ابي عبد الله الصادق (ع) وابي الحسن موسى (ع) . وله مؤلفات منها كتاب المبتدى ، والبعث والمغازي والوفاة ، وذكره ابن حبان في الثقات ، قال محمد بن ابي عمر : كان ابان من أحفظ الناس بحيث انه يرى كتابه فلا يزيد حرفا على رأس المائتين (٢)

وهو من الستة أصحاب ابي عبد الله (ع) الذين أجمعت العصابة على تصحيح ما يصح عنهم والاقرار لهم بالفقه وهم جميل بن درّاج ، وعبد الله بن مسكان ، وعبد الله بن بكير ، وحماد بن عيسى ، وحماد بن عثمان وابان بن عثمان.

﴿ بكير بن أعين الشيباني ﴾ أخو زرارة روى عن الباقر والصادق (ع) ومات في أيام الصادق (ع) ولما بلغه خبر موته قال : أما والله لقد انزله الله بين رسول الله (ص) وأمير المؤمنين (ع) وذكره يوماً فقال : رحم الله بكيراً

ـ ١ ـ تهذيب التهذيب ج ٣ ص ٩٣

(٢) وردت العبارة هكذا والصحيح يقرأ كتابه فلا يزيد حرفا واحداً وتوفى على رأس المائتين ـ انظر لسان الميزان ـ ج ١ ص ٢٤ .

وهو من الثقات ، وقد روى عنه جماعة .

﴿ جميل بن دراج بن عبدالله النخعي ﴾ روى عن الصادق والكاظم وتوفي أيام الرضا ، وهو من الستة الذين اجمعت العصابة على تصحيح مايصح عنهم .

﴿ حماد بن عثمان بن زياد الرواسي الكوفي ﴾ روى عن الصادق (ع) والكاظم والرضا (ع) ، وهو من أصحاب الصادق (ع) ومن الستة المار ذكرهم توفي سنة ١٩٠ .

﴿ الحارث بن المغيرة النصري ﴾ روى عن الباقر (ع) وعن الصادق (ع) والكاظم (ع) ، كان جليل القدر مقبول الرواية له منزلة عظيمة .

﴿ هشام بن الحكم ﴾ البغدادي الكندي مولى بني شيبان كنيته أبو محمد وقيل أبو الحكم أصله من الكوفة وانتقل الى بغداد قال ابن النديم : هو من جلة اصحاب أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق (ع) وهو من متكلمي الشيعة ممن فتق الكلام في الأمامة وهذّب المذهب والنظر وكان حاذقاً بصناعة الكلام حاضر الجواب سئل عن معاوية أشهد بدراً ؟ فقال : نعم من ذاك الجانب ، وكان ينزل الكرخ من مدينة السلام وتوفي بعد نكبة البرامكة مستتراً ، وقيل في خلافة المأمون وله من الكتب كتاب الأمامة ، كتاب الدلالات ، ثم ذكر له أكثر من عشرين مؤلفاً .

ودعى له الامام الصادق (ع) قال : (لا تزال مؤيداً بروح القدس مانصرتنا بلسانك) ، وكان أولا من أصحاب جهم بن صفوان ثم انتقل الى القول بالامامة بالدلائل والنظر ، وكان الصادق (ع) يقول فيه : هذا ناصرنا بقلبه ولسانه ويده ويقول أيضاً هشام بن الحكم رائد حقنا وسائق قولنا المؤيد لصدقنا والدامغ لباطل اعدائنا .

وكان هشام يقول : مارأيت مثل مخالفينا عمدوا الى من ولاه الله من سمائه فعزلوه ، والى من عزله الله من سمائه فنصبوه ، ولهشام اخبار كثيرة ومحاججات ومناظرات مع خصوم آل محمد ، وكان يخوض غمرات البحث فيخرج منها وحليفه النصر .

روى الكليني في الصحيح انه ورد على الصادق عليه السلام رجل من أهل الشام فقال له : إني صاحب كلام وفقه وفرائض وقد جئت لمناظرة اصحابك ، فقال له الصادق (ع) : كلامك هذا من كلام رسول الله (ص) أومن عندك ؟ فقال : بعضه من كلام رسول الله (ص) وبعضه من عندي ، قال : فانت إذاً شريك رسول الله (ص) ، قال : لا ، قال : فسمعت الوحي عن الله تعالى ؟ قال: لا ، قال : فتجب طاعتك كما تجب طاعة رسول الله (ص) ؟ قال : لا ، فقال الصادق (ع) : هذا قد خصم نفسه قبل أن يتكلم ، ثم اخرج الصادق (ع) رأسه وكان في خيمة في الحرم قبل الحج بايام فاذا هو ببعير يخب فقال هشام ورب الكعبة فاذا هشام بن الحكم قد ورد وهو أول مااختطت لحيته وليس في اصحاب الصادق (ع) إلا من هو أكبر سناً منه فوسع له الصادق (ع) وقال : ناصرنا بقلبه ولسانه ويده ، ثم قال للشامي : كلم هذا الغلام يعني هشام بن الحكم فقال الشامي لهشام : سلني في إمامة هذا يعني الصادق (ع) فغضب هشام حتى ارتعد وقال ياهذا ربك انظر لخلقه أم هم لأنفسهم ؟ فقال : بل ربي انظر لخلقه ، قال : فعل بنظره لهم فى دينهم ماذا قال : كلفهم وأقام لهم حجة ودليلاً على ما كلفهم وأزاح في ذلك عللهم ، قال : فما هذا الدليل الذي نصبه لهم ؟ قال : هو رسول الله (ص) ، قال : فبعد رسول الله (ص) ؟ قال : الكتاب والسنة ، قال فهل ينفعنا اليوم الكتاب والسنة فيما اختلفنا فيه حتى رفع عنا الاختلاف ؟ قال :

فلم اختلفنا نحن وانت وجئتنا من الشام تخالفنا وتزعم أن الرأي طريق الدين وأنت تقرّ أن الرأي لايجتمع على القول الواحد للمختلفين ؟ فسكت الشامي كالمفكر فقال له الصادق (ع) : مالك لاتتكلم ؟ قال : إن قلت ما اختلفنا كابرت ، وان قلت إن الكتاب والسنة يرفعان الاختلاف أبطلت لانهما يحتملان الوجوه ، ولكن لي عليه مثل ذلك فقال الصادق « ع » : سله تجده ملياً فقال لهشام : من انظر للخلق ربهم أو انفسهم ؟ قال : بل ربهم ، قال : فهل أقام لهم من يجمع كلمتهم ويرفع اختلافهم ويبين حقهم من باطلهم ؟ قال : نعم ، قال : من هو ؟ قال : أما في ابتداء الشريعة فرسول الله « ص » ، وأما بعده فغيره ، قال : من هو غيره ؟ قال في وقتنا هذا هو هذا الجالس يعني الصادق (ع) الى آخر ماذكر .

﴿ المعلى بن خنيس ﴾ كان من أصحاب الامام ومواليه ومن عذّب في الله وقتل بحب آل محمد قتله الامير داوود بن علي وصادر امواله - والاسباب غير مجهولة في ذلك - لأن المعلى كان من خواص الامام الصادق (ع) بصورة تستدعي غضب الوالي وكان داوود بن علي عندما ولي المدينة أوالجزيرة برمتها ، استعمل العسف والجور والاضطهاد للطالبيين فكان شديداً في مطاردتهم وتتبع انصارهم . وبطبيعة الحال ان مثل المعلى بمواقفه واتصاله بالامام لايسلم من شرّ هذا الوالي وقد تلقى الامام الصادق هذه الحادثة بالاستياء واثر في نفسه ومشى الى ديوان الأمير وهو محنق على خلاف عادته وقال له قتلت مولاي واخذت مالي أما علمت أن الرجل ينام على الثكل ولا ينام على الحرب ، وقابله الامام بالشدة والعنف وحاول ذلك الأمير أن يسند هذا الجرم لصاحب الشرطة ويبرأ من تبعته فامر بقتله ليتستر بذلك ، ولكن صاحب الشرطة فضح امره فاعلن للملأ عندما سيق للاعدام بقوله يأمرونني بقتل الناس فاقتلهم لهم ثم يأمرون بقتلي .

وقد اختلفت أقوال المؤرخين في الحادثة فتارة يذكرونها في عهد السفاح وأخرى في عهد المنصور .

وليس في امكاننا احصاء اصحابه ورواة الحديث عنه من الشيعة ونكتفي بهذا القدر ، وقدأرجأنا ذكر بعض الاعيان منهم لمحل آخر ، كعبد الملك بن اعين وزرارة وابنه ، وعلي بن يقطين ، وعمار الدهني وعمرو بن حنظلة ، والفضيل بن يسار ، وأبو بصير ، ومؤمن الطاق ، ومحمد بن مسلم ، ومعاوية بن عمار ، والمفضل ابن عمر ، وهشام بن سالم ، وغيرهم .

مع البخاري

قطع صحيح البخاري ـ ١ ـ شوطاً بعيداً من الشهرة ونال قبولاً دون غيره من كتب الحديث فاصبحت له منزلة لايشاركه بها غيره ، ومن العسير موآخذته بشيء ولقد تهيب أكثر الحفاظ عن نقده ووقفوا امامه موقف خضوع وتسليم . يقول الذهبي في ذكره لبعض الاحاديث : ولولا هيبة الصحيح لقلت إنها موضوعة ، وذهب ابن حزم الى تكذيب بعض أحاديثه ـ ٢ ـ فعنف ، لان التسليم لصحيحه أصبح معمولا به فلا يمكن لاحد أن يعمل بحرية الرأي .

ومع هذا فان بعض الحفاظ من كبار المحدثين تناولوه بالنقد بصراحة وحرية في الرأي من وجوه أهمها .

ـ ١ ـ ابو عبدالله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن (بردزبه) بباء موحدة مفتوحة ثم راء ساكنة ثم دال مهملة مكسورة ثم زاء ساكنة ثم باء موحدة ثم هاء معناه بالعربية الزراع وكان جده المغيرة مجوسياً كابيه اسلم على يد اليمان البخاري الجعفي لذلك قيل للبخاري جعفي لانه مولى يمان الجعفي ولد سنة ١٩٤ وتوفى سنة ٢٥٦ ودفن بخرتنك قرية على فرسخين من سمرقند .

ـ ٢ ـ تهذيب التهذيب ٨ ـ ١٤٦ .

١ — ترتيب الكتاب والعلاقة بينه وبين الترجمة وما تحتها .

٢ — انه يقطع الحديث فيذكر بعضه في باب وبعضه في آخر وهكذا ، وقد تختلف الرواة في الاجزاء المختلفة ، وقد يذكر بعضها متصل السند وبعضها منقطعه وقد أخذ عليه في هذا الباب بعض مآخذ لم يستطع المنتصرون له أن يجيبوا عنها ـ ١ ـ

٣ — انتقده الحفاظ في بعض أحاديث بلغت ١١٠ منها ٣٢ حديثا اتفق فيها هو ومسلم ومنها ما انفرد بتخريجه وهو ٧٨ ، ـ ٢ ـ

٤ — إن بعض الرجال الذين روى لهم غير ثقاة وقد ضعف الحفاظ من رجال البخاري نحو الثمانين .

وعلى كل فان صحيح البخاري كان محلا للوثوق والاعتماد عند أكثر المحدثين ولشخصيته منزلة عظيمة في عصره ولبعض الناس في صحيحه اعتقاد عظيم واليك ما ذكره القاسمي وغيره .

« هو عدل القرآن وانه إذا قرأ في بيت أيام الطاعون حفظ أهله منه ، وإن من ختمه على أي نية حصل مانواه وأنه ماقرأ في شدة إلا فرّجت ، ولا ركب به في مركب فغرقت » ـ ٣ ـ

وقد جرى على العمل بذلك كثير من رؤساء العلم ، ومقدمي الاعيان إذا ألمّ بالبلاد نازلة . يوزّعون اجزاءه ـ على العلماء والطلبة ـ (لكشف الخطوب وتفريج الكروب ، فهو يقوم عندهم في الحرب مقام المدافع والصارم والاسل ، وفي الحريق مقام المضخة والماء وفي الهيضة مقام الحيطة الصحيحة وعقاقير الاطباء

ـ ١ ـ ضحى الاسلام ج ٢ ـ ١١٦   ـ ٢ ـ مفتاح السنة للخولي ـ ٤
ـ ٣ ـ قواعد التحديث للقاسمي ٢٥٠

وفي البيوت مقام الخضراء والشرطة وعلى كل حال هو مستنزل الرحمات ومستقر البركات) - ١ -

ونحن لاننكر عظمة حديث النبي (ص) وبركة آثاره ولكن من الخير أن نتسائل لأي شيء اختص صحيح البخاري دون غيره بهذه الخصوصية من كتب الحديث ولماذا كانت له هذه المنزلة دونها، ونتسائل لِمَ لم يقرء القرآن وفيه شفاء للناس ودفع لما يكرهون ؟ ولماذا كان صحيح البخاري عدلا للقرآن وأصبح التوسل به من العقائد الراسخة يتلى لدفع المجاعة ويوّزع احزابا في المساجد والبيوت كما حدث في مجاعة سنة ٧٩٨ في مصر ؟؟؟ فان كان لصحة احاديثه فلماذا لم تكن هذه الخصوصية لموطأ مالك الذي قيل فيه أصح كتاب بعد كتاب الله ؟ وصحيح مسلم الذي قالوا فيه ماتحت أديم السماء اصح من كتاب مسلم - ٢ - ويقول ابن حجر : حصل لمسلم في كتابه حظ عظيم مفرط لم يحصل لأحد مثله بحيث أن بعض الناس كان يفضله على صحيح محمد بن أسماعيل وذلك لما اختص به من جمع الطرق وجودة السياق والمحافظة على اداء الالفاظ، من دون تقطيع ولا رواية بمعنى وقال الحاكم : سمعت أبا الوليد يقول قال لي أبي : أي كتاب تجمع ؟ قلت اخرّج على كتاب البخاري، قال : عليك بكتاب مسلم فانه أكثر بركة.

وهذا صحيح الترمذي بحسن ترتيبه وتنميقه وتتبعه للصحيح من غيره لِمَ لم يكن بمنزلة البخاري ؟ وقد قالوا : إن كتاب الترمذي أنور من كتاب البخاري، فان كانت تلك العظمة التي احرزها لما حواه فالقرآن أولى بأن يتخذ

- ١ - من مقال لاحد علماء الازهر نشره فى احدى المجلات المصرية فى معرض نقده لذلك الاعتقاد السائد نشرها سنة ١٣٢٠ هـ انظر - قواعد التحديث - ٢٥١.

- ٢ - تذكرة الحفاظ ٢ - ١٠٤.

لدفع تلك المشاكل ، أو كان لعظمة فى نفس البخاري فمالك أعظم منزلة وأعلا كعباً وأعرق نسباً واغزر علماً .

ولكن تلك امور مرتجلة لا تعود الى شيء صحيح ، وللبخاري منزلة كوّنتها ظروف خاصة وأسباب لا يسعنا عرضها وليس غرضنا في البحث أن نقسو بالحكم على البخاري ولا أن نجحف بحقه فنقول بمقالة جمال الدين الحنفي : من قرأ كتاب البخاري تزندق -١- ولا نتعصب عليه فنحن نعتز برجال الامة وعلمائها ولكن هناك أمر لابد من ذكره لصلته بالبحث وهو عدم تخريج البخاري لحديث الصادق مع أن كبار المحدثين ورجال العلم أخذوا روايته بعين الاعتبار وخرّجوا حديثه معتزين بذلك لأنه المع شخصية علمية فى العالم الاسلامي ، فمن الغريب ترك البخاري لحديث الصادق وعدم روايته عنه مع انه روى عن جماعة عرفوا بالكذب وعدم العدالة وسوء الاعتقاد من نواصب وقدرية ومرجئة وغيرهم.

وها نحن نقدم انموذجاً من رجاله لنعرف ان ترك حديث الصادق انما هو لشيء فى نفس البخاري لا لشيء فى شخصية الامام أو روايته واليك بعض رواته :

النواصب

أبو العباس الأعمى المتوفى سنة ١٣٦ وكان شاعراً هجّاء خبيثاً فاسقاً مبغضاً لآل محمد ، وهو القائل لأبي عامر بن واثلة الصحابي -٢-

لعمرك انني وأبا طفيل ... لمختلفان والله الشهيد

لقد ضلوا بحب أبي تراب ... كما ضلت عن الحق اليهود -٣-

-١- شذرات الذهب ج ٧ ص ٤٠

(٢) أبو الطفيل عامر بن واثلة بن عبد الله بن عمر الليثي الكناني صحابي جليل وهو آخر الصحابة من بقي الى سنة ١٠٠ هـ وتوفي فيها وكان من شيعة علي شهد حروبه كلها معه.

-٣- نكت الهميان للصفدي

﴿ عمران بن حطان ﴾ مفتي الخوارج وزاهدها ومن عرف ببغضه لعلي وهو القائل في مدح عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي

يا ضربة من تقي ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

﴿ اسحق بن سويد ﴾ أحد رجال البخاري وكان يحمل على علي تحاملا شديداً ويقول لا أحب علياً .

عبد الله بن سالم الاشعري المتوفى سنة ١٧٩

﴿ وعبد الله بن شقيق العقيلي ﴾ ذكره ابن سعد في الطبقة الأولى وكان عثمانياً يحمل على علي ويبغضه ومع ذلك فقد وثقوه وقبلوا روايته .

﴿ ميمون بن مهران ﴾ والهيثم بن الأسود النخعي وهو أحد من شهد على حجر بن عدى ، وحصين بن نمير الواسطي وهو ممن عرف بتحامله على علي ، وزياد بن جبر بن حية روى له البخارى والجماعة أجمع وكان يتحامل على الحسن والحسين -١- ويقع فيهما .

القدرية

كهمس بن منهال السدوسي ، ابان بن يزيد العطار ، حسان بن ابراهيم الكرماني ، قاضي كرمان ، سفيان بن سليمان ، زيد بن واقد ، عطاء بن ميمون البصرى ، عمر بن ابي زائدة الهمداني ، هارون بن موسى الأزدى ، يحيى بن حمزة بن واقد ، وهشام بن عبد الله ابو بكر البصرى وغيرهم .

الضعفاء

والمطعون فيهم خلق كثير منهم احمد بن بشير القرشي ، ابراهيم بن يوسف

-١- تهذيب التهذيب ج ٣ ص ٢٥٨

ابن اسحق ، ابراهيم بن عبد الرحمن بن اسماعيل ، ثابت بن عجلان السلمي ، عبد الرحمن بن عبيد البصرى ، كهمس بن الحسن التميمي البصرى ، عبد ربه بن نافع الكناني ، عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار العدوى مولى ابن عمر ، مروان ابن شجاع الجزرى ، سلمة بن رجاء التميمي ، محمد بن ابي حفص البصرى ، عبدالرحمن ابوقيس الأودي الكوفي ، عبدالله بن عبيدة بن نشيط الربذي وغيرهم ويبلغ عددهم فوق المائة إذ لا مجال لذكر الجميع .

الكذابون

الذين عرفوا بوضع الحديث فهم كثيرون منهم اسيد بن زيد الجمال الكوفي، الحسن بن بشير السدوسي الطحان ، محمد بن يزيد بن محمد بن هشام الكوفي قاضي الكوفة وولي قضاء بغداد ، احمد بن صالح المصري ، واحمد بن سعيد بن صخر الدارمي، اسماعيل بن عبدالله بن اويس بن مالك بن ابي عامر الاصبحي روى عن خاله مالك وأخيه عبد الحميد وروى عنه البخاري ومسلم ، قال ابراهيم بن الجنيد عن يحيي بن معين انه مخلط يكذب ، زياد بن عبد الله،قال الترمذي عن وكيع : زياد بن عبد الله على شرفه كان يكذب فى الحديث ، احمد بن عيسى المصري المتوفي سنة ٢٤٢ كذبه ابن معين ، قال ابو داوود : وكان ابن معين يحلف بالله انه كاذب ، وغيرهم ممن لا يتسع المجال لذكر اسمائهم -١-

هؤلاء هم بعض رواة صحيح البخاري ، الذين اعتمد عليهم في تخريج أحاديث الرسول (ص) ، ونحن لا نقول فى مؤاخذته على ذلك اكثر من

-١- انظر تراجم هؤلاء فى تذكرة الحفاظ الذهبي ، وتهذيب التهذيب ، ولسان الميزان وميزان الاعتدال وخلاصة تهذيب الكمال وشرح الشمائل للجزرى وتاريخ بغداد .

قولنا ان تخريجه لمثل هؤلاء وتركه تخريج حديث أهل البيت ، مما يبعث في النفوس الاستغراب والشك إذ كان الأجدر به ترك الرواية عن اناس اشتهر عنهم بغض آل محمد ويا ليت شعري أكان خفي على البخاري حال حريز بن عثمان الرحبي - ذلك الناصبي الذى أعلن العداء لعلي وآله واضرابه؟فان كان خفي عنه ذلك فمن الخطأ ادعاء تلك المنزلة له بالعلم والاحاطة ، وان اتضح حالهم فكيف استساغ الاعتماد عليهم ؟

وللبيان نذكر طرفا من حال حريز بما اتفقت عليه علماء الرجال وأهل السير والتواريخ :

ان عثمان بن حريز بن جبر بن ابي الأحمر بن أسعد الرحبي ، كان سفيانياً كما قال المفضل بن غسان ، وقال العجلي : كان يحمل على علي ، وقال عمر ابن علي : انه كان ينتقص علياً ، وينال منه ، وكان حافظاً لحديثه ، وقال في مقام آخر ثبت شديد التحامل على علي ، وقال ابن عمار : يتهمونه انه كان ينتقص علياً ، ويروون عنه ويحتجون به ، وقال أحمد بن سليمان عن يزيد بن هرون : ان حريز كان يقول: لنا امامنا يعني (معاوية) ولكم امامكم يعني (علياً) .

وقال عمران بن اياس سمعت حريزاً يقول : لا أحب علياً قتل آبائي فجعل يسب علياً (١) الى غيرها من الشواهد الكثيرة الدالة على بغضه لآل محمد فحال هذا الرجل ظاهر لا ينكر ، ونحن لنا الحق ان نستنكر من البخاري تخريج حديث حريز ومن هو على شاكلته الذين ملأ كتابه من الرواية عنهم ولا نستبعد من البخاري لاطلاعه واتساع معلوماته ان تخفى عليه حالة اولئك الذين اشتهروا

ـ ١ ـ انظر تهذيب التهذيب ج ٢ ص ٢٣٨ وتاريخ بغداد ج ٢ ص ٢٩٥

بالنصب ولعل هناك أمر خفي علينا كان هو الداعي له على اقدامه لروايته واحتجاجه به ولست أدري أخفي على البخاري قول النبي لعلي : لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق ؟ حتى اشتهر في عصر الصحابة انهم كانوا يعرفون المنافقين ببغضهم علي بن ابي طالب . وبغض علي بغض رسول الله (ص) .

أم خفي على البخاري قوله (ص) : يا علي حربك حربي وسلمك سلمي أليس علي هو من النبي بمنزلة هرون من موسى كما يحدثنا البخاري نفسه في صحيحه ج ٢ ص١٩٩.

وهناك آلاف من الاحاديث فى فضل علي وقد خرّجها الحفاظ من طرق عديدة ولكن البخاري لم يخرّج إلا ثلاثة أحاديث أو أربع ، وليس من المعقول ان عدم تخريجه لأكثر من هذا كان لعدم وثوقه بصحتها ولكن هناك شيء لا نذكره ولعله كان يفقد الشجاعة والجرأة الأدبية كما لاحظ ذلك منه بعض المستشرقين فقال ما مضمونه : ان كتاب البخاري لا تتجلى فيه الشجاعة وعدم الخوف من العباسيين كمسند أحمد لأنه ـ أي مسند أحمد ـ لم يتحرج من ذكر أحاديث كثيرة فى ذكر مناقب علي وشيعته وعكسه البخاري وها نحن نضع منها بين يدي القارىء ثلاثة امور وردت بالطرق التي اجمعت الامة على صحتها ليتضح لنا مدى تحفظ البخاري واعراضه عن ذكر فضائل آل محمد .

قوله تعالى: « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا »

أخرج مسلم فى صحيحه عن طريق عائشة : خرج النبي (ص) وعليه مرط مرجّل من شعر أسود فجاء الحسن (ع) بن علي (ع) فادخله ، ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فادخلها ثم جاء علي فادخله ثم قال :

(إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) -١-

واخرج الترمذي من طريق عمرو بن أبي سلمة ربيب النبي (ص) قال : نزلت هذه الآية على النبي (ص) في بيت أم سلمة فدعا النبي « ص » فاطمة وعلياً وحسناً وحسيناً فجللهم بكساء ثم قال : « اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » قالت أم سلمة : يارسول الله وانا معهم ؟ قال : انت على مكانك وانت على خير - ٢ -

واخرج الحافظ أبو عبدالرحمن احمد بن شعيب النسائي المتوفي سنة ٣٠٣هـ في الخصائص ص ٤ من طريق سعد بن أبي وقاص قال : لما نزلت (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) دعا رسول الله (ص) علياً وفاطمة وحسناً وحسينا فقال اللهم هؤلاء أهل بيتي . واخرج الخطيب من طريق أبي سعيد عن أم سلمة قالت : نزلت هذه الآية وكان فى البيت علي وفاطمة والحسن والحسين ، قالت وكنت على باب البيت فقلت أين أنا يارسول الله ؟ قال : انت في خير والى خير -٣- .

واخرج أيضا من طريق أبي سعيد عن النبي « ص » في نزول هذه الآية قال : جمع رسول الله علياً وفاطمة وحسناً وحسينا ثم ادار عليهم الكساء فقال : اللهم هؤلاء أهل بيتي ... الخ

وأخرج ابن عبد البر في الاستيعاب ج ٢ ص ٢٧ بهامش الاصابة . قال لما نزلت (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) دعا

- ١ - صحيح مسلم ج ٤ س ١٢٧
- ٢ - الترمذي ج ٤ س ٢٠٤
- ٣ - الخطيب ج ٩ س ١٢٧

رسول الله (ع) فاطمة وعليا وحسنا وحسينا في بيت أم سلمة وقال: (اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا)، وأخرجه ابن الأثير في اسد الغابة ج ٥ - ٥٢١ من طريق أم سلمة.

وذكره السيوطي من طريق أم سلمة في الدر المنثور - ج ٥ ص ١٩٨ قال: اخرج ابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أم سلمة ان رسول الله (ص) كان في بيتها على منامه له عليه كساء خيبري فجاءت فاطمة فقال(ص): ادعي لي زوجك وابنيك حسنا وحسينا فدعتهم فبينماهم يأكلون إذ نزلت على رسول الله (ص) « إنما يريد الله . . . الآية » فاخذ النبي « ص » بفضلة أزاره فغشاهم ثم أخرج يده من الكساء وأومأ بها الى السماء وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي . الخبر.

وقال محمد بن أحمد المالكي في الفصول المهمة ص ٦: روى الواحدي في كتابه المسمى اسباب النزول يرفعه بسنده الى أم سلمة انها قالت: كان النبي (ص) في بيتها يوما فاتته فاطمة ببرمة فيها عصيد فدخلت فيها عليه فقال لها: ادعي لي زوجك وابنيك فجاء علي « ع » والحسن والحسين فدخلوا يأكلون والنبي «ص» جالس على دكة وتحته كساء خيبري قالت وأنا في الحجرة قريب منهم فاخذ النبي (ص) الكساء فغشاهم به، ثم قال: « اللهم أهل بيتي وخاصتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » . فأدخلت رأسي قلت: وأنا معكم يارسول الله؟ قال « ص »: انك على خير، فانزل الله عز وجل: إنما يريد الله ... آلاية .

واخرجه ابن جرير الطبري في ذخائر العقبى ص ٢١ قال: في بيان أن فاطمة وعلياً وحسناً وحسيناً هم أهل البيت المشار اليهم في قوله تعالى: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) إلى آخر ماذكر.

ورواه من طريق أم سلمة ، ومن طريق عمر بن أبي سلمة ربيب رسول الله (ص) ، ومن طريق زينب بنت أبي سلمة ، ومن طريق واثلة بن الاسقف ، ومن طريق عائشة – ١ –

وعن ابي سعيد الخدري – انها نزلت في خمسة – رسول الله وعلي ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين ، واخرجه أحمد في المناقب والطبراني .

واخرجه الخطيب البغدادي ج ٩ ص ١٢٩ عن سعد بن أبي عوف عن أبي سعيد عن أم سلمة . وأيضاً في ج ١٠ ص ٢٧٨ عن أبي سعيد الخدري انها نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين واخرجه البغوي من طريق عائشة – ٢ –

واخرجه الحاكم في المستدرك عن عطاء بن يسار عن أم سلمة – ٣ – .

وقال عبدالملك الثعالبي النيسابوري : جمع النبي علياً وفاطمة والحسن والحسين ، ثم قال : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) قال : ويروى أن جبرئيل انظم اليهم واندسّ فيهم تقرباً الى الله تعالى بمداخلتهم – ٤ – .

وقال – في ص ٤٨٣ : كساء آل محمد يضافون اليه فيقال آل الكساء كما قال ديك الجن في مدحهم :

والخمسة الغر اصحاب الكساء معاً خير البرية من عجم ومن عرب

وقال ابن تيمية في جواب من سأله عن دخول علي « ع » في أهل البيت مما لا خلاف فيه بين المسلمين ، وهو أظهر عندهم من أن يحتاج الى دليل بل هو أفضل أهل البيت وأفضل بني هاشم بعد النبي ص ، وقد ثبت عن النبي « ص » انه أدار

– ١ – انظر ذخائر العقبى ص ٢٤

– ٢ – معالم التنزيل ٢١٣ بهامش الخازن

– ٣ – انظر المستدرك ج ٢ ص ٤١٦

– ٤ – ثمار القلوب ص ٤٨٤

كساه على علي وفاطمة ، وحسن وحسين فقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » ـ ١ ـ

وقال ابن حجر الهيثمي في شرح همزية البوصيرى ص ٣١٩ عند قوله

وبأم السبطين زوج علي وبنيها ومن حوته العباء :

وهم النبي « ص » وفاطمة وعلي وابناهما « الحسن والحسين » .

وقال : وصح انه (ص) جعل على علي وفاطمة وابنيها كساء وقال : (اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً) ، فقالت أم سلمة وأنا منهم ؟ قال : إنك على خير ، وفي رواية القى عليهم كساءً ووضع يده عليهم وقال : « اللهم إن هؤلاء آل محمد « ص » فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد انك حميد مجيد » .

وقال الشيخ عبد القادر الرافعي (في نيل المراد) ص ٦٥ عند ذكر بيت البوصيرى ومن حوته العباء : هم النبي وعلي وفاطمة وابناهما .

وذكر ابن كثير في تفسيره طرق نزول هذه الآية في الخمسة فقط ، وهم محمد « ص » وعلي وفاطمة والحسن والحسين ، في خمسة عشر مورداً ونود الاشارة اليها زيادة في التوضيح وتأكيداً للبيان .

١ — حديث أبي الحمراء ان النبي « ص » كان إذا طلع الفجر جاء الى باب علي « ع » وفاطمة وقال : الصلاة الصلاة يا أهل البيت ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً .

٢ — حديث شداد بن عمار عن واثلة ـ قال عمار : إني لجالس عند واثلة بن الاسقف إذ ذكروا علياً فشتموه ، فلما قاموا قال : اجلس حتى اخبرك

ـ ١ ـ الفتاوى لابن تيمية ج ١ ص ٢٣٠

عن هذا الذي شتموه ، كنت عند رسول الله « ص » إذ جاء علي وفاطمة وحسن وحسين رضي الله عنهم فالقى عليهم كساءً له ، ثم قال : اللهم هؤلاء أهل بيتي اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .

٣ — حديث أبي رباح عمن حدثه عن أم سلمة - انها نزلت في الخمسة

٤ — من طريق أبي هريرة عن أم سلمة أيضاً

٥ — عن حكيم بن سعد : ذكرنا علي بن أبي طالب عند أم سلمة ، فقالت في بيتي نزلت (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً)

٦ — عن عطية عن أبيه عن أم سلمة

٧ — عن أبي سعيد عن أم سلمة

٨ — عن شهر بن حوشب عن أم سلمة

٩ — عن عمر بن أبي سلمة عن أم سلمة

١٠ — عن صفية بنت شيبة قالت : قالت عائشة : خرج النبي ذات غداة وعليه مرط مرجل من شعر اسود فجاء الحسن فأدخله معه ثم جاء الحسين معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه ثم جاء علي فأدخله معه ثم قال (ص) (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً)

١١ — وعن العوام بن حوشب - عن ابن عم له قال : دخلت مع أبي على أم المؤمنين عائشة فسألتها عن علي فقالت : تسألني عن رجل كان احب الناس الى رسول الله « ص » وكانت ابنته تحته ، رأيت رسول الله (ص) دعا علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فالقى عليهم ثوباً ، فقال : (اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً) قالت : فدنوت منهم فقلت : يارسول الله وأنا من

اهل بيتك ؟ فقال : تنحى إنك على خير - ١ -

١٢ — عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي « ص » انها نزلت في خمسة فيَّ وفي علي وفاطمة وحسن وحسين .

١٣ — عن عامر بن سعد عن سعد قال : إن النبي « ص » حين نزلت عليه فاخذ علياً وابنيه وفاطمة فأدخلهم تحت ثوبه ثم قال : ربي هؤلاء أهلي وأهل بيتي .

١٤ — عن أبي جميلة عن الحسن بن علي (ع)

١٥ — عن السدي عن أبي ديلم عن علي بن الحسين (ع)

هذا ماذكره ابن كثير في تفسيره سالكنا في نقله طريق الاختصار واعتقد ان المنصف يكتفي بما ذكرنا ولا نحتاج الى ذكر تفاصيل اخرى بتخصيص نزول هذه الآية في أهل البيت خاصة ، فالامر أجلى من الشمس .

وكان صلى الله عليه وآله يؤكد بعمله أمام أصحابه بهذه المنزلة ، لذلك كان يمر على باب دار فاطمة يرفع صوته بالسلام عليهم ويتلو هذه الآية .

روى الترمذي في صحيحه عن أنس بن مالك . قال : إن رسول الله (ص) كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر كلما خرج الى صلاة الفجر ويقول : الصلاة يا أهل البيت « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » - ٢ -

وفي رواية ابو الحمراء : ان النبي (ص) كان يمر ببيت فاطمة وعلي (ع)

-١- اخرجه البغوي عن عائشة في معالم التنزيل ٣ ٢١٣ المطبوع بهامش تفسير الخازن وكذلك الخازن نفسه ذكره من طريق عائشة ٢١٣ - وفيه زيادة انت من ازواج النبي - ولا نتكلف البحث عن قوله (ص) لعائشة تنحى . والحاق انت على خير او انت من ازواج النبي فهي على كل حال خارجة عن هذا الشمول .

-٢- شرح الترمذي لابن العربي ج ١٣ ص ٨٥ وابن عبد البر في الاستيعاب بهامش الاصابة ٤ - ٤٦ .

فيقول : السلام عليكم أهل البيت « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا »

رواه السيوطي فى الدرالمنثور ج ٥ ص ١٧٤ عن ابي الحمراء ان النبي(ص) كان يمر على باب بيت فاطمة ثمانية أشهر بالمدينة ليس من مرة يخرج الى صلاة الغداة إلا وأتى باب فاطمة ويقول: السلام عليكم أهل البيت إنما يريد الله... الآية .

وروى ابن الأثير في أسد الغابة فى ترجمة ابي الحمراء ج ٥ ص ١٧٤ مثله قال رواه الثلاثة -١- :

وعن ابن عباس شهدنا رسول الله (ص) تسعة أشهر يأتي كل يوم باب علي عندوقت كل صلوة فيقول : السلام عليكم أهل البيت إنما يريد الله ... الآية خمس مرات - ١ -

وهذا البيان منه (ص) زيادة في البيان لأمته وتأكيد لهم فى ابراز أهله بتلك المنزلة العظيمة وبديهي انه ما كان قصده أن يوقظهم للصلاة فهم الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعاً .

ولكن لشدة اهتمامه بآله وباظهار فضلهم للامة كان يعمل هذا ليطبقه تطبيقاً عملياً . وقال الشيخ عبد المجيد الشرنوبي الازهري - ١ -

ثم انه يختلف تفسير آله (ص) باختلاف المقامات ، ففي مقام الزكاة هم الذين تحرّم عليهم الصدقة كبني هاشم وفي مقام المدح أهل بيته الكرام الذين بحبهم وبزيارتهم يبلغ العبد المرام . وفي الحديث : من مات على حب آل محمد مات مغفوراً له . ولله در القائل :

- ١ - الدر المنثور ٥ - ١٩٩ واخرجه ابن عبدالبر في الاستيعاب ٤ - ١٦

- ٢ - انظر شرح الثائية - ١٢٣

أرى حب آل البيت عندي فريضة على رغم أهل البعد يورثني القربى

فما اختار خير الخلق منــــا جزاءه على هــديه إلا المودة في القربى

وهم أهل العبا جمعهم النبي (ص) تحت الكساء وقال : اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا فانزل الله عز وجل :

إنما يريد الله.. الآية : وهم الحسن والحسين وامهما وابوهما كما قال بعضهم :

إن النبي محمداً ووصيــــه وابنيه وابنته البتول الطاهرة

أهل العبـاء وانني بولائهم أرجو السلامة والنجا في الآخرة

رواه الشيخ عبد الله الشبراوي في الاتحاف السنية ص ٥ . وأخرجه ابن عساكر في تاريخــه ج ٤ ص ٢٠٤ واطال البحث فى تحقيقه . ومحمد بن يوسف الشافعي في كفاية الطالب ج ٢ ص ١٣ . والشيخ ابو بكر بن ملا الحنفي في كتاب قرة العيون ج ١ ص ١٨٩

وابن عبد ربه في العقد الفريد ج ١ ص ٣٧ .

والشيخ نعمان الالوسي فى غالية المواعظ ج ٢ ص ٨٦ قال أخرجه الامام أحمد عن ابي سعيد الخدري ان الآية نزلت فى علي وفاطمة والحسن والحسين ـ وأخرج البيهقي والترمذي وابن المنذر عن أم سلمة .. الخ .

وأخرجه الواحدي في أسباب النزول ٢٦٧ عن أبي سعيد وعن أم سلمة .

ويطول بنا البحث ، فى تتبع إيضاح هذه الآية ، وذكر رواتها ، وبيان اختصاصها بآل محمد لايشاركهم بتلك المنزلة احد ، فنقتصر على هذ البيان الموجز بالنسبة لما تقتضيه من إيضاح يستدعي الى وضع مجلدات .

— ٢ —

حديث الغدير

رواه جماعة من الصحابة ، ينوف عددهم على المائة ، وفي طليعتهم أبو ذر جندب بن جنادة الغفاري ، المتوفى سنة ٢١ الذي قال فيـه رسول الله (ص) : ما اظلت الخضراء ، ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة اصدق من أبي ذر رواه عنه جماعة من الأعلام .

وحذيفة اليماني المتوفى سنة ٢٦ وهو هو في مكانته وصحبته ، وجابر بن عبدالله الانصاري ، وابو أيوب خالد بن زيد الانصاري المتوفي بغزوة الروم سنة ٥٠ ، وسعد بن أبي وقاص ، وسلمان الفارسي المتوفي سنة ٣٦ ، وطلحة بن عبيدة التميمي ، وعائشة بنت أبي بكر بن أبي قحافة زوجة النبي (ص) اخرج حديثها ابن (١) عقدة في كتاب حديث الولاية ، وعبدالله بن عباس المتوفى سنة ٦٨ والعباس بن عبدالمطلب عم النبي (ص) وعثمان بن عفان ، وأبو اليقظان عمار بن ياسر العنسي شهيد صفين سنة ٢٧ ، والصديقة فاطمة بنت النبي (ص) وغيرهم الى عدد يتجاوز المائة ، ورواه من التابعين عدد ينوف على الثمانين ، وكانت عناية الجميع بهذا الحديث ظاهرة ، وقد خرّجه جماعة من العلماء في كتبهم المعتبرة كمسلم

---

(١) هو احمد بن محمد بن سعيد الكوفى المتوفى ٢٣٠ قال الذهبي : هو حافظ العصر والمحدث البحر كان اليه المنتهى فى قوة الحفظ وكثرة الحديث وقال الدار قطنى اجمع اهل الكوفة انه لم يكن بالكوفة من زمن ابن مسعود الى زمن ابن عقدة احفظ منه ، وقال ابو على الحافظ : مارأيت لحديث الكوفيين احفظ من ابن العباس بن عقدة ، وكان ابن عقدة يقول : احفظ مائة الف حديث باسانيدها ويقول اجيب فى ثلاثمائة الف حديث من احاديث اهل البيت قال الذهبي وكان مقدما في الشيعة انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ج ٣ ص ١٦ وذكرنا ترجمه هنا لانه من الذين الفوا فى حديث الغدير فى القرن الرابع واخرج الحديث من مائة وخمسين طريقاً .

في صحيحه ، والترمذي والحاكم ، عدد لايمكننا حصره بهذه العجالة ، والف فيه جماعة كتبا خاصة يربو عددهم على الثلاثين ،

وشهد به لأمير المؤمنين عدد من الصحابة ، يوم ناشدهم بحديث الغدير في مواطن عديدة كيوم الشورى ، وأيام عثمان ، ويوم الرحبة ، وقام له في ذلك اليوم من الصحابة عدد ليس بالقليل وفي طليعتهم أبو الهيثم بن التيهان ، وأبو هريرة الدوسي ، وأبو سعيد الخدري ، وغيرهم عدد لايقل عن العشرين وتواتر النقل بتعدد مناشدة أمير المؤمنين أصحاب محمد ﴿ ص ﴾ ، باظهارهم للملأ هذا الحديث الشريف كما ورد انه ناشدهم يوم الجمل ، ويوم الركبان في الكوفة ، وشهد له بذلك جماعة من الصحابة منهم عمار بن ياسر ، وهو من البدريين ، وأبو الهيثم بن التيهان ، وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين ، وقيس بن سعد بن عبادة ، وهم ممن شهدوا بدراً ، وقد اخفى ذلك الحديث جماعة من الصحابة لمؤثرات العاطفة وعوامل الغريزة ، فدعا عليهم أمير المؤمنين ﴿ ع ﴾ بقوله : اللهم من كتم هذه الشهادة وهو يعرفها فلا تخرجه من الدنيا حتى تجعل به آية يعرف بها ، فبرص انس ، وعمى البراء بن عازب ، ورجع جرير اعرابيا بعد هجرته وهم ممن كتموا شهادتهم ولم يؤدوا ماحملوا ، ومنهم زيد بن أرقم ، ويزيد بن وديعة .

وكذلك ناشد أمير المؤمنين (ع) أصحاب محمد (ص) يوم صفين واحتجت به فاطمة والامام السبط الحسين (ع) بن علي (ع) وعبدالله بن جعفر وغيرهم ، ولزيادة البيان نورد طرفا من هذه الخطبة ، أخرج ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٢١٠ في كتاب الولاية بسنده عن زيد بن ارقم قال : لما نزل النبي (ص) بغدير خم في رجوعه من حجة الوداع وكان في وقت الضحى وحر شديد فأمر بالدوحات فقمّت ونادى الصلاة جامعة فجمعنا فخطب خطبة بالغة ثم قال :

إن الله تعالى انزل إلي بلغ ما انزل اليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس وقد أمرني جبرئيل عن ربي ان أقوم في هذا المشهد واعلم كل أبيض واسود ان علي بن أبي طالب أخي ووصي وخليفتي والامام بعدي فسئلت جبرئيل ان يستعفي لي ربي لعلمي بقلة المتقين وكثرة المؤذين لي واللائمين لكثرة ملازمتي لعلي ، وشدة اقبالي عليه حتى سموني اذنا ، فقال تعالى : ومنهم الذين يؤذون النبي (ص) ويقولون هو اذن قل اذن خير لكم ولو شئت ان اسميهم وأدل عليهم لفعلت ولكني بسترهم قد تكرمت ، معاشر الناس فان الله قد نصبه لكم ولياً واماماً وفرض طاعته على كل أحد ماض حكمه جائز قوله،ملعون من خالفه ، مرحوم من صدقه ، اسمعوا واطيعوا فان الله مولاكم وعلي إمامكم ، ثم الامامة من صلبه الى القيامة ومنها :

افهموا كتاب الله ، ولا تتبعوا متشابهه وان يفسر ذلكم إلا من أنا آخذ بيده شائل بعضده ومعلمكم : ان من كنت مولاه فعلي مولاه وموالاته من الله عز وجل انزلها علي ألا وقد أديتُ ألا وقد أسمعت ألا وقد أوضحت ، الى آخر خطبته (ص) التي رواها الثقات من رجال الامة .

ومن أراد الاطلاع وسعة البيان فليراجع ما كتبه الحجة المتتبع فقيه التأريخ شيخنا الصادق الامين الشيخ عبدالحسين الاميني ففيه نجعة الرائد وبغية الطالب(١)

فهذا بيان موجز عن حديث الغدير ، الذي تحرج البخاري عن اخراجه ، وتنكر له كما تنكر لكثير من فضائل أهل البيت ، وحادثة الغدير أهم الحوادث الاسلامية التي سجلها التاريخ بصورة لامجال لاحد انكارها ، وأهم شيء انكار

---

(١) يقع الكتاب في عشرين مجلد صدر منه عشرة اجزاء واعيد طبعها وهو يواصل طبع الاجزاء الباقية .

بعض المسلمين لهذه الحادثة المهمة ، مكابرة منهم بعدوضوح الحجة والدليل القاطع يوم قام النبي (ص) في ذلك الحفل الرهيب ، والجمع الحاشد وفي ذلك الهجير المضطرم ، في غدير خم حيث مفترق المدنيين ، والمصريين ، والعراقيين ، وعدد الجمع لا يقل عن مائة الف ، وبلّغ ما أمره به ربه (بان ينص على علي (ع) وينصبه علما للناس من بعده ، وكان النبي (ص) يعلم ان ذلك سوف يثقل على الناس وقد يحملونه على المحابات والمحبة لابن عمه وصهره ، ومن المعلوم ان الناس ذلك اليوم وإلى اليوم ليسوا في مستوى واحد من الايمان واليقين بنزاهة النبي (ص) وعصمته عن الهوى والغرض ، ولكن الله سبحانه لم يعذره ،في ذلك فاوحى اليه : (يا أيها النبي بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته) فلم يجد بدأ من الامتثال بعد هذا الانذار الشديد فخطب الناس عند منصرفه من حجة الوداع في غدير خم فنادى وجلهم يسمعون : الست أولى بالمؤمنين من انفسهم ؟ فقالوا اللهم نعم فقال : (من كنت مولاه فهذا علي مولاه) الى آخر ماقال ثم اكد ذلك في مواطن أخرى تلويحاً وتصريحاً واشارة ونصا حتى ادى الوظيفة ، وبلغ عند الله المعذرة ولكن كبار المسلمين بعد النبي (ص) تأولوا تلك النصوص نظرا منهم لصالح الاسلام حسب اجتهادهم فقدموا واخروا وقالوا الأمر يحدث بعده الأمر)*

وكان عيد الغدير محل عناية أهل البيت وشيعتهم على ممر العصور يقيمون شعائره حسب مناسبات الظروف ، وفي عهد آل بويه أقيم في بغداد سنين متطاولة بصورة علنية نظرا لرفع الرقابة وعدم الحذر وقد عظم ذلك على خصوم الشيعة فثاروا ضد اعلان هذا العيد وحدثت ثورات دموية بين السنة والشيعة على ممر الزمن والشيعة متمسكة باظهار هذا العيد لا تقف تلك المحاولات في طريق اقامة

* اصل الشيعة واصولها لسماحة الامام لفقيد الاسلام كاشف الغطاء عطر الله مرقده

شعائره ولما رأوا خصوم الشيعة ان وسائلهم التي قاموا بها ضد هذه الشعائر كان نصيبها الفشل التجأوا الى المغالطات العملية فقاموا في احداث عيد يقابلون فيه عيد يوم الغدير الزاهر .

وهو يوم الغار وجعلوه عيدا وأقاموا الزينة ونصبوا القباب في اليوم السادس والعشرين من ذي الحجة وزعموا أن النبي (ص) وأبا بكر اختفيا في الغار وهذا من الجهل والغلط البين فان أيام الغار إنما كانت في آخر صفر أوفي أول شهر ربيع الاول ـ ١ ـ واستمروا على ذلك مدة ثم كان مصير هذا العيد الى الاهمال والنسيان .

أما الشيعة فقد استمروا باقامة عيد الغدير واقامة المآتم يوم عاشورا فضاق باعدائهم ذرعا ففي سنة ٣٦٣ عمد اهل السنة الى مقابلة الشيعة وأركبوا امرأة وسموها عائشة وتسمى بعضهم بطلحة وبعضهم بالزبير وقالوا نقاتل أصحاب علي فقتل بسبب ذلك من الفريقين خلق كثير ـ ٢ ـ واستمرت الفتن بين الطرفين بسبب إقامة هذه الشعائر وبلغت مبلغاً شديداً حتى التجأ خصوم الشيعة الى الاستعانة بالجند والسودان وذلك في سنة ٣٥٠ هـ ٩٦١ م وكان الجنود يسألون من يجدونه في الطريق من خالك فان لم يقل معاوية ضربوه .

وطاف أحد السودان المتهجمين بالطرقات وهو يصيح بين الناس معاوية خال علي فتابعه العامة وأصبحت هذه هي صيحة أهل السنة بمصر حين مايريدون قتال الشيعة ـ ٣ ـ ويحكى عن بعض الشيعة في تلك المحنة قيل له : معاوية خالك

ـ ١ ـ انظر شذرات الذهب لابن العماد ج ٣ ص ١٢٠
ـ ٢ ـ تاريخ بن كثير ج ١١ ص ٢٢٥
ـ ٣ ـ الحضارة الاسلامية للاستاذ آدم متزى ١٠٨

فقال : لا أدري أ كانت أمي نصرانية ـ ١ ـ

كل ذلك محاولة منهم لارغام الشيعة على ترك إقامة هذه الشعائر ولكنها مرت على ذلك غير مبالية ، بتلك المقابلات الفاشلة ،

وقابلوا يوم عاشورا بيوم مصرع مصعب بن الزبير وأقاموا عليه النياحة وزاروا قبره يومئذ بمسكن ونظروه بالحسين (ع) لكونه صبر وقاتل حتى قتل ، ولأن أباه ابن عمة رسول الله وحواريه كما أن أبا الحسين (ع) ابن عم النبي (ص) وفارس الاسلام فنعوذ بالله من الهوى والفتن ـ ٢ ـ

وناهيك ماجرى في بغداد من حروب دامية مبعثها الجهل والتعصب التي يقف القلم عند وصفها وأعظمها محنة وقعة الكرخ التي تجلت فيها نفسيه قوم أشرب في قلوبهم بغض آل محمد والقضاء على من يواليهم فقد هجمت طوائف يبعثهم صلف الولاة وميلهم للنزعات حتى احرقوا دور شيعة آل محمد (ص) وقتلوا الرجال والأطفال فكانت عاقبة الدولة الى الدمار والانهيار بعد تلك الحادثة بقليل وليس في وسعنا التعرض لذكر تلك الفجائع السود ولا نود نبش تلك الدفائن التي مرت في تلك العصور المظلمة ونحن في عصر ما أحوجنا فيه الى الاخوة والاتحاد لنقابل من يكيد الاسلام ويحاول القضاء على تعاليمه ولا يروق له اتحاد المسلمين .

ـ ١ ـ الحضارة الاسلامية للاستاذ آدم متزي ١٠٨

ـ ٢ ـ شذرات الذهب ج ٣ س ١٣٠

— ٣ —

الثقلين

أخرج مسلم في صحيحه من طريق زيد بن أرقم خطبة النبي (ص) يوم الغدير وقوله (ص) يوم الغدير وقوله (ص) فيها وأنا تارك فيكم الثقلين كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به . فحث على كتاب الله ورغب فيه،ثم قال وأهل بيتي اذكركم الله في أهل بيتي اذكركم الله في أهل بيتي ص ١٢٢ ج ٧ .

واخرجه الترمذي في ج ٢ ص ٣٠٨ .

عن زيد بن أرقم قال رسول الله (ص) : إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي ، أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما،واخرجه أحمدفي مسنده ج ٢ - ص ١٤ ط ١

عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله (ص) : إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي وانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض .

وفي ص ١٧ منه

عن أبي سعيد أيضاً عن النبي (ص) قال إني أوشك أن ادعى فاجيب وإني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض وعترتي أهل بيتي وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض فانظروني بم تخلفوني فيهما ؟

وفي ص ٢٦ منه

عن أبي سعيد الخدري مثله ، واخرج الخطيب البغدادي في ج ٨ ـ ص ٤٤٣ من طريق حذيفة بن اسيد أن رسول الله (ص) قال يا أيها الناس إني فرط لكم وأنتم واردون على الحوض وإني سائلكم حين تردون عليّ عن الثقلين فانظروا كيف تخلفوني فيهما الثقل الأكبر كتاب الله سبب طرفه بيد الله وطرفه بايديكم واستمسكوا به واخرجه الحاكم من طريق زيد بن ارقم في المستدرك ج ٤ ص ١٠٩ ـ ، ورواه السيوطي من ثلاث طرق من طريق زيد بن ارقم ـ وزيد ابن ثابت وأبي سعيد الخدري ، وأخرجه فقيه الحرمين محمد بن يوسف الشافعي في كتابه كفاية الطالب ، وأخرجه الطبري في الذخائر من طريق زيد بن ارقم ، وأخرجه ابن حجر في الصواعق المحرقة ص ١٣٦ ثم ذكره بطرق مختلفة وقال ولهذا الحديث طرق كثيرة عن بضع وعشرين صحابياً ، وذكره الشيخ عبدالله بن محمد الشبراوي في ص ٦ في كتاب الاتحاف بحب الاشراف ، والسيوطي أيضاً في كتاب احياء الميت بفضائل أهل البيت المطبوع على هامش الاتحاف ، وذكره الشيخ العدوي في مشارق الانوار عند ذكره لفضائل أهل البيت ص ١٤٦ ، والعلامة السيد خير الدين أبي البركات نعمان افندي الألوسي في غالية المواعظ ص ٨٧ ج ٢ ، وقال ابن حجر في شرح الهمزية عند ذكر آل محمد (ص) وفي الحديث والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد بي حتى يحبني ولا يحبني حتى يحب ذوي قرابتي انا حرب لمن حاربهم وسلم لمن سالمهم وعدو لمن عاداهم ألا ومن آذى قرابتي فقد آذاني ومن اذاني فقد آذى الله ، ثم ذكر حديث الثقلين واختصاصه بآل محمد (ص) ورواه ابن كثير في تفسيره ج ٣ ص ٤٨٦ ، من طريق زيد بن أرقم قال قام فينا رسول الله (ص) يوماً خطيبا بماء يدعى خما بين مكة والمدينة فحمد الله واثنى

ووعظ وذكر ثم قال : أما بعد ألا أيها الناس فانما انا بشر يوشك ان يأتيني رسول ربي فاجيب وانا تارك فيكم الثقلين كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به. فحث على كتاب الله عز وجل ورغب فيه ثم قال وأهل بيتي اذكركم الله في أهل بيتي اذكركم الله في أهل بيتي اذكركم الله في أهل بيتي

وقال الشيخ عبدالرحمن النقشندي في كتابه العقد الوحيد بعد ذكره أهل البيت ص ٧٨ ـ كيف وهم انجم ديننا ومصدر شرعنا وعمدة اصحابنا فيهم ظهر الاسلام وفشى، وبهم تأيدت اركانه ونشأ، ومن ثم صح انه صلى الله عليه وآله قال اني تارك فيكم ما ان اخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني ، وصح عنه (ص) قال من سره أن يكتال بالمكيال إلا وفي إذا صلى علينا أهل البيت فليقل ، اللهم صل على محمد وآله .

وروي عن الشافعي انه قال بوجوب الصلاة على الآل في التشهد الأخير وروي له قوله .

يا آل بيت رسول الله حبكم	فرض من الله في القرآن انزله
كفا كم من عظيم القدر انكم	من لم يصل عليكم لاصلاة له

وجاء في مجلة المسلم الصادرة في مصر عدد ١ ـ السنة ٢ في شهر شعبان سنة ١٢٧١ هـ ص ٨ رقم ٧ قال أهل البيت حراس هذا الدين وورثة هذا المجد الى أن يقول وكان أهل البيت هدفا للطعن والاذى المنوع بل وللابادة في كل عصور التاريخ من عهد الامام علي (ع) رضي الله عنه وقد اتخذو اعداءهم محاربتهم دينا نسبوه ظلما لجدهم (ص) ولعبت أطوار التاريخ في ذلك أدوارا مريرة حتى جردوهم من انسابهم وأملاكهم وأوقافهم بعد أن افاؤا عليهم من صنوف المهانات وألوان العذاب باسم الدين المظلوم مالا يعلمه إلا الله ولم يكفهم أن ينالوا منهم حتى

دفعهم سوء الطبع وسوء الادب وسوء الايمان والغل الدفين الى تأليف الكتب في اضطهاد الرسول وسبه باسم احياء السنة واجتهاد الرسول والعياذ بالله انتهى .

وقال في القاموس في مادة ثقل ، الثقل كعنب ، ضد الخفة ، والثقل محركة متاع المسافر وحشمته وكل شيء نفيس مصون ، ومنه الحديث : (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي) ، وقال محب الدين في التاج في مادة ثقل عند ذكر الحديث : جعلها ثقلين اعظاماً لقدرهما وتفخيما لهما ، قال ثعاب : سماهما ثقلين لأن الأخذ بهما ثقيل والعمل بهما ثقيل ، وقال ابن أبي منظور في لسان العرب : روي عن النبي « ص » انه قال في آخر عمره : (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي) ثم ذكر قول ثعلب وقال : وأصل الثقل ان العرب تقول لكل شيء نفيس مصون خطير : ثقل فسماهما ثقلين إعظاما لقدرهما وتفخيما لشأنهما ويقال للسيد العزيز ثقل الى آخره .

وقال ابن الأثير في النهاية بعد أن ذكر قوله « ص » : إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي سماها ثقلين لان الأخذ بهما والعمل بهما ثقيل ، ويقال لكل خطير ثقل ، وقال في المصباح : العترة نسل الانسان قال الأزهري وروى ثعاب عن ابن الاعرابي : ان العترة ولد الرجل وذريته وعقبه من صلبه ولا تعرف العرف من العترة غير هذا .

ويطول بنا الحديث إذا حاولنا تتبع مخارج هذا الحديث وبسط القول فيه وقد اقتصرنا على هذا القدر من طرقه لننبه على ترك البخاري لذكره مع كثرة طرقه ، وهناك أمر يستدعي الانتباه وهو أن يد التحريف التي لازالت تبعث على الأمة عوامل التفرقة قد جنت جناية عظيمة فحرفته مخالفة لله ولرسوله فنص الحديث يقول : كتاب الله وعترتي ، وأولئك الجناة يقولون كتاب الله وسنتي

وأنت بعد اطلاعك على مخارج الحديث ترى أن فيه مقاصداً جليلة وهو يلزم الامة بكل صراحة الى اتباع آل محمد (ص) والاقتداء بهم فهم عدل القرآن .

ولو لم ير رسول الله (ص) في أهل بيته كفاءة الامر بالقيام بعده لما ألزم الأمة بهذا الإلزام ولكنه يعلم بمقدرتهم وكفاءتهم فهم هداة الخلق ومعالم الرشاد وبهم سعادة المجتمع والنبي « ص » اعرف بالمصالح العامة وادرى بنفسيات الأمة فرعى تلك المصلحة فقد نظر ان صالحهم وأن سعادتهم هي في اتباع أهل البيت فالزمهم بذلك من باب المصلحة لأنفسهم لا انه شرّع الحكم الوراثي في الاسلام كما يقولون :

(لقد منّ الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولاً من انفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين)

— ١ —

ملوك عصره وامراء بلده

لقد رفضت الدولة الأموية الأخذ بنظام الاسلام ودعت الناس الى محاربته وارتبطت أشد الارتباط بفوضى الجاهلية وجمعت شتات ذلك الجمع الذي فرّقه المصلح الأعظم بدعوته .

فالاسلام يأمر بالوحدة ، وهم فرقوا الكلمة ، وينهى ان تراق الدماء وقد ولغوا فيها ، ويأمر بالاحسان والعدل وقد جاروا في الحكم وأساؤا السيرة في الأمة فاذا رجعنا الى ماضي الجاهلية والتاريخ الذي سجل تلك العصور الوحشية ادركنا انه تمثل في عصرهم باوضح صورة إذهي دفعت الناس الى التخطي عن حدود الدين والخروج عنه علناً ، وقد كان الاسلام قد ضرب على المسلمين حداً جعل النفوس الشريرة تحسبه سجنا ضيقا تتمنى الخروج من قيوده التي سنّها الشرع المقدس لحفظ النظام وسعادة البشر فهو يعاقب على ترك الصلوة ، وشرب الخمر ، وقتل النفس ، وأكل الاموال بالباطل ، وحدّد حدودا ونظم قوانين يعاقب بها المجرم بمخالفته حسب جريمته ، ولم يفرق في تطبيقها بين افراد الأمة جمعاء فهي بعمومها تشمل الشريف والوضيع والحر والعبد والذكر والانثى ، ولم تكن هناك رخصة لأحد فيها ، ولا ميزة تطبق من أجلها على طبقة دون أخرى فالكل يخضعون لذلك النظام على حدٍ سواء ، وليس هناك طبقة فوق القانون الذي شرّعه الاسلام وما ذلك إلا لقلع جذور الشقاء وغرس السعادة ورعاية المصلحة العامة ليجتني الناس ثمر ذلك الغرس الذي غذاه محمد (ص) بتعاليمه واجهد نفسه أي جهد في تفهيم الناس منافعه ومصالحه ولا ريب أن هذه التعاليم التي تكفلت للأمة

بالسعادة في اتباعها تحتاج الى تنفيذ وتطبيق،وهل الذي يقوم بهذه المهمة إلاالانسان الكامل الذي لاتهمه مصلحة نفسه ؟ بل إن أهم شيء عنده المصلحة العامة ، وهو الذي يغذي الأمة بدمه لتنال السعادة على ضوء تعاليمه ، وتحيى الحياة المطلوبة في صعيد إرشاداته.وماالاسلام إلا مجموعة نظم وقوانين سماوية هبطت إلى الأرض بواسطة النبي الأعظم فهو الذي يتولى تطبيقها في حياته ، ومن يختاره لذلك بعد وفاته بأمر من المشرّع الاعلى (وربك يخلق مايشاء ويختار ما كان لهم الخيرة)

قال الامام كاشف الغطاء رحمه الله:(فالامامة منصب إلهي كالنبوة ، فكما أن الله سبحانه يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة فكذلك يختار للامامةمن يشاء ويأمر نبيه بالنص عليه وان ينصبه إماماً للناس من بعده للقيام بالوظائف التي كان على النبي أن يقوم بها ، سوى أن الامام لايوحى اليه كالنبي وإنما يتلقى الأحكام منه مع تسديد إلهي فالنبي مبلّغ عن الله والامام مبلّغ عن النبي ، والامامة متسلسلة في اثني عشر كل سابق ينص على اللاحق وهو معصوم - كالنبي - عن الخطأ والخطيئة وإلا لزالت الثقة (إني جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتي قال لاينال عهدي الظالمين) لان الغرض هو تكميل البشر وتزكية النفوس بالعلم والعمل الصالح : (هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) والناقص لا يكون مكملا لغيره والفاقد لا يكون معطياً) انتهى .

والامام الصادق هو سادس الأئمة الاثني عشر وهو صاحب هذه الولاية وولي أمر المسلمين وهو الانسان الكامل الذي اختاره الله لتطبيق ذلك النظام المقدس في عصره .

ولسنا في موقف الراغب الى البحث عن الامامة والولاية العامة ، فلها محل آخر .

ولكننا في معرض بيان موجز ، عن اعمال ولاة امر المسلمين في عصره الذين تولوا رعاية الأمة وليس لهم قدرة على اصلاح انفسهم فكيف تصلح بهم الأمة وقد شاهد الامام صنيعهم السيء وسيرتهم الملتوية في منهجهم السياسي الفاتك من اضطراب حبل الامن وما كان يمثله على مسرح الحياة من الادوار المحزنة التي قام بها اصحاب الجشع والطمع الذين لا يهمهم من شؤن المجتمع إلا الرياسة والسيطرة على الرعية واشباع رغباتهم النفسية من أي طريق كان الى ماهنالك من جرائم هي شعلة عذاب و نقمة على الأمة إذ خالفوا الكتاب والسنة ووقفوا حاجزا دون المجتمع ودون سعادته التي جعلها الله لهم باتباع أوامر الدين والخضوع لنظامه ،

وسنعرض بعض الحوادث التي جرت في ذلك العصر لنعرف مقدار ماتحمله الامام عند مشاهدته لتلك الاعمال القاسية والأوضاع الشاذة وهو المصلح الذي تهمه مصلحة الناس قبل مصلحة نفسه ، ويريد لهم السعادة تحت ظلال الدين الحنيف .

فكان موقفه (ع) في تلك المدة موقف الرجل المصلح الذي يصول بيد جذاء لقلة اعوانه وكثرة انصار أولئك القوم الذين تربعوا على دست الحكم .

فهو يراقب الحوادث عن كثب ويتألم لتلك الفضائع ويشارك المسلمين في ما يسيئهم .

ولم يكن ليترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وارشاد الناس ، فقد كان يبث تعاليمه في معارضتهم ، ويحذر الأمة من مخالطة أئمة الجور كما اشتهر ذلك عنه وأدل دليل على ذلك كلماته الخالدة .

إياكم أن يخاصم بعضكم بعضا الى أهل الجور .

أيما مؤمن قدَّم مؤمنا في خصومة الى قاض أو سلطان جائر فقضى عليه بغير حكم الله فقد شركه في الاثم ، أيما رجل كان بينه وبين أخ له مماراة في حق فدعاه الى رجل من اخوانكم ليحكم بينه وبينه فابى إلا أن يرافعه الى هؤلاء كان بمنزلة الذين قال الله عز وجل فيهم : (ألم تر الى الذين يزعمون انهم آمنوا بما انزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به) .

اتقوا الحكومة فان الحكومــة للامام العالم بالقضاء ، العادل بالمسلمين كنبي أو وصي نبي . وسأله رجل عن قاض بين فرقتين يأخذ من السلطان على القضاء الرزق فاجابه أن ذلك سحت . العامل بالظلم والمعين له والراضي به كلهم شركاء ثلاثتهم ، الى كثير من ذلك ، وسنذكر بعضها فيما بعد .

وكان يحث الناس ويدعوهم الى مقاطعتهم وعدم الركون اليهم ، ويدعو الامة الى الاتحاد ضد أولئك الظلمة امتثالا لقوله تعالى : (ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار) فهو يبث نصيحته بين طبقات ذلك المجتمع بصفته امام زمانه ويواصل جهاده في سبيــل الدعوة الاصلاحية ، ليفك اسر الامة من يد اشرار افسدوا ذلك المجتمع الصالح ، وقــد عاش مدة من الزمن وعاشر كثيراً من ملوك عصره فما ركن لهم وما استطاعوا أن يستميلوه وأدل شيء على ذلك ماجرى بينه وبين المنصور عندما أراد المنصور أن يستجلب رضا جعفر بن محمد (ع) ليوهم على الناس أن ولايته على حق فارسل اليه لم لاتغشانا كما يغشانا سائر الناس ؟ وكان المنصور يظن من الامام جوابا يحقق هذا الطلب إذ المنصور خليفة العصر ومهاب الجانب . فكان جواب الامام (ع) ما عندنا من الدنيا مانخافك عليــه

ولا عندك من الآخرة ما نرجوك له : ولا أنت في نعمة فنهنيك عليها ، ولا تعدها نقمة فنعزيك عليها فلم نغشاك .

وعظم هـذا الجواب على المنصور ولـكنه يعرف منزلة الصادق (ع) وصدقه فى ذلك ، وحاول ان يسلك طريقاً لضم الامام الى جانبه كما ضم غيره ، إذ يصعب عليه انعزاله وترفعه عن مخالطته فارسل اليـه انك تصحبنا لتنصحنا ، ولم يخف مراده على الامام فاجابه : « من أراد الدنيا فلا ينصحك ، ومن أراد الآخرة فلا يصحبك » .

— ٢ —

ملوك عصره

عبد الملك بن مروان بن الحـكم بن أبي العاص بن امية وامه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن ابي العاص بن أمية. فهو أموي بين امويين ولي المدينة المنورة فى عهد معاوية وهو أول من سمي بعبد الملك في الاسلام ، وكانت ولادته سنة ١٦ هو ويزيد بن معاوية فى سنة واحدة ، بويع له بالخلافة سنة ٦٥ وكان قبل خلافته يتظاهر بالعبادة والتقشف ملازماً للمسجد تالياً للقرآن ، وكان يقال له ابو الذباب لأنه كان أفوه مفتوح الفم وربما دخل الذباب في فمه ، حج في سنة ٧٥ وخطب الناس بخطبة قال فيها : انه كان من قبلي من الخلفاء تأكلون من المال وتأكلون واني والله لا أداوي أدواء هذه الامة إلا بالسيف « ولست بالخليفة المستضعف » « يعني عثمان » ولا الخليفة المداهن « يعني معاوية » ولا الخليفة المأبون « يعني يزيد بن معاوية » . -١-

---

-١- تاريخ ابن كثير ج ٩ ص ٦٤.

قالت له أم الدرداء : بلغني أنك شربت الطلى بعد العبادة والنسك ، فقال اي والله والدماء أيضاً شربتها .

فكانت أول بادرة منه ان نهى عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأعلن فى خطبته التي تعتبر منهاجاً لدولته بقوله: لا يأمرني أحد بتقوى الله إلا ضربت عنقه -١-

وأفضى الأمر اليه والمصحف بيده فقال : هذا آخر العهد بك -٢- ولولم تكن له سيئة من تلك السيئات التي ارتكبها إلا تولية الحجاج وحمله على رقاب المسلمين لكفاه خزيا وعذابا اليما ، فالحجاج ذلك الطاغية الذي اذاق الامة أنواع العذاب يغمد سيفه فى رقاب الأبرياء واتخذ ذلك السجن المكشوف الذي يضم بين جدرانه عدداً لا يقل عن مائة وعشرين الفاً من بين رجل وامرأة يلاقون حرارة الشمس وألم الجوع ويكابدون غصص وضع الرماد على الرؤوس يموجون من الشدة ويغلون كالمرجل تحرقهم حرارة الشمس وتقابهم السياط وبعج الرماح وصرخة السجانين ولقد اتخذ الحجاج فى معاملة الناس عندولايته أقسى مايتصور من القسوة والشدة يغمد سيفه أنى شاء وكيف شاء ، وله أساليب فى إنزال العذاب والعقوبة بمن يظفر بهم .

فهذا سجين يشدُّ عليه القصب الفارسي المشقوق ويجر عليه ثم ينضح عليه الخل -٣- وذاك أسير آخر اصيب ساقه بنشابة ثبت نصلها فى ساقه ، وعلم الحجاج ان أشد عذاب يعامل بها اسيره أن يحرك النصل ليسمع استغاثة السجين وصياحه فتأخذه نشوة الطرب تجبراً وطغيانا .

قال عمر بن عبدالعزيز : لوجاءت كل امة بخبيثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم -٤-

وقال عاصم : ما بقيت لله عز وجل حرمة إلا وقد ارتكبها الحجاج -٥-

---

-١- كامل ابن الاثير ج ٥ ص ٢٥١ . -٢- تاريخ الخلفاء السيوطي ٨٤

-٣- كامل ابن الأثير ج ٤ ص ٢٣٦ -٤- نفس المصدر ٢٨١ .

-٥- تاريخ ابن كثير ج ٩ ص ١٣٢ .

وسئل الحسن البصري عن عبدالملك بن مروان ، فقال : ما أقول في رجل الحجاج سيئة من سيئاته ـ ١ ـ

كان عبد الملك يشجع الحجاج ويشد أزره ولا يسمع عليه أي شكاية ولا يرق لأي استغاثة ، ولما أدركه الموت أوصى ولي عهده الوليد ـ برعاية الحجاج واكرامه ـ ٢ ـ وكيف لا يوصيه برجل كان من رأيه ان عبد الملك أفضل من النبي (ص) . ولا عجب من الحجاج بل العجب ممن يطلب له المعاذير ويحاول أن يوفق بين أعماله القبيحة وبين الدين ، ويريد ان يدخله الجنة رغم الحواجز وليس ببعيد عن التعصب والعاطفة حصول هذا وأمثاله ونستطيع ان نعرف نفسية عبد الملك وما هو فيه من جرأة على سفك الدماء ، من ولايته للحجاج وكانت تصله أخباره وترفع اليه الشكايات ، والاستغاثة منه فلا يرون عنده إلا تشجيع الحجاج على عمله .

ولما حضرته الوفاة أوصى ولده الوليد ، وأخذ له البيعة بالسيف وقال له وهو فى آخر ساعة من الدنيا : يا وليد حضر الوداع وذهب الخداع وحل القضاء فبكى الوليد فقال له عبد الملك: لا تعصر عينيك كما تعصر الامة الوكاء اذا أنا مت فغسلني وكفني وصل علي واسلمني الى عمر بن عبد العزيز يدليني فى حفرتي ، واخرج أنت الى الناس والبس لهم جلد نمر ، واقعد على المنبر ، وادع الناس الى بيعتك ، فمن مال بوجهه كذا فقل له بالسيف كذا ، وتنكر للصديق والقريب واسمع للبعيد ، واوصيك بالحجاج خيراً ـ ٣ ـ .

وبهذا نأخذ صورة عن كيفية أخذ البيعة من الناس لخليفة جديد، يتولى ادارة شؤون

ـ ١ ـ تاريخ ابى الفداء ج ١ ص ٢٠٩

ـ ٢ ـ السيوطى ٨٥

ـ٣ـ الامامة والسياسة ج ٢ ص ٥٤ .

الامة ، فهل الامة اختيار في الانتخاب أم أنها مرغمة ليس لها أي رأي . ولا يحق لها الاعتراض على شيء من ذلك، والمعارض يقتل فهل تصح مثل هذه البيعة التي سن نظامها العهد الأموي، وهل يصح ان يسمى من يفوز بمثل هذا التعيين الاجباري بأمير المؤمنين ويكتب ذلك بحروف بارزة ؟ انا لا أدري ولعل هناك من يدري وإلى القارئ النبيه الحكم .

ولا يسعنا التوسع في البحث عن أحداثه وحوادثه وما لقيته الأمة في أيامه من عمله وعماله . ولننتقل الى خليفة جديد يتولى أمر الامة وهو الوليد بن عبدالملك بويع بعد أبيه سنة ٨٦ وكان أول عمل يجرى على يده ، من الاصلاحات التي تتطلع اليه الناس ، هو فتح شارع جديد بسرعة لانظير لها ، من دار عبدالملك إلى المقبرة التي يودع بها ويقبر وكان غرضه من ذاك أن يسير موكب التشييع على خط مستقيم لايعرج بسرير عبدالملك يميناً وشمالا — ١ — فقد أمر بهدم الدور وتسويتها بالارض بتلك المدة التي لايسع أهلها الخروج منها إلا بصورة تبعث على التأثر .

وفي عهده قتل سعيد بن جبير ذلك العبد الصالح قتله الحجاج بن يوسف سنة ٩٤ . والوليد هو الذي بنى جامع دمشق المعروف بالجامع الاموى ، ويعد من حسناته . وأنى ينفع بناء المساجد مع المعاملة بغير الاحسان والعدل . ومدة ملكه عشرة سنين، وهناك جريمة يتعامى عنها أكثر المؤرخين ويتكتمون عن ذكرها لانهم يذهبون لامامته وهي قتله للامام زين العابدين بن الحسين بن علي سيد أهل البيت في عصره واعلم الامة في وقته ورابع الأئمة الاثني عشر وذلك في سنة ٩٤ قتله بالسم — ٢ — كما سيأتي بيانه وهو الذي أدخل حجرات ازواج النبي (ص) في المسجد فقال له

—— ١ — الامامة والسياسة ج ٢ ص ٥٤ .
—— ٢ — دلائل الامامة لابي جعفر بن رستم الطبرى ص ٨١

حبيب بن عبدالله بن الزبير انشدك الله ان تهدم آية من آيات كتاب الله (ان الذين يناديونك من وراء الحجرات) فأمر بضربه حتى مات

وفي عهده ولي خالد بن عبدالله القسري مكة وهو ذلك الجبار الذي سجل التأريخ اعماله وسيرته السيئة وما عامل الامة فيه ، ولقد أظهر الكفر وصرح به على المنبر في بعض خطبه عندما أعلن للناس رأيه بأنه يفضل الوليد على النبي (ص) ـ ١ ـ ولقد سبقه الحجاج الى هذا الرأي ـ ٢ ـ في تفضيل عبدالملك على النبي (ص) ولو لم يكن رأيهما يقع موقع الرضى في نفس الوليد لما استطاعا أن يصرحا بذلك .

والدولة الأموية منذ تأسيسها تحاول اخضاع الأمة لهم بدافع العقيدة ليوجدوا في النفوس قوة هائلة على ماتحت ايديهم من تلك القوة الارهابية التي عاملوا بها الناس ولكنها محاولة فاشلة .

وتولى بعد الوليد اخوه سليمان بن عبدالملك سنة ٩٦ وكان قد اتخذ عمر ابن عبدالعزيز مستشارا في بعض أموره لذلك كانت أيامه أهون من سلفه بالنسبة اليهم وهو الذي قتل عبدالعزيز بن موسى بن نصير الفاتح العظيم وعبدالعزيز هذا كان أفتتح في امارته مدائن ، وكان متصفا بالزهد والصلاح ولكن سليمان توصل الى قتله في سنة ٩٨ قال ابن الأثير : ويعدونها من زلات سليمان وكان والده موسى بن نصير قدسخط عليه سليمان وأرسل اليه وابقاه عنده فلماقتل ولده عرض رأس ولده عليه فتجلد المصيبة وقال : هنيئاً له بالشهادة وقد قتلتموه والله صوّاما قوّاما .

ـ ١ ـ الكامل ج ٤ ص ٢٥٧
ـ ٢ ـ ابن كثير ج ٩ ص ٧٦

وغضب سليمان على موسى بن نصير - ١ - الفاتح العظيم وعـذبه انواع العذاب وضمنـه على أربعـة الف الف دينار وثلاثين الف الف درهم أي أربعة ملايين دينار وثلاثين مليون درهم .

عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم وأمه أم عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب كان مولده سنة ٦١ ومات سنة ١٠١ . كان عمر بن عبدالعزيز تابعيا جليلا روى عن انس بن مالك وغيره ، وكان ينتقص عليا إتباعا لسلفه واحياء للسنة التي ابتدعها معاوية ، فسار عليها الهمج الرعاع من الناس حتى شب عليها الصغير وشاب الكبير فبلغ ذلك عبيدالله بن عبدالله ، فلما أتاه عمر اعرض عنه وقام يصلي فجلس عمر ينتظره فلما سلم اقبل عبدالله عليـه وقال : متى بلغك ان الله سخط على أهل بدر بعد أن رضي عنهم ففهمها عمر ، فقال : معذرة الى الله واليك والله لا أعود فما سمع بعد ذلك يذكر عليا (ع) إلا بخير ، ولما ولي الامر منع السب ومحى تلك البدعة التي تحملها الناس بالقهر والقوة ، وكتب الى الآفاق بترك شتم علي على المنابر وجعل عوضه (إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى . . .) الآية ، فحل هذا الفعل عند الناس محـلا حسنا ومدحوه ، قال كثير عزة

وليت فلم تشتم عليا ولم تخف　　　بريئا ولم تسمـع مقالة مجرم

تكلمت بالحق المبين وإنما　　　تبين آيات الهـدى بالتكلم

— ١ — موسى بن نصير المتولد سنة ١٩ اصله من عين التمر وقيل ان اباه سبي من جبل الخليل من الشام وكانت لموسى مواقف مشهورة وهو القائد العظيم الذي فتح بلاد المغرب وغنم اموالا طائلة وله بها مقامات مشهورة وجهز ولده عبدالله ففتح جزيرة ميورقه وغزى ولده الآخر السوس الاقصى وبلغ السبي اربعين الفاً ووجه مولاه طارق بن زياد ففتح اقليم الاندلس وكان موسى ممن عرف هو وأبوه بولائه لآل محمد ولا يستبعد ان ذلك سببه غضب سليمان عليه وقتل ولده لذلك هو هذا كما غضب معاوية من قبل على أبيه نصير إذ لم يخرج لصفين معه لقتال علي وتوفى موسى سنة ٩٨ انظر الامامة والسياسة تجد تفاصيل فتوحاته وما غنمه .

وصدقت معروف الذي قلت بالذي فعلت فاضحى راضياً كل مسلم

فلما سمع عمر انشادها قال اذاً أفلحنا ـ ١ ـ وصعب ترك سب علي على نفوس الأمويين الشريرة وحاولوا اعادته نظراً لما طبعوا عليه من بغض علي (ع) ومناوأته يحدثنا الطبري ج ٥ ص ٢٨٤ قال : حج هشام سنة ١٠٦ وكان سعيد ابن الوليد بن عثمان بن عفان يسايره فقال له يا أمير المؤمنين ان الله لم يزل ينعم على أهل بيت أمير المؤمنين وينصر خليفته المظلوم ولم يزالوا يلعنون في هذه المواطن الصالحة أبا تراب فأمير المؤمنين ينبغي له ان يلعنه في هذه المواطن الصالحة فشق على هشام ذلك وثقل عليه كلامه ثم قال ما قدمنا لشتم أحدولا للعنه وانما قدمنا حجاجاً .

وولي الأمر من بعده يزيد بن عبد الملك بن مروان ، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية وذلك فى سنة ١٠١ وتوفى سنة ١٠٥ ولم تطل أيامه وعاجلته منيته، وهو الذي هام بمعشوقته حبابة ، واستولت عليه استيلاء السيد على عبده ولما ماتت خرج عن شعوره وفقد اتزانه ، وأمر بان تخرج جيفتها بعد مدة يتسلى بها ومات بعدها بقليل. وكانت خلافته أربع سنين وشهر .

ولما ولي الأمر قال: سيروا بسيرة عمر بن عبد العزيز فمكث كذلك أربعين ليلة ، فاتى باربعين شيخاً فشهدوا له انه ما على الخلفاء من حساب ولاعذاب ـ ١ ـ .

وانتقل الأمر الى هشام بن عبدالملك بويع سنة ١٠٥ وفى عصره انتشرت دعوة العلويين بتدبير ذلك الانقلاب وكان هشام يتظاهر بخصال استوجبت البقاء على الملك، ولما توفي في سنة ١٢٥ تولى الضعف على جسم الدولة ولم تبق بعده أكثر

ـ ١ ـ الكامل ج ٥ ص ٣٠ فى حوادث سنة ٩٩

ـ ٢ ـ ابن كثير ج ص ٢٣٢

من سبع سنين ، وفى أيامه قتل زيد بن علي بن الحسين (ع) بن علي بن أبي طالب في سنة ١٢١ بالكوفة -١- ، وكان هشام معلناً بالعداء لآل محمد ، وهو الذي حبس الفرزدق بانشاده القصيدة فى مدح الامام علي بن الحسين (ع) في السنة التي حج بها هشام فى خلافة والده عبد الملك ، يوم جاء ليستلم الحجر فلم يستطع لكثرة الازدحام ولم يفرج له الناس ولم ينظروا لعظمته ومنزلته ، فنصب له منبر ، وأحاط به أهل الشام فكان أعظم شيء عليه ان ينظر الى الناس تنفرج فى ذلك الازدحام ويكونوا سماطين ، ويخلو الطريق الى استلام الحجر عندما قدم علي زين العابدين ، فهابه الناس وانفرجوا له اجلالا وهيبة ، فغاض ذلك هشام فقال رجل من أهل الشام لهشام : من هذا الذي هابه الناس وأفرجوا له عن الحجر ؟ قال هشام : لا اعرفه لئلا يرغب الناس عنه ، وكان الفرزدق (٢) حاضراً فقام فقال : أنا أعرفه ، فقال الشامي من هو يا أبا فراس ؟ فأنشأ الفرزدق قصيدته العصماء المشهورة :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

الى آخر قصيدته ، ولا شك ان ذلك الرجل لم يكن ليجهل زين العابدين ولكنه أراد ان يلفت نظر هشام لعظمة زين العابدين .

وحج هشام بن عبد الملك في أيام خلافته ، وكان محمد الباقر في المسجد وقد أحاط به طلاب العلم وهو في تلك الحلقة ، يلقي تعاليم الدين الاسلامي ، ويعلمهم الأحكام والفرائض ، فصعب ذلك على هشام ، فقال لرجل من جماعته : اذهب اليه واسأله وقل له يقول لك أمير المؤمنين : ما الذي يأكله الناس ،

-١- الأتحاف بحب الاشراف ص ٥٢ والفصول المهمة وغيرها .

(٢) هو همام بن غالب بن صعصعة بن ناجيـة التميمي البصري المعروف بالفرزدق الشاعر المشهور توفى سنة ١١٠

ويشربونه في المحشر الى ان يفصل بينهم يوم القيامة ، فلما سأله الرجل قال قل له يحشر الناس ، على مثل قرص النقي (١) فيها أشجار وأنهار يأكلون ويشربون منها حتى يفرغوا من الحساب ، وكان هشام يقصد من وراء هذا السؤال ان يظفر بشيء يستطيع به ان يضع من منزلة الامام في ذلك المجتمع ولو من باب المغالطة ، لأنه محنق عليه فلما رجع الرسول اليه بما أجابه الامام ظن هشام انه ظفر بما أراد ونجح بما دبر فقال الله اكبر اذهب اليه فقل له يقول لك : ما اشغلهم عن الاكل والشرب يومئذ ؟ فقال ابو جعفر الباقر : هم في النار أشغل ولم يشغلوا عن ان قالوا افيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله فسكت هشام وعرف فضله وهو الذي سير الامام الباقر (ع) وولده الصادق (ع) من المدينة الى الشام ، يقصد بذلك اهانتهما ، والتشفي منهما لما رآه وسمعه عندما حج فى تلك السنة ، وحج فيها الامام محمد الباقر وولده الصادق (ع) فقال الامام الصادق في ذلك الملأ : الحمد لله الذى بعث محمداً بالحق نبياً واكرمنا به ، فنحن صفوة الله من خلقه وخيرته من عباده ، وخلفائه ، فالسعيد من تبعنا ، والشقي من عادانا ، فبلغ هشام ذلك ، وعظم عليه فلم يتعرض لهما بشيء ، حتى انصرف الى دمشق ، وأمر باشخاص الامام وولده الصادق (ع) الى دمشق ، قال الامام الصادق (ع) فلما وردنا دمشق حجبنا ثلاثا ، ثم أذن لنا في اليوم الرابع ، الى آخر ماهو معروف من هذه القصة .

وأناخ ركب الخلافة الاسلامية عند ذلك الخليع الفاسق المتهتك الذي زاد على سلفه في سوء الفعل وخبث السريرة ذاك هو الوليد بن يزيد الذي ارتكب أفضع الامور وأقبحها ، قال ابن فضل الله في المسالك الوليد بن يزيد فرعون

---

(١) النقي كغني قال فى النهاية الحديث يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء كقرصة النقي يعني الخبز الحوارى .

ذلك العصر الذاهب ، يأتي يوم القيامة فيورد قومه النار ويرديهم العار وبئس الورد المورود ، رشق المصحف بالسهام وفسق ولم يخش الآثام) قال سليمان أخوه عند ما جيء اليه برأسه انه كان شروبا للخمر ماجناً فاسقاً ولقد ارادني على نفسي وفي عبارة ابن كثير ولقد أرادني على نفسي هـذا الفاسق وانا أخوه لم يأنف من ذلك ، ويحدثنا الشيخ عبد الباسط في التحفة ص ١٠٦ في صفة الوليد انه كان فاسقاً شريباً للخمر منتهكا لحرمات الله ثم ذكر ارتكابه المنكر مع ابنته البكر .

وتفاءل فى المصحف فخرج له (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيـــد) فمزقه وأنشد :

اتوعد كل جبار عنيـد	فها أنا ذاك جبار عنيـد
إذا لاقيت ربك يوم حشر	فقل يارب مزقني الوليد

واصطنع بركة من خمر فكان يلقي نفسه ، ويشرب منها طربا حتى يظهر النقصان فى أطرافها ، وكانت ولايته للامر بعـد عمه هشام سنة ١٢٥ هـ ولم تطل أيامه ومزق الله شمله وأراح الامة منه ، وقد كان متصفاً بصفات الشر أجمع من زندقة وكفر وغشيان امهات أولاد أبيه ومراودة اخوانه وتجاهره بشرب الخمر واللواط والزنا حتى بمحارمه ، فـكان عصره عصر سوء ومحن وبلاء ، وقد أراد أن يشرب الخمر على الـكعبة الى كثير من تلك الصفات التي كان يتصف بهـا ذلك الشرير ، ولا نستغرب صدور تلك الغرائب منه فهو من شجرة ملعونة لا تحمل إلا تلك الصفات الخبيثة ولـكننا نستغرب كل الغرابة من بعض مؤرخي المسلمين الذين يصفونه بامرة المؤمنين ويقفون الى جنبه يناصرونه ويدافعون عنه ولـكنه دفاع فاشل وضربة أشل ، وقتل سنة ١٢٦ هـ وانتقل الأمر من بعده الى .

يزيد بن عبد الملك بن مروان

بويع له بالخلافة - بعد قتل الوليد الفاسق - ليلة الجمعة في جماد الآخر سنة ١٢٦ﻫ وهو المعروف بالناقص، وكان داعية للقدر وقرب اصحاب غيلان الذي قتله هشام ابن عبدالملك وكانت مدة ولايته ستة اشهر ومات في ذي القعدة وفي أيامه كثرت المؤاخذات على الامويين واشتد جانب الدعوة الهاشمية وانتشر الدعاة في الاقطار ولم يبق من الدولة الا صبابة توزع على ذوي الاطماع، وكل ثار في جهة واضطربت الامصار واتسعت شقة الخلاف وكثر القتل وتتابعت الثورات وكان الخليفة الرسمي ابراهيم بن الوليد ووليها من بعده مروان الحمار آخر ملوك الدولة وقتل على يد العباسيين سنة ١٣٢ﻫ وبه تقوضت دعائم تلك المملكة وانهار بناؤها .

امراء بلده

أبان بن عثمان أمه عمرة بنت جندب الدوسية ادعى السماع من أبيه وكذبه أحمد، روى له مسلم في صحيحه وليها سنة ٧٦ ﻫ في عهد عبدالملك بن مروان وكان من الفقهاء وكان به صمم وأصابه الفالج قبل أن يموت توفى سنة ٨٥ وولي مكانه هشام بن اسماعيل المخزومي .

هشام بن اسماعيل جد هشام بن عبدالملك لأمه وليها في سنة ٨٤ وكان ظالما مبغضا لآل محمد ينال من علي (ع) عند مايخطب وهو الذي ضرب سعيد بن المسيب ستين سوطا لامتناعه من البيعة في زمن عبدالملك والبسه ثيابا من شعر وأركبه جملا وطاف به المدينة وسجنه بعد ذلك ، وكان يسيء لعلي بن الحسين وفي سنة ٨٧ عزله الوليد عن أمرة المدينة وولى ابن عمه عمر بن عبدالعزيز وأمر

به أن يوقف للناس عند دار مروان لأنه كان يسيء معاملة أهل المدينة فاسمعه الناس من الكلام مالا يحب انتقاما وتشفيا منه فأمر علي بن الحسين خاصته أن لايتعرضوا له بالكلام كاتعرض له أهل المدينة ومر به يوما وهوفي موقفه فلما اجتازه وتجاوزه ولم يتعرض له بشيء ناداه هشام: الله اعلم حيث يجعل رسالته ، وكان هشام يقول ما أخاف إلا من علي بن الحسين ـ ١ ـ

عمر بن عبدالعزيز ـ ولاه الوليد بن عبدالملك أمرة المدينة سنة ٨٧ وعزله سنة ٩٢ وذلك لانه كتب الى الوليد يخبره عن الحجاج وسوء سيرته مع العراقيين فكتب الحجاج الى الوليد عندما بلغه ذلك يطلب منه عزل عمر بن عبدالعزيز فعزله وولى مكانه عثمان بن حيان ، وقد تقدمت ترجمة عمر .

عثمان بن حيان المري

ولي الأمر سنة ٩٢ وعزله سليمان سنة ٩٦ وفي أيامه نفى العراقيين من المدينة ومنع كل أحد من انزالهم عنده وذلك لعلمه أن العراقيين اشد ميلا للعلويين كما يتضح لنا من طيات كلماته عندما أعلن هذا الدستور على المنبر ، بقوله : والله ماجربت عراقيا قط إلا وجدت أفضلهم عند نفسه الذي يقول في آل أبي طالب مايقول ، وماهم لهم بشيعة ، وانهم لأعداء لهم ولغيرهم ولكن لما يريد الله من سفك دمائهم والله لا أوتي باحد آوى أحداً منهم أو اكراه منزلا إلا هدمت منزله وانزلت به ماهو أهله ـ ٢ ـ

وقد كان من قبله خالد القسري أعلن هذا النظام الجائر عندما ولي الحجاز في مكة ، فاصبح الناس يتحامون قرب العلويين ويحذرون اشد الحذر من الاتصال

ـ ١ ـ الطبري ج ٥ ص ٢١٧

ـ ٢ ـ نفس المصدر

بهم ومن ساقه القدر الى الوقوع بهذه الشبكة يحمل مقيداً الى العراق في عهد الحجاج لينال جزاءه من دون جرم .

أبو بكر محمد بن حزم

ولي المدينة سنة ٩٦ وعزله يزيد بن عبدالملك في سنة ١٠١

عبدالرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري

ولي المدينة سنة ١٠٦ وعزله يزيد سنة ١٠٤ وكانت ولايته ثلاث سنين وأشهر ، وكان سيء السيرة عامل الناس بالظلم فبغضوه وذمه الشعراء ، وكانت عاقبة أمره ان غضب عليه يزيد وعزله ولم يقبل فيه شفاعة لأحد وولى مكانه عبدالواحد بن عبدالله النظري نائب الطائف وامره ان يعذبه ويأخذ منه أربعين الف دينار ، فعذبه وكان في آخر أمره يسأل الناس في المدينة .

عبدالواحد بن عبدالله النظري

ولي المدينة في شوال سنة ١٠٤ وكانت سيرته مرضية وضم اليه يزيد مكة والطائف في سنة ١٠٥ وعزله هشام بن عبدالملك في سنة ١٠٦ وولى مكانه خاله ابراهيم بن هشام .

ابراهيم بن هشام بن اسماعيل المخزومي

ولي أمر المدينة سنة ١٠٦ وضم اليه هشام مكة والطائف وحج بالناس في سنة ١٠٦ وخطب الناس بمنى يوم النحر بعد الظهر فقال سلوني انا ابن الوحيد لاتسألون أحداً أعلم مني، فقام اليه رجل من أهل العراق فسأله عن الاضحية أواجبة هي أم لا؟ فما أدري أي شيء يقول فنزل وبقي والياً ثمان سنين وعزله هشام في سنة ١١٤ .

خالد بن عبدالملك

ابن الحارث بن الحكم قدم المدينة في شهر ربيع الأول سنة ١١٤ وعزله هشام سنة ١١٨

محمد بن هشام بن اسماعيل

وليها من قبل هشام سنة ١١٨ وبقي والياً عليها الى سنة ١٢٥ فعزله الوليد ابن يزيد وولى خاله يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي في سنة ١٢٥ وهو خال الوليد لأن الوليد أمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي وبقي إلى سنة ١٢٦ عزله يزيد بن الوليد وولى مكانه عبدالعزيز بن عمر بن عبدالعزيز في سنة ١٢٦ ثم وليها عبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك سنة ١٢٧ وفي عهده دخل أبو حمزة الخارجي المدينة واستولى عليها مدة ثلاثة اشهر وقتل هذا الخارجي من أهل المدينة خلقا كثيرا وانتقل الامر الى بني العباس.

وولي السفاح ، وكانت أيامه أيام ثورات في جميع الاقطار ، وتظاهر بعطفه على أهل البيت فكان عصره أهون ممن جاء من بعده وهو المنصور ، وقد تعرضنا لبعض أعماله ومعاملاته مع أهل البيت ولا حاجة الى إعادة ذلك في هذا البحث .

موقف الصادق معهم

هؤلاء هم ولاة الأمر في عصر الامام الصادق (ع) رأينا ان نأتي بهذه اللمحة الموجزة ليتجلى للقارىء موقف الصادق (ع) في ذلك العصر الذي انتشر به الفساد ومني المجتمع فيه بضروب المحن والابتلاء وهو بدون شك يحمل من الأذى اضعاف ماتتحمله افراد الأمة لأنه المصلح الذي يريد للمجتمع السعادة المفقودة في عهد ولاة أمر لاتحترم حقوق الأمة المشروعة ، وتتحدى نظامها المقدس إذ استبدوا بالأمر وظلموا الأمة ، واستأثروا بالمغانم وخالفوا الكتاب والسنة في سبيل غاياتهم الدنيئة ، وخلقوا مشكلات الخلاف والتعصب ليفرّقوا الكلمة ويشتتوا الشمل ويشغلوا الافكار مما اثر على سير المسلمين وتقدمهم من الجهة الروحية التي هي قوام دينهم ، وذلك خلاف ماقرره الاسلام ، (لأنه يدعو الى كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة) والامام يرى أن واجبه يحتّم عليه نشر دعوة الاصلاح ، وتوجيه المجتمع وبث تعاليم الدين ، وأن يعلن غضبه على ذلك النظام الجائر بصفته امام زمانه ولكنه ماذا يصنع وهو الرجل المغلوب على أمره والمغصوب منه حقه ، ومع ذلك فانه لم يألو جهداً في معارضتهم ونهي الناس عن مخالطتهم والتولي لاعمالهم وقد أوجب على الأفراد عدم التعاون مع ولاة الامر ، وحرّم عليهم العمل لهم وحذّر وأوعد من عاونهم بالعذاب لانه كبيرة من الكبائر ، إذ الوالي الجائر يشتد عزمه وتتسع دائرة استبداده ، عندما يكثر مناصروه . فالامام يرى أن انفصال الأمة وعدم الركون اليهم يضيّق دائرة الاستبداد ويرغم الولاة على العدل ، ويأمل من وراء ذلك لهم السعادة ، والغرض أن ولاة ذلك العصر أو خلفاء الدولة المروانية قد انهمكوا في نعيم الدنيا وسفكوا الدماء ، وانتهكوا المحرمات وتجاهروا في عداء

آل محمد (ص) ، وتتبعوا من اتهم بحبهم ، والميل اليهم وتقريب من عرف ببغضهم ، يحاولون بذلك تحويل انظار الأمة عن أهل البيت وهم أهل العلم والورع والعبادة . والناس وإن تمكن منهم حب الدنيا والطموح الى المال فهم يخضعون لسيطرة العلم والدين بدافع العقيدة ، وحب الناس لآل محمد (ص) لاللدنيا ولكنه للدين وحده فحبهم من الدين ، لذلك كان يثقل على بني أمية ذكر أهل البيت بخير لأن سياستهم ترتكز على بغضهم ونصب العداء لهم واقصاء من اتهم بحبهم وقتل من اتضح منه ذلك .

ويعطينا الشاعر العبلي ـ ١ ـ صورة عن تلك السياسة بقوله :

شردوا بي عند امتداحي عليا ورأوا ذاك في داءاً دويا

فوربي ما أبرح الدهر حتى تختلي مهجتي بحبي عليا

وبنيه لحب أحمد اني كنت أحببتهم بحبي النبيا

حب دين لاحب دنياً وشر الحب حب يكون دنيا ويا

صاغني الله في الذوابة منهم لاذميا ولا سنيداً دعيا

وكان هذا الشاعر في عداد الأمويين فهو من عبدالعزى بن عبد شمس وكان يكره مايجري عليه بنو أمية من ذكر علي وسبه على المنابر ويظهر الانكار فنبوه عن ذلك ونفوه من مكة الى المدينة ، وعاش مجفوا من الأمويين مع مدحه لهم وشعره فيهم .

ثم خلفتها الدولة العباسية فزادت ـ كما يقال ـ في الطنبور نغمة حتى قال أحد مخضرمي الدولتين .

ياليت جور بني مروان دام لنا وليت عدل بني العباس في النار

ـ ١ ـ هو عبدالله بن عامر بن عبدالله بن علي بن ربيعة بن عبدالعزى

لأنهم تتبعوا الذراري العلوية فقتلوهم تحت كل حجر ومدر وخربوا ديارهم وهدموا آثارهم حتى قال الشعراء في عصر المتوكل :

تا الله ان كانت أمية قد أتت قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد اتـه بنو أبيـه بمثله هـذا لعمرك قبره مهدوما
اسفوا على أن لا يكونوا شاركوا في قتـله فتتبعوه رميما

وكابد أهل البيت من المحن مالا يمكن حصره فقد امتلأت منهم السجون واهتزت باجسامهم المشانق ، وسالت بدمائهم الارض .

وكانت السلطة الحاكمة تشجع خصومهم وتدعوا الناس للابتعاد عنهم ، ويصدر مرسوم من بغداد إلى مصر ، بأن لا يقبَّل * علوي ضيعة ولا يركب فرساً ولا يسافر من الفسطاط إلى طرف من أطرافها وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد ، وإن كانت بين علوي وبين أحد من سائر الناس خصومة فلا يقبل قول العلوي ويقبل قول خصمه بدون بينة - ١ - وكانوا بين آونة وأخرى ، يصدر مرسوم بان يسفرَّوا من الاطراف الى عاصمة الملك ليكونوا تحت الرقابة وينالوا العقاب هناك ، وأمر الرشيد عامله على المدينة ان يضمن العلويون بعضهم بعضا وكانوا يعرضون على السلطان كل يوم فمن غاب عوقب .

ولم يقف العلويون تجاه هذه المشاكل موقف الذلة والخضوع ، وأبت نفوسهم التسليم لتلك النظم والاحكام القاسية ، واستطاعوا الافلات من تلك السيطرة ، فثاروا في وجوه الظلم لرفع راية العدل فكانت هناك ثورات دموية كان النجاح مع اكثرهم فاسسوا دولا وحكومات اقلقت العباسيين ودفعتهم لحب الانتقام من العلويين ، وتطبيق مادة الفناء والابادة بحق من عرفوه بالميل لهم

---

* اعطاء الارض الزرع بحصة منها — ١ — الولاة والقضاة للكندي ١٩٨

أو اتهم بذلك فحاكوا لهم التهم والصقوا بهم العيوب ، فلقيت شيعة أهل البيت من ذلك أشد الأذى ، ولكنهم ذللوا تلك المصاعب بسلاح العقيدة والايمان الصحيح ، ووقف معسكرهم من البداية الى النهاية مرابطاً على خط الدفاع عن حقوق آل محمد والانتصار لهم .

على ان الاكثرية الساحقة دعاهم - الطمع ، وحب الدفاع عن النفس ، وهو من الغرائز الملائمة لطبيعة الانسان - للتظاهر مع السلطة على هضم حقوق العترة وبث تلك الدعايات الكاذبة ضد شيعتهم لأنهم شاهدوا الأحكام القاسية التي تطبق على الشيعه ، وشاهدوا ان أقرب الناس من ساحات الأمن وأبعدهم عن الخطر من الف كتابا فى ذمهم أو ابدى رأيا في مؤاخذتهم أو طعن في معتقداتهم أو قال شعراً يهجوهم به أو عرف بالعداء لآل محمد ، وهم أئمة الشيعة ولا يرون طاعة أحد غيرهم فتجد الكتاب والعلماء والشعراء يتقربون الى ولاة الأمر بما يحط من كرامتهم لينالوا شهادة الانتساب الى تأييد السلطة وهانحن نذكر موجزاً من ذلك وللتفصيل محل آخر (١)

هـذا بشار بن برد المعروف بالزندقة والالحاد يقف امام الخليفة العباسي فينشد :

أنى يكون وليس ذاك بكائن ... لبني البنات وراثة الأعمام

فيجيزه المهدي بسبعين الف درهم ، فما حال الرعاع وذوي الحاجة والضمائر الرخيصة الذين يبيعون ضمائرهم بابخس الاثمان عندمشاهدة هذا التشجيع . ويدخل مروان بن حفص على المهدي فينشده قصيدة يتعرض بها لآل علي (ع) .

هل تطمعون من السماء نجومها ... باكفكم أو تسترون هلالها

---

(١) يأتي ذلك انشاء الله تحت عنوان (الشيعة في قفص الاتهام) .

أو تدفعون مقالة عن ربكم جبريل بلغها النبي فقالها
شهدت من الانفال آخر آية بتراثهم فاردتم ابطالها

يعني بذلك بني علي وبني العباس –١– . فترى المهدي يتزاحف من صدر مصلاه حتى صار على البساط اعجابا بما سمع وتقديراً لموهبة هذا الشاعر :

ثم قال له كم بيتاً هي ؟ قال : مائة بيت ، فامر له بمائة الف درهم :

وناهيك مافي هـذا العمل والتشجيع من الخليفة وأثره في نفوس العامة ولا شيء أملك للنفس من عطف الامراء، وتوددهم للافراد بما تميل طباعهم اليه .

ودخل رجل على الرشيد فقال : لقد هجوت الرافضة ، قال: هات فانشد :

رغماً وشمساً وزيتوناً ومظلمة من أن تنالوا من الشيخين طغيانا

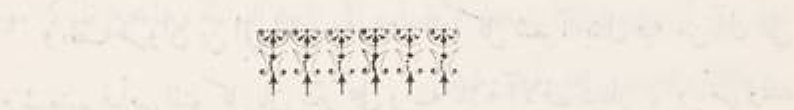
قال الرشيد : فسره لي ، قال : لا ، ولـكن أنت وجيشك أجهد من أن تدري ما أقول قال : والله ما أدري ما هو وأجازه .

ويقف مروان بن ابي الجنوب فينشد المتوكل شعراً ينال فيه من آل علي ويذم شيعتهم فيأمر المتوكل بان ينثر على رأسه ثلاثة آلاف دينار ، ويأمر ولده وسعد الايتاخي بالتقاطها له ، ويعقد له على امارة البحرين واليمامة ويخلع عليه أربع خلع –٢– .

هـذا بعض ما ابدته السلطة فى مقاومتهم وتشجيع خصومهم ، ولـكنه عمل لم يثمر أي شيء . فآل محمد لا تستطيع أي قوة إخفاء ذكرهم أو محو آثارهم فهم فى كل زمن أعلام هدى ودعاة صلاح وذكرهم يتجدد كلما تحرر الفكر وازدهر العلم . والمنصف اذا نظر الى انتشار مذهب أهل البيت فى الاقطار

–١– الخطيب ج ١٣ ص ١٤٤
–٢– ابن الاثير ج ٧ ص ٣٨

الاسلامية ، كالعراق ، والحجاز ، ومصر والشام والاندلس والهند وايران ، والبحرين والقطيف وغيرها ، يرى ان ذلك الانتشار انما كان بحسب ذاته ولياقته وقيمه الروحية ، مع شدة مقاومة السلطات فكلما تتصف بالعداء له ووقفوا دون انتشاره مواقفاً خانهم النجاح فيها وسيتضح كل ذلك عند دراساتنا لنشأة المذاهب الاسلامية وعوامل انتشارها وها نحن ننتقل بالقارىء الكريم الى البحث عن نشأة المذاهب والله ولي التوفيق .



المذاهب الاربعة

نشأة المذاهب

— ١ —

وقبل البحث عن حياة أئمة المذاهب الأربعة يلزمنا ذكر أسباب نشأتها وكيف تكيف الالتزام بها دون غيرها من المذاهب ، حتى أصبح الوقوف عند قول امام معين لازم ، ولا يمكن استنباط حكم شرعي لأي أحد دون اولئك القوم الذين وقفت قافلة التشريع الاسلامي عندهم ، فاصبحوا المصدر للتشريع والمرجع الأعلى في الدين حتى ادعي استحالة الاجتهاد لمن بعدهم ، فأُغلق بابه في وجوه المسلمين ، وغَلْقُ باب الاجتهاد جمود للتشريع وذهاب لحياة الامة ، فتلك امور يلزمنا النظر فيها ولا نستطيع فهمها إلا بعد أن ندرس الظروف التي تكونت فيها فكرة التمذهب بمذهب إمام معين ، ونبحث عن أسباب نشأتها وعوامل انتشارها فهل كانت دواعي الانتشار بسبب القيم الروحيـــة أم انها استندت الى السلطة التنفيذية ؟ وهل كانت مستقلة عن تأثر السلطة أم انها عرضة لذلك وهل اخضعتها لمتابعتها أم انها خضعت لأغراض الولاة ؟ وسيتضح لنا ذلك عند ما نبحث عن نشأة المذاهب .

على اثر النجاح الذي احرزته الجمعيات السرية المنعقدة ضد النظام الأموي طلع نجم بني العباس وكان لهم نشاط سياسي في المجتمع ، فهم في طليعـة رجال حركة الانقلاب الذي أحدثته الامة لتحويل الحكم من البيت الاموي الى البيت العلوي ، وكان العباسيون أشد الناس حماساً في ايقاد نار الثورة انتقاماً من الأمويين لأبناء علي وكانت هتافات الثوار هي الدعوة الى الرضا من آل محمد .

على هذا ثارت الامـة وانتظمت صفوفها التي نالت الانتصار في تلك الحروب الدامية ، ومحيت امية من صفحة الوجود ونال العباسيون ثمرة ذلك الغرس ، فتاقت نفوسهم الى انتحال هـــذا الاسم عسى أن يوفقوا لاقناع الامة بانطباقـه عليهم فتكون لهم حكومة وراثية وتمنحهم الامة ثقتهم التامة ، وبالطبع ان هذه الفـكرة لا تلاقي كثير قبول عند العرب وفى المدينة ومكة في الخصوص ، لذلك وجهوا عنايتهم الى الموالي . فاهل المدينـة أعرف بآل محمد وأدرى بنزول الآيات فيهم وأحاديث النبي ووصاياه فى آله ، ولأنهم شهدوا تلك الأعمال التي عامل الأمويون آل محمد (ص) وتألموا لها ، فكان كل ينكر ذلك ويتمنى مناصرتهم فلا يمكنهم ان يجعلوا العباسيين هم آل محمد .

وحذراً من انكار العرب وانضمامهم لجانب العلويين اقتضت سياستهم توجيه العناية الى الموالي وهم يأملون من وراء ذلك تثبيت قواعـد المملكة اليوم وللنقمة من العرب يوماً آخر .

— ٢ —

كانت المدينة المنورة مصدراً للفتيا ترجع اليهم الامـة في مهات التشريع الاسلامي لأنها مركز العلم وفيها اصحاب الرسول وأهل بيتـه والتابعين لهم باحسان ، وقد لاحظت الدولة الاموية من قبل هذه المهمة التي يجب أن تلاحظها ، وهي اتجاه الانظار الى المدينة لأنها الجامعة الاسلامية ويخشى على الدولة خطرها ، فـكانت تحذرهم أشد الحذر فاستمالت اكثر الفقهاء بالعطاء والرجوع اليهم في المهات لتسد بذلك ثغرة الخطر على الدولة .

وفي العهد العباسي نشطت الحركة العلمية وكان طبيعياً أن تنتعش العلوم فى ظل سلطانهم لانهم كانوا يجعلون حقهم في الامامة قائماً على انهم سلالة النبي ، وكانوا

يقولون انهم سيشيدون – على اطلال الحكومة الموسومة بالزندقة عند أهل التقى – نظاماً على سنة النبي وأحكام الدين الإلهي .

فنهض أهل البيت وبقية العلماء لنشر العلم إذ وجد المسلمون حرية الرأي والتفوا حول آل البيت لانتهال العلوم من موردهم العذب، وكان الامام الصادق (ع) هو الشخصية الوحيدة التي يتطلع اليها الناس يوم طلع فجر النهضة العلمية فحملوا عنه العلم الى سائر الأقطار وقصده طلاب العلم من الانحاء القاصية وفتحت مدرسته بتلك الفترة فكان المنتمون اليها أربعة آلاف كما مرّ ذكره ، وهذا النشاط العلمي لايروق للدولة الفتيـة التي قامت على اطلال الدولة الأموية بدون حق شرعي ، وإنما هي في صالح العلويين وإنضمام العباسيين اليهم يطلبون الانتقام من أمية التي جرعتهم كأس الغصص فهم كسائر البيوتات التي انظمت لهذه الدعوة ولكنهم نشطوا بالحيـلة وتغلبوا باصطناع المعروف لآل البيت فخدمهم السيف فكانوا في حذر متواصل من العرب عامة ومن المدينة خاصة ، لأن أهل المدينة قد وقفوا على حقيقة البيعة وانها لآل علي (ع) دون بني العباس ، كما انهم كانوا في طليعة من بايع محمد بن عبدالله بن الحسن وفي رقبة السفاح بيعته فكيف يستقل بالأمر وينقض تلك البيعة ؟

ولكنه استطاع بمهارته لجلب قلوب الناس اليه وتثبيت قواعد ملكه على أيدي الفرس اذلا يأمن وثبة العرب لجانب العلويين فهم في نظر العباسيين انصار بني علي لا انصار بني العباس ، كذلك كان من سياستهم في بدء الدعوة قتل كل من يتكلم بالعربيـة في بلاد فارس . ومضى السفاح وجاء المنصور للحكم وهو ذلك الرجل الحديدي الذي يقتحم مواقع الخطر ولا يتهيب من اراقة الدماء ولا يقف امامه حاجز ولا يردعه وازع ديني في سبيل تركيز دعائم ملكه ، إذ كان الخطر

محيطاً به من كل الجهات وامام غايته حواجز لايتخطاها إلا بالتجرد عن العاطفة ففتك بأهل البيت وأبعد علماء المدينة ونصر الموالي فكانت تلك المعركة القوية وهي معركة أهل الحديث وأهل الرأي .

فقرب فقهاء العراق القائلين بالقياس وأحاطهم بعنايته ليحوّل أنظار الناس اليهم وبذلك تقل قيمة علماء أهل المدينة الذين هم أهل الفتيا الى حد كبير ، وما زالت الاقطار الاسلامية عيالا عليهم إذ هم حملة الحديث وأوثق الناس فيه .

— ٣ —

وكان الحديث في العراق قليلا ولكن انفتح فيه باب الرأي والقياس وقد اخذه حماد عن ابراهيم النخعي المتوفى سنة ٩٥ هـ وسنة ٧١٣ م وأخذه أبو حنيفة المتوفى سنة ١٥٠ هـ عن حماد ، وكان أهل الحديث يعيبون أهل الرأي بأنهم يتركون الاحاديث لأقيستهم ، والدين لا يقاس بالرأي وإنما سموا أهل الرأي لأن عنايتهم بتحصيل وجه من القياس والمعنى المستنبط من الأحكام وبناء الحوادث عليها ، وربما يقدّمون القياس الجلي على آحاد الأخبار وطريقتهم ان للشريعة مصالح مقصودة التحصيل من أجلها شرّعت فجعلوا هذه المصالح أصلا من أصول الأدلة إذ لم يجدوا نصاً في الكتاب والسنة الصحيحة عندهم وقد كانت قليلة العدد لبعد العراق عن موطن الحديث .

وأما أهل الحديث فلم يجعلوا للقياس والرأي في استنباط الأحكام هذا المحل . واشهر هؤلاء الامام زيد بن علي المتوفي سنة ١٢٢ هـ ٧٤٠ م والامام جعفر بن محمد الصادق ، والامام مالك المتوفى سنة ١٧٩ هـ ٧٥٥ م وعامر الشعبي المتوفى سنة ١٠٥ محدث الكوفة في عصره (١) واتسعت شقة الخلاف واحتدم

(١) من مقال لمعالي منير القاضي

النزاع وافترق أهل الفتيا الى فرقتين ، وانت ترى أن هذا النزاع بعد أن كان علمياً محضاً أصبح مزيجاً بالسياسة أو التعصب القبلي وتعددت فيه عوامل التفرق لتستند السلطة إلى اقوى الفريقين ، واتسع نطاق الخلاف فترى مالك بن انس يحط من كرامة العراقيين ويتحامل عليهم ويعلن بقوله : انزلوهم منزلة أهل الكتاب لاتصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي انزل الينا واليكم وإلهنا وإلهكم واحد - ١ - ودخل عليه محمد بن الحسن الشيباني فسمعه يقول هذه المقالة ثم رفع رأسه فكأنه استحي فقال : يا أبا عبدالله أكره أن تكون غيبة كذلك أدركت أصحابنا يقولون ، وكان يقرأ إذا نضر إلى العراقيين (تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر) - ٢ - وكان يسمي الكوفة دار الضرب يعني انها تضع الاحاديث وتضعها كما تخرج دار الضرب الدراهم والدنانير وقال عطاء لأبي حنيفة : من ابن أنت ؟ قال : من أهل الكوفة ، قال : أنت من أهل القرية الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا - ٣ - ومهما يكن من الامر فقد تعصب كل فريق الى بلده وتنابزوا

وعير أهل المدينة بالسماع والقيان وأهل مكة بالمتعة وأهل الكوفة بالنبيذ واشتدت عصبية كل قوم لبلادهم وحملتهم على وضع الاخبار في مدح قومه وبلده وذم مقابله وعظم الانشقاق بين الطائفتين وبالطبع ان الكوفة تضعف عن مقابلة الحجاز ولكن السياسة الزمنية اقتضت أن تكون الى جانب اهل الرأي لاحباً لهم ولكن بغضاً لاهل المدينة ، واصبح لكل جانب أنصار ومتعصبون فكان مالك ابن أنس في طليعة أهل الحديث وأنصاره من الحجاز سفيان الثوري واصحابه ، وزعيم أهل الرأي هو أبو حنيفة وأصحابه وكثير من فقهاء العراق .

- ١ - جامع بيان العلم وفضله - ٢ - ١٥٧
- ٢ - ضحى الاسلام ٢ - ١٥٢
- ٣ - تاريخ بغداد ١٣ - ٢٢٠

فالشافعي أخذ عن مالك وأصحابه، وأحمد المتوفى سنة ٢٤١هـ ٨٢٠ م أخذ عن الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ ٨٢٠ م وأصحابه.

وإنما سموا أصحاب الحديث لأن عنايتهم بتحصيل الأحاديث ونقل الأخبار وبناء الاحكام على النصوص ولا يرجعون الى القياس ، يقول الشافعي : إذا ماوجدتم لي مذهبا ووجدتم خبرا على خلاف مذهبي فاعلموا ان مذهبي ذلك الخبر وتبعه اصحابه ، وهم اسماعيل بن يحيى المزني ، والربيع بن سليمان الجيزي ، وحرملة ابن يحيى ، وأبو يعقوب البويطي ، وابن الصباح وابن عبدالحكم المصرى ، وأبو ثور ، وغيرهم.

وأما أصحاب الرأي ، فهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، واصحابه ، ومحمد بن الحسن الشيباني ، وأبو يوسف القاضي ، وزفر بن هذيل ، والحسن بن زياد اللؤلؤي ، وأبو مطيع البلخي ، وبشر المريسي ، فهؤلاء عرفوا بأهل الرأي وقالوا. ان الشريعة معقولة المعنى ولها أصول يرجع اليها ، ولاقتناعهم بمعقولية الشريعة وابتنائها على اصول محكمة فهمت من الكتاب والسنة كانوا لايحجمون عن الفتوى برأيهم كما كان يفعل الفريق الاول فأنهم يقفون ولايتعدون حدود النص ، وكانوا يحبون معرفة العلل والغايات التي من أجلها شرعت الاحكام وربما ردوا بعض أحاديث لمخالفتها لاصول الشريعة ، ولا سيما إذا عارضها حديث آخر.

وبهذا افترقت الأمة الى فرقتين أهل حديث وأهل رأي أو أهل المدينة وأهل الكوفة مع العلم بأن أهل العراق لايقاسون بأهل المدينة في الحديث ، فكان القياس عندهم أكثر وعليه يبنون غالب فتاواهم ونشط سير الحركة العلمية في ذلك العصر.

— ٣ —

أصبح النشاط العلمي واسع النطاق فكان في كل بلد إمام له مذهب ينسب اليه ، وكثر عددها والمنتمون اليها إلا أنه لم يكتب البقاء لاكثرها واعتراها الانقراض وكان لمؤسسيها الذين كثر اتباعهم تأريخ مجيد ومكانة سامية ربما فاقوا فى نظر معاصريهم وذوي العلم منهم رؤساء المذاهب الذين وقفت قافلة الفقه عندهم واقتصر استنباط الأحكام عليهم ، ولكن عوامل انتشار مذاهبهم عجزت عن مسايرة الظروف فلم يكتب لها البقاء ومحيت من صفحة الوجود ولم يبق لأبناء السنة منها إلا الأربعة .

المالكي . والحنفي . والشافعي . والحنبلي . اما المذاهب التي انقرضت فهي كثيرة ونذكر منها :

مذهب سفيان الثوري	المتوفى سنة ١٦١ ﻫ و سنة ٧٧٧ م ٧٨
مذهب سفيان بن عيينة	« سنة ١٩٨ ﻫ وسنة ٨١٣م — ١٤
مذهب الحسن البصري	« سنة ١١٠ ﻫ
مذهب الاوزاعي	« سنة١٥٧ ﻫ وسنة ٧٧٣ م
مذهب محمد بن جرير	« سنة ٣١٠ ﻫ وسنة ٩٢٢ م — ٢٣
مذهب عمر بن عبد العزيز	« سنة ١٠١ ﻫ وسنة ٧٢٠ م
مذهب الأعمش	« سنة ١٤٧ ﻫ وسنة ٧٦٤ م
مذهب الشعبي	« سنة ١٠٥ ﻫ وسنة ٧٢٣ م
مذهب اسحق	« سنة ٢٣٨ﻫ
مذهب الليث	« سنة ٩٢٠ ﻫ
مذهب ابي ثور	« سنة ٢٤٠ ﻫ وسنة ٨٥٤ م

مذهب داوود الظاهري المتوفى سنة ٢٧٠ هـ وسنة ٨٣٣ م

ومنهم من جعل فى تعدادها مذهب عائشة ، مذهب ابن عمر ، مذهب ابن مسعود ، مذهب ابراهيم النخعي . ولزيادة البيان نذكر طرفا من حياة بعض اولئك الأئمة ورؤساء المذاهب .

سفيان الثوري

أبو عبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي المتولد سنة ٦٥-٦٦ وتوفي بالبصرة سنة ١٦١ متواريا عن السلطان وعدّه ابن قتيبة فى عداد الشيعة وهو أحد الأئمة المجتهدين . وله مذهب لم يطل العمل به لقلة اتباعه وعدم مؤازرة السلطة له إذ كان طريداً يخشى سطوتهم وهم يطالبونه حتى مات مختفياً منهم وهو أحد رواة الامام الصادق (ع) وخريج مدرسته وكان اماماً من أئمة المسلمين قيل روى عنه عشرون الفاً ، وكان والده سعيد بن مسروق من محدثي الكوفة وثقه ابن معين وابو حاتم والعجلي . وقد نشأ الثوري فى مسقط رأسه الكوفة نشأة صالحة وكان بيته معروفا له مكانة فى محيطه فهو من فقهاء العراق الذين تشد اليهم الرحال فى طلب العلم ، وأراد المنصور قتله فلم يتمكن ، ودعي الى القضاء فهرب وبقي مذهبه معمولا به الى القرن الرابع .

سفيان بن عيينة

أبو محمد سفيان بن عيينة بن ابي عمران الهلالي مولاهم الكوفي كان اماماً عالماً ثبتاً أخذ العلم عن الصادق والزهري وابن دينار ، وابي اسحق وغيرهم ، وروى عنه الشافعي وشعبة بن الحجاج وخلق كثير ، قال الشافعي : مارأيت أحداً فيه آلة الفتيا ما في سفيان ، وما رأيت أكف منه عن الفتيا ، وثقه العجلي والشافعي وغيرهم ، وقال الشافعي لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز توفي سنة ١٩٨ هـ

وله مذهب يعمل به ولم يطل عمره وانقرض في القرن الرابع لقلة اتباعه وانصاره وعدم ملاءمته لسلطان عصره ودفن بمكة .

الحسن البصري

أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري كان من التابعين وابوه مولى زيد بن ثابت الانصاري وامه خيرة مولاة ام سلمة زوج النبي (ص) نشأ بوادي القرى، وكان من اجمل أهل البصرة حتى سقط عن دابته فحدث بانفه ما شوه خلقته ، كان مؤازاً لبني مروان يشد أزرهم وله علاقه وثيقة مع الولاة والامراء ويلاقي منهم الاكرام ، وكان لهم فى ثغر البصرة بقوة الدفاع أعظم من الجيوش المدربة في ساحات الحرب حتى قالوا لولا لسان الحسن وسيف الحجاج لوئدت (١) الدولة المروانية في لحدها واخذت من وكرها وكان مدلساً فى حديثه كما نص عليه الحفاظ ولم يطل العمل بمذهبه .

الاوزاعي

عبد الرحمن بن عمرو الاوزاعي امام الشاميين

انتشر مذهبه بالشام كما انتشر مذهب مالك في الحجاز وابو حنيفة فى العراق وعمل أهل الشام بمذهبه مدة من الزمن وانتشر بالاندلس ثم اندرس مذهبه وحل محله مذهب الشافعي عندما عين محمد بن عثمان الشافعي قاضياً على دمشق فحكم

---

(١) كان الحسن البصري يتفق مع سياسة الدولة الاموية ويروى عن علي (ع) فاذا حدث عنه قال قال ابو زينب (يعني علياً) مجاراة للدولة التي اقتضت سياستها ان لا يظهر اسم علي ونقل عنه انه تكلم في علي فقال له ابان بن عياش : ماهذا الذي يقال عنك انك قلته في علي ؟ فقال يا ابن أخي ، احقن دمي من هؤلاء الجبابرة ولولا ذلك لسالت بي أعشب ، ولا شك ان هذا من أظهر موارد التقية وكان له مجلس علم حاشد بالعلماء لعظم منزلته من الدولة ، وفي مجلسه نشأت فكرة الاسم والحكم التي كانت أساساً لمذهب الاعتزال .

بمذهب الشافعي وهو أول من نشره هناك وبقي مذهب الاوزاعي الى سنة ٣٠٢ وكانت الاوزاعي شخصية مرموقة في عصره وصفات تؤهله للاتباع ولن يعدم العناية من السلطة فقد كان في العهد الأموي محترما مبجلا لانه على شاكلتهم ومن المؤيدين لدولتهم والناصرين لهم اتخذته السياسة رمزا دينيا لاغراضها الخاصة وفي العهد العباسي قربوه لمكانته في الشام ومنزلته عند أهله فكانوا يستميلونه ويقربون محله والمنصور يعظمه ويراسله لأنه عرف عنه الانحراف عن آل محمد (ص) كما يتضح لنا ذلك من تتبع آرائه وأقواله، وأما منزلته العلمية لا تنكر في عصره وبعد عصره روى ابن القطان عن مالك بن انس انه قال اجتمع عندي أبو حنيفة والثوري والاوزاعي فقلت ايهم ارجح؟ قال: الاوزاعي وتوفي سنة ١٥٧ في خلوة في الحمام وذلك ان زوجته أوقدت له كانون فحم واغلقت الباب عليه فمات .

ابن جرير

أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد غالب الطبري المتولد سنة ٢٢٤ بامد الطبرستان وتوفي ببغداد في ٢٦ شوال سنة ٢١٠ .

هو من المجتهدين لم يقلد أحداً له مذهب يعمل به واعتنق مذهبه جماعة منهم أبو الفرج المعافى بن زكريا النهرواني المعروف بابن طرار قال محمد بن اسحاق ابن خزيمة: ما اعلم تحت أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير، وقال الخطيب البغدادي كان حافظاً لكتاب الله تعالى عارفاً بالقرآن بصيراً بالمعاني فقيهاً باحكام القرآن عالماً بالسنن وطرقها صحيحها وسقيمها ناسخها ومنسوخها عارفاً باقوال الصحابة والتابعين فمن بعدهم .

الظاهري

أبو سليمان داوود بن علي بن خلف المعروف بالظاهري ولد بالكوفة سنة

٢٠٢ ونشأ ببغـداد وتوفي بها سنة ٢٧٠ وكان له لون خاص في التشريع لعمله في الظاهر .

استمر مذهب داوود الى منتصف القرن الخامس ثم اضمحل والصحيح انه بقي الى القرن السابع الهجري لأن من اتباعه وأئمتـه عبدالحق بن عبـدالرحمن الاشبيلي المتوفى سنة ٦١٠ ومحمد بن الحسين المشهور بالميورقي المتوفى منتصف القرن السادس ومجد الدين عمرو بن حسن بن علي بن محمـد بن فرج المتوفى سنة ٦٢٣ وكان من المحدثين . ومن أئمة هذا المذهب محمد بن حزم ـ ١ ـ صاحب الفصل في الملل والنحل وصاحب المحلى على قواعدالمذهب الظاهري.و مهما يكن من الأمر فان هذا المذهب قطع شوطا من الزمن بخطى ثقيلة ونراه يسرع في خطاه وينتشر بنطاق واسع عندما تولى المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وأعلن بتمسكه بهذا المذهب واعرض عن مذهب مالك الذي غمر المغرب بانتشاره فعظم المذهب الظاهري وكثر اتباعه وانقطع علم الفروع وخاف الفقهاء سطوة السلطان عنـدما فرض اعتناق هذا المذهب وامر باحراق كتب مذهب مالك كمدونة سحنون وكتاب ابن يونس ونوادر ابن أبي زيد ومختصر . والتهذيب للبردعي .

قال في المعجب ولقد شهدت منها وانا يومئذ بمدينة فاس يؤتى منها بالاحمال فتوضع وتطلق النار عليها . واستمر المذهب وقد عده المقدسي في (احسن التقاسيم) خامسا للمذاهب .

ـ ١ ـ هو علي بن احمد بن سعيد بن حزم المتولد سنة ٣٨٤ والمتوفى سنة ٤٥٧ وكان عظيم الحفظ كثير التصانيف وكان جريء اللسان متسرع الى النقل بمجرد ظنه كثير الوقوع بالعلماء وله كتاب الفصل يعرف به تحامله على المسلمين فانه يطلق لسانه حتى قيل ان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان كان شافعي المذهب قال ابن العربي ثم انه انتسب الى داوود ثم خلع الكل واستقل وزعم انه امام الائمة يضع ويرفع ويحكم ويشرع وينسب الى دين الله ما ليس فيه انظر تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ٣٢٣ .

أبو الحارث الليث بن سعد بن عبدالرحمن

المتولد سنة ٩٢ والمتوفى يوم الخميس أو الجمعة منتصف شعبان سنة ١٧٥ بمصر ، ودفن بالقرافة الصغرى . وقبره أحد المزارات هناك وله مكانة علمية ومذهب يعمل به وكان يقرن بمالك بن أنس يقول الشافعي الليث افقه من مالك الا أن أصحابه لم يقوموا به، وكان ابن وهب يقرأ على الشافعي : مسائل الليث فمرت به مسألة فقال رجل أحسن والله الليث كانه كان يسمع مالكا يجيب فيجيب هو فقال ابن وهب للرجل بل كان مالك يسمع الليث يجيب فيجيب هو. والله الذي لا إله إلا هو مارأينا أفقه من الليث، كان أهل مصر ينتقصون عثمان فنشأ فيهم الليث فحدثهم بفضائل عثمان فكفوا ولم يسعده الحظ بانصار ينشرون مذهبه فيكتب له الخلود وقد انقرض لمدة قليلة، يقول الاستاذ أحمد أمين: (لو تعصب المصريون لمن نبغ منهم لاحتفظوا بمذهبه ولكانوا اتباعه ولكن زامر الحي لايطرب . وازهد في عالم اهله) وفي الواقع ان عدم اشتهار مذهبه وانتشاره من عدم امتزاجه بسلطان عصره فقد طلبه المنصور للقضاء فابى وقال إني اضعف عن ذلك ولم يكن من أصحابه من يتولاه . فالقضاء هو عامل قوي لخلود المذاهب وبقائها كما يأتي بيانه.

ومما يؤثر عنه انه لقي الرشيد فسأله الرشيد : ماصلاح بلادكم ؟ قال : يا أمير المؤمنين صلاح بلادنا اجراء النيل وصلاح أميرها ومن رأس العين يأتي الكدر فاذا صفا رأس العين صفت العين .

وقال في النجوم الزاهرة : كان الليث كبير الديار المصرية ورئيسها وأمير من بها في عصره بحيث ان القاضي والنائب من تحت امرته ومشورته، كان الشافعي يتأسف على فوات لقسه وقد كتب بعض من غاضه ذلك الى المنصور .

أمير المؤمنين تلاف مصراً فان أميرها ليث بن سعد

عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم

كان تابعيا جليلا روى عن انس بن مالك وغيره وكان اعدل ملوك الامويين مر بيان ترجمته عند ذكرنا لملوك عصر الامام الصادق (ع) وامراء بلده ، ولا نعلم بالضبط الآخذين بمذهبه والعاملين به ولا نعلم مدة بقائه وربما كانت له آراء خاصة اخذها الناس عنه فعد في عداد المذاهب .

أبو محمد سليمان بن مهران الاعمش مولى بني كاهل من ولد اسد المعروف بالاعمش الكوفي كان ثقة عالماً وكان أبوه من دنبادند وهي ناحية من رستاق الري في الجبال وكان يقارن بالزهري في الحجاز ورأى انس بن مالك لكنه لم يرزق السماع منه ويروي عن أنس ارسالاً أخذه عن أصحاب أنس،وروى عنه سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج وكان لطيف الخلق مزاحا دخل أبو حنيفة يوما لعيادته فطول القعود عنده فلما عزم على القيام قال أبو حنيفة ما كأني إلا ثقلت عليك فقال والله انك لثقيل علي وأنت في بيتك،وعاده أيضاً جماعة وأطالوا الجلوس عنده فضجر منهم فاخذ وسادته وقام وقال شفى الله مريضكم بالعافية ، ولد سنة ٦٠ الهجرة وقيل انه ولد يوم مقتل الحسين (ع) وعده ابن قتيبة في كتاب المعارف من جملة من حملت به أمه سبعة اشهر وتوفي سنة ١٤٨ أي في السنة التي توفي بها الامام الصادق (ع) ولم يكن لمذهبه ظهور وانتشار في المجتمع وانقرض بمدة قليلة

عامر بن شرحبيل الشعبي أبو عمر الكوفي المتوفى سنة ١٠٥ ﻫ

سمع من جماعة من الصحابة وقال أدركت خمسمائة منهم وكان قاضياً لعمر ابن عبدالعزيز وكان محدث الكوفة وكان يفتي على ماصح عنده من الاثر وينقبض عن الفتوى ان لم يجد نصاً ولا يقول برأيه ونسبة المذهب اليه لما صدر عنه من

الفتوى وإلا فلم يشتهر عنه ذلك والعمل به قليل ،

هؤلاء بعض رؤساء المذاهب البائدة ، وهي كثيرة تنوف على الخمسين و نقصر الخطى على هؤلاء ، فالاستقصاء يقصينا عن الغاية التي نطلب من ورائها كشف الحقيقة.

وليس لنا غرض في التعرف عليهم ، ولكن الغرض أن نعرف الاسباب التي دعت الى محو هذه المذاهب من صفحة الوجود واثبات المذاهب الأربعة ، مع العلم ان رؤساء المذاهب البائدة لهم منزلة علمية ونستطيع القول بأن أكثرهم كانوا أعلم من رؤساء المذاهب الأربعة فسفيان الثوري لقبوه بأمير المؤمنين في الحديث وسيد الحفاظ وغير ذلك كما قاله شعبة وأبو عاصم وابن معين وغيرهم وقال ابن المبارك : كتبت عن الف شيخ كان سفيان أفضلهم وقال القطان : الثورى أحب الي من مالك إلى غير ذلك من أقوال علماء الرجال مما لم نعثر على مثلها لأبي حنيفة وغيره نعم من طرق اتباعهم تتعدى حد الحصر واعطف عليه سفيان بن عيينة و بن جريح والليث وغيرهم فانهم بمكانة من العلم وقد رجع الناس اليهم في الفتيا مدة من الزمن واستمر العمل بمذاهبهم ثم انقرضت ولم يبق لأهل السنة إلا المذاهب الأربعة الحنفي ، المالكي ، الشافعي ، الحنبلي .

وهنا يلزمنا البحث عن عوامل انتشار هذه المذاهب .

عوامل الانتشار

— ١ —

كانت دعوة العباسيين قائمة على أساس الانتماء الى النبي (ص) وانهم سلالة البيت النبوي فهم أحق بالأمر من أمية خصوم الاسلام وأعداء محمد (ص) وانهم بالطبع يقيمون على اطلال تلك الدولة المتهمة بمخالفة الدين دولة ذات صبغة دينية يحاولون ان يظهروا الاتصال الوثيق بين الدين والدولة ليكونوا من أحكام الشريعة الاسلامية دستوراً ونظاماً تسير الدولة عليه سيراً صوريا فقربوا العلماء واتصلوا بهم اتصالا وثيقاً وآثروا نشر العلم وجعلوا القضاء بيد أهل الرأي من أهل العراق حتى ولي ابو يوسف القضاء وهو أقوى عوامل انتشار المذهب الحنفي لمكانة ابي يوسف وسلطته التنفيذية يومذاك فكانت للمذهب الحنفي خطوة واسعـــة في قطع مسافة الشهرة بما لم يسعد به غيره . فابو يوسف (١) هو تلميذ ابي حنيفة وقد تربى فى نعمته ، وبتوليته منصب القضاء استطاع نشر المذهب وولي منصب رآسة القضاء العامـة في عهد الرشيد سنة ١٧٠ فلم يقلد ببلاد العراق

---

(١) أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم بن حبيب بن خنيس بن سعـد بن حبتة الأنصارى المتوفى سنة ١٨٢ ببغداد والمدفون فى مقابر قريش وهو أول من دعى بقاضى القضاة تولى القضاء لثلاث من الخلفاء المهدى وابنه الهادى والرشيد . قال محمد بن جرير الطبرى تحاما قوم من أهل الحديث حديثه لغلبة الرأى عليــه وتفريع الفروع والأحكام مع صحبة السلطان . وقال عمار بن ابى مالك ما كان في اصحاب ابى حنيفة مثل ابى يوسف لولا ابو يوسف ما ذكر ابو حنيفة ولا محمد بن ابى ليلى وهو الذى نشر قولهما . وعن ابن المبارك انه وهاه . وعن يزيد بن هارون انه قال لا تحل الرواية عنه كان يعطى أموال اليتامى ويجعل الربح لنفسه . وأبو يوسف هو الذى عناه الشاعر بقوله :

يا قاتل المسلم بالكافر ‏ ‏ ‏ ‏ جرت وما العادل بالجائر

وستأتى ترجمته ببيان ووضوح فى موكب القضاة .

وخراسان والشام، ومصر إلامن أشار به القاضي ابو يوسف -١- وذلك لمكانته في الدولة ومنزلته عند الرشيد حتى قال له الرشيد : يا ابا يعقوب لوجاز لي ادخالك في نسبي ومشاركتك في الخلافة المفضية الي لكنت حقيقاً به ، ألست القائل لأخي وقت كذا : وكذا ؟ وفي وقت كذا : وكذا ؟ -٢- .

يشير بذلك الى ما عزم عليه الهادي من خلع الرشيد واستشارة ابي يوسف في ذلك وجوابه له برد عزمه فكان الرشيد يشكر لأبي يوسف هذه اليد حتى قيل لم يتمكن أحد كتمكن ابي يوسف من الرشيد -٣- وقال بشر المريسي ما اشتهيت من مراتب السلطان إلا مرتبة رأيت ابا يوسف بلغها عشية من العشايا -٤-

وقال أحمد بن يوسف الكاتب : وبلغ ابو يوسف مع الرشيد مبلغاً لم يبلغه عالم بعلمه ولا محبوب بمرتبته -٥-

وقال ابن عبد البر فى الانتقاء ص ٦ : كان ابو يوسف قاض القضاة قضى لثلاثة من الخلفاء ولي القضاء فى بعض أيام المهدى ثم للهادي ثم للرشيد وكان الرشيد يكرمه ويجله وكان عنده حظياً مكيناً لذلك كانت له اليد الطولى في نشر ذكر ابي حنيفة واعلاء شأنه لما اوتي من قوة السلطان وسلطان القوة . كما انا اذا نظرنا الى مقومات المذهب فى نفسه نجد ذلك يرجع لجهود أربعة من اصحاب ابي حنيفة فانهم الفوافيه وهذبوا مسائله ، وليس لأبي حنيفة إلا المشاركة فى الرأي أحيانا وخالفوه في اكثر المسائل ، كما انهم وسعوا دائرة المذهب في الحيل

-١- خطط المقريزى ج ٤ س ١٤٤
-٢- المكافاة لابن الداية ٦٣
-٣- نفس المصدر ٦٢ .
-٤- نفس المصدر ٦٤ وذكر هناك قصة الجارية .
-٥- نفس المصدر -١١٦ - ١٧٣

الشرعية فاول اولئك النفر هو ابو يوسف القاضي فقد خدم المذهب فى قوته وسلطانه وفي تصنيف الكتب وتبويب المسائل ، وقد ادخل الحديث في فقه ابي حنيفه ، والف كتاب الخراج لهارون الرشيد مستنبطاً من الحديث على مذهب مالك .

والثاني محمد بن الحسن الشيباني مولاهم المتولد (١) سنة ١٣٢ نشأ بالكوفة وعاش تحت ظل الدولة العباسية ، أدرك أبا حنيفة ولم ينتفع منه لحداثة سنه فاتم دراسة المذهب على ابي يوسف وكان ذا فطنة وذكاء ، واصبح المرجع لأهل الرأي فى نبوغه وتقدمه والف فى المذهب كتباً هي في الحقيقة المرجع الأول فيه ، فان الحنفية ليس بايديهم إلا كتبه وخرج الى المدينة ولقي مالكا وقرأ الموطأ عليه ثم رجع الى بلده فطبق مذهب أصحابه على الموطأ مسألة مسألة ـ٢ـ ونظم الفقه الحنفي وخالف أباحنيفة في أكثر مسائله ، والثالث زفر بن الهذيل المتولد سنة ١١٠ كان من أهل الحديث وكان أقيس اصحاب ابي حنيفة ؛ الرابع الحسن بن زياد(٣)

---

(١) محمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة ١٨٩ قال فيه أحمد بن حنبل انه مرجيء ورد شريك شهادته لذلك وقد وقعت بينه وبين ابي يوسف مناكرة وكان يقول محمد بن الحسن جهمياً وقال محمد بن سعد العوفى سمعت يحيى بن معين يرميه بالكذب وقال : مرة انه جهمي كذاب ، وعن منصور بن خالد سمعت محمداً يقول لا ينظر فى كلامنا من يريد الله ، انظر لسان الميزان ج ٥ ص ١٢١ والوفيات ج ٣ ص ٣٢٤

ـ٢ـ رسالة الانصاف ص ٨ .

(٣) الحسن بن زياد اللؤلؤى كذبه يحيى بن معين وابو داود ومحمد بن عبد الله بن نمير ، قال ابن المديني لا يكتب حديثه ، وقال ابو حاتم ليس بثقة . وقال الدار قطني : ضعيف متروك ، وقال محمد بن حميد الرازي : ما رأيت اسوء صلاة منه ، وقال الخطيب : ان الحسن ولي القضاء ولم يوفق فكان اذا جلس لا يفهم شيئاً وعن اسحاق بن اسماعيل كنا عند وكيع فقلنا له : السنة مجدبة قال : وكيف لا تجدب وحسن اللؤلؤى قاض وحماد بن ابي حنيفة قاض .

اللؤلؤي مولى الانصار درس على ابي حنيفة ثم على ابي يوسف وعلى محمد بعده وصنف الكتب في مذهب ابي حنيفة ولم تكن كتبه بتلك الدرجة من الاعتبار عند الحنفية كما كانت لكتب محمد بن الحسن . فهؤلاء الأربعة هم دعامة رقي المذهب وسعة دائرته ولم ينقل لنا التاريخ عن ابي حنيفة كتابا يتضمن مسائله وفقهه وانما دون علم المذهب أصحابه . نعم لأبي حنيفة كتابا يسمى الفقه الاكبر هو وريقات قليلة لا يتضمن إلا شيئاً من العقائد وقد شرح ووسع واضيفت اليه آراء المتعصبين له مع ان الاكثرية يذهبون الى نسبة هذين الكتابين الى ابي حنيفة البخاري وليس هو ابو حنيفة رئيس المذهب . وبهذا يصبح لا أثر له فى تدوين أي شيء ، على أن ابا حنيفة لا يفارق فتوى ابراهيم وعبد الرزاق إلا فى مواضع يسيره . والغرض ان المذهب إنما انتشر وكثرت مسائله انما هو باعمال هؤلاء الأربعة .



— ٢ —

عوامل انتشار المذهب المالكي

كان من نتائج النزاع الذي حدث بين أهل العراق وأهل المدينة أو أهل الحديث وأهل الرأي ظهور شخصيـة ابي حنيفة في العراق ومالك في الحجاز ، وكانت السلطة تؤيد جانب أبي حنيفة وتشد ازره وتقدم الموالي لتحط من قيمة العرب لأنهم في نظرهم أعداء يتكتمون فلا يأمنون جانبهم من وثبة يوماً ما ، وانهم ليترقبونهـا في غالب الأحيان فهم دائمـاً في حذر وكان مالك ممن انظم لجانب العلويين وأخذ العلم عن الامام الصادق ، وأفتى بوجوب الخروج مع محمد ، فأُهين لذلك ونال الأذى وتعصب له قوم وناصروه وأصبحت له مكانة في المجتمع ، ولحظت السلطة أهمية مكانته فرأت من اللازم أن تجعله تحت عنايتها لتوجد منه شخصية علمية توجه اليه المجتمع طوعاً أو كرهاً ، فاصبح محترماً الى أبعد حدود الاحترام ، ويعطينا الامام الشافعي صورة عن عظيم منزلته ، عنـدما دخل المدينة يحمل الى واليها كتابا من والي مكة توصية بالشافعي ، ويطلب منه ايصاله الى مالك قال الشافعي : فابلغت الكتاب الى الوالي فلما ان قرأه قال : يافتى ان مشيي من جوف المدينة الى جوف مكة حافياً راجلا أهون علي من المشي الى باب مالك بن أنس فلست أرى الذلة حتى أقف على بابـه ، فقلت اصلح الله الأمير ان رأى يوجه اليه ليحضر ، قال هيهات ليت أني اذا ركبت انا ومن معي وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجاتنا قال : فواعدته العصر وركبنا جميعاً فوالله لـكان كما قال ، فتقدم رجل فقرع الباب فخرجت الينا جارية سوداء فقال لهـا الأمير

قولي لمولاك اني بالباب قال : فدخلت فابطأت ثم خرجت فقالت ان مولاي يقرؤك السلام ويقول ان كانت لك مسألة فارفعها في رقعة يخرج اليك الجواب ، وان كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف فقال : قولي له ان معي كتاب والي مكة اليه فى حاجة مهمة قال فدخلت وخرجت وفى يدها كرسي فوضعته ثم اذا انا بمالك قد خرج وعليه المهابة فرفع اليه الوالي الكتاب -١- .

ونحن إذ نقيس منزلة مالك بين العهدين نجد الفرق بينا فتراه في عهد أحد الولاة مغضوبا عليه يسحب ويجرد من ثيابه ويضرب خمسين سوطاً ويهان ، ونراه في العهد الثاني يتهيب الوالي أن يكلمه . فمالك في حاليه يعطينا درساً الى معرفة أغراض السياسة مع رجال الامة وان لها الواناً من المعاملة مع الأشخاص الذين تريد أن تستخدمهم بالمغريات ، والغرض ان نجم مالك بزغ بذلك الافق فاصبحت له شخصية مرموقة دون غيره من شيوخه الذين هم أعلم وأفقه كربيعة الرأي (٢) وغيره ، فامتاز بتلك المنزلة واكتسبت شخصيته ابراد العظمة ، وحاول العباسيون ان يجعلوا منه مرجعاً

-١- معجم الادباء ج ١٧ ص ٢٧٥

(٢) ربيعة بن عبد الرحمن بن فروخ التيمي ابو عثمان المدني الفقيه المعروف بربيعة الرأي روى عن أنس والسائب بن يزيد وابن المسيب وعنه سليمان التيمي ويحيى بن سعيد القطان وسعيد والليث وخلق كثير . وكان أبوه فروخ خرج فى البعوث الى خراسان أيام بني امية وربيعة حمل في بطن امه فقدم المدينة بعد سبع وعشرين سنة وهو راكب فرساً ودفع الباب برمحه فخرج ربيعة وقال ياعدو الله اتهجم على منزلي ، فقال فروخ : ياعدو الله أنت دخلت على حرمي فتواثبا حتى اجتمع الجيران وكثر الضجيج فبلغ مالك بن أنس فقال مالك : أيها الشيخ لك سعة فى غير هذه الدار فقال الشيخ هي داري وانا فروخ فسمعت امرأته كلامه فخرجت وقالت هذا زوجي وهذا ابني الذي خلفه وانا حامل به فاعتنقا جميعاً . قال سوار بن عبد الله : مارأيت أحداً أعلم من ربيعة الرأي قيل ولا الحسن وابن سيرين ؟ قال : ولا الحسن وابن سيرين ، وقال مالك ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة الرأي وكانت وفاته فى سنة ١٣٦ هـ بالهاشمية ودفن هناك وقيل سنة ١٣٣ .

عاماً للامة فى الفتوى ولـكنها محاولة لم تنجح ، وقد أمره المنصور بوضع كتاب يحمل الناس عليه بالقهر فكلمه مالك فى ذلك وامتنع فقال المنصور : ضعه فما أحد اليوم أعلم منك (١) فوضع الموطأ . وهذه الـكلمة لها مكانتها في نظر الاعتبار ، فالمنصور حينما يعلن بان مالـكا اعلم الناس ويلزمه بوضع الـكتاب تصادق عليه الدولة فيكون نظامها المتبع إذ هي تطلب الالتحاق بقافلة الدين وما أبعدها عن ذلك ، فمن يستطيع ان يتخلف عن الاعتراف بمنزلة مالك وانه أعلم الامـة ؟

والرشيد يأمر عامله على المدينة بان لا يقطع امراً دون مالك ، وكان الرشيد يجلس على الارض امامه لاستماع حديثه (٢) كيف لا يكون لمالك ظهور وسمعة ومنادي السلطان يهتف أيام الحج ان لا يفتي إلا مالك . فاصبحت له مكانة في المجتمع وهيبـة في النفوس وتقرّب الناس اليـه بشتى الوسائل والتفوا حوله وتزاحموا على مجلسه الذي عين له وقتاً خاصاً في يوم معين يزدحم الناس فيه لاستماع الحديث وأخـذ الفتيا ، وله كاتب بين يديه يقرأ للناس وليس لأحـد أن يدنو منه ولا ينظر فى كتابه ولا يستفهمه في شيء ، وبذلك لا يستطيع أحد مناقشته وكان على رأسه سودان يأتمرون بأمره . قال اسماعيل الفزاري : دخلت على مالك وسألته ان يحدثني فحدثني اثني عشر حديثا ثم امسك ، فقلت : زدني اكرمك الله وكان له سودان قيام على رأسه فاشار اليهم فأخرجوني من داره (٣) ولا ريب ان هـذه المعاملة من الامام مالك تبعثنا على التساؤل لم يضن على الناس بما ينفعهم من أحاديث نبوية وارشادات تربوية ؟ وهـذا الوضع منـه لا شك انه من الطراز المستغرب .

ويحدثنا أبو بكر بن عبدالله الصنعاني قال اتينا مالك بن أنس فحدثنا عن ربيعـة

(١) شرح الموطأ للزرقاني ج ١ ص ٨ . (٢) مناقب مالك للزاوي
(٣) الانتقاء ج ٢ ص ٤٢

الرأي فكنا نستزيده فقال لنا ذات يوم : ماتصنعون بربيعة وهو نائم في ذاك الطاق ؟ فاتينا ربيعه فقلنا : كيف يحظى بك مالك ولم تحظ أنت بنفسك ؟ فقال : اما علمتم ان مثقالا من دولة خير من حمل علم (١) ومهما يكن من أمر فقد اسعده الحظ فكان له شان ولمذهبه قبول ولكتابه منزلة حتى قالوا ماعلى ظهر الارض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك وفي لفظ آخر ماعلى الارض كتاب هو أقرب الى القرآن من كتاب مالك وكان انتشار مذهبه على ايدي القضاة والملوك، وانتشر بالاندلس بسبب حمل ملك الاندلس الناس عليه بالقهر لما بلغه كلام من مالك في مدحه عند ماسئل عن سيرة الملك في الاندلس فذكر له عنها ما اعجبه فقال نسأل الله تعالى ان يزين حرمنا بملككم فلما بلغ قوله الى الملك حمل الناس على مذهبه وترك مذهب الاوزاعي . وهذا اقوى عوامل الانتشار ودواعي الظهور والسمعة واقبال الناس عليه اتباعا للسلطان وخضوعا للسلطة بدون تمييز لما هو الأرجح والأولى. ونشر مذهب مالك في افريقيا القاضي سحنون يقول المقريزي ولما ولي المعز باديس حمل جميع أهل افريقية على التمسك بمذهب مالك وترك ماعداه فرجع أهل افريقيا وأهل الاندلس كلهم الى مذهبه رغبة فيما عند السلطان وحرصا على طلب الدنيا إذ كان القضاء والافتاء في جميع تلك المدن لايكون إلا لمن تسمى بمذهب مالك فاضطرت العامة الى احكامهم وفتاواهم ففشى هذا المذهب هناك . وبذلك نستدل على ان سيره وانتشاره لم يكن على حسب نظامه الطبيعي وإنما سار على حسب نظام القوة التي خضع الناس لها بدون تبصر كما ان انتشاره بالمغرب الاقصى هو كذلك رغبة لما عند السلطان وخضوعا لما افترضوه على الناس ولم يكن ثبوته مستقلا بروحانيته عن تأثر السلطة

(١) طبقات الفقهاء لابن اسحاق ص ٤٣

التنفيذية فان دولة بني تاشفين قامت في الاندلس في القرن الخامس وتولى ثانيهم علي بن يوسف بن تاشفين فعظم امر الفقهاء ولم يكن يقرب منه ويحظى عنده إلا من علم مذهب مالك فنفقت في زمنه كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ماسواها وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث الرسول فلم يكن أحد يعتني بهما كل الاعتناء .

وما ذلك إلا من اختراع السياسة لأمور كان الاصلح للامة أن تتخلى عن التدخل بمثلها اذ من الصعب على الرعية أن تعرف صلاح دينها مادام مفروضا عليها من قبل سلطان يجهل ذاك ولكنها دواع ومؤثرات انتشر بها مذهب مالك بصورة هائلة كزميله المذهب الحنفي فله اسوة به وإذا ماقصرت خطاه في بعض الاماكن فبمجرد تولي القضاء لما لكي يزداد نشاطه ويشتد اقبال الناس عليه وتمسكهم به لذلك انه لما خمل في المدينة مدة من الزمن فبمجرد ان تولى قضاءها ابن فرحون أظهره بعد خموله . فيظهر لنا ان الزمن سار في انتشار هذه المذاهب لا على سبيل الاعتقاد والواقع بل أن في الأمة ضعفاء قلدوا الأقوياء بأهم أمر كان الأجدر استقلالهم بمعرفته وأخذهم من أهله وأنى لهم ذلك وكل سلطة تحاول ان تجعل امورها ذات صبغة دينية وأمر التشريع بيد قضاة صارعتهم الدنيا فصرعتهم إلا من عصم الله وقليل ماهم .

قال ابن حزم : مذهبان انتشرا في مبدء أمرها بالرياسة والسلطان مذهب ابي حنيفة فانه لما ولي ابو يوسف القضاء كان لا يولي قاضياً إلا من أصحابه والمنتسبين اليه والى مذهبه .

والثاني مذهب مالك عندنا في الاندلس فان يحي بن يحي (١) كان مكيناً عندالسلطان مقبولا في القضاء ، فكان لا يولي قاضياً فى أقطار الاندلس إلا بمشورته واختياره ولا يسير إلا باصحابه والناس سراع الى الدنيا فاقبلوا على مايرجون به بلوغ أغراضهم ـ٢ـ .

وقال شاه ولي الدهلوي : وأي مذهب كان أصحابه مشهورين واسند اليهم القضاء والافتاء واشتهرت تصانيفهم في الناس ودرسوا درساً ظاهراً انتشر في أقطار الأرض ، وأي مذهب كان اصحابه خاملين ولم يولوا القضاء والافتاء ، ولم يرغب فيهم الناس اندرس مذهبهم بعد حين .

وهذا التعليل قد أجمعت عليه آراء المؤرخين والعلماء وقد مر فى مطاوي هذا البحث .

---

(١) هو ابو محمد يحي بن يحي الاندلسى ويعرف بابن عيسى سمع مالك بن انس وجمع مسائله وكتب سماع بن القاسم عن مالك ثم انصرف الى المدينة ليسمعه من مالك فوجده عليلا فاقام بالمدينة الى أن توفى مالك وقدم الى الاندلس وخالف مالكا فى كثير من المسائل قال أحمد بن خالد لم يعط أحد من أهل العلم بالاندلس منذ دخلها الاسلام من الحظوة وعظم القدر وجلالة الذكر ما اعطيه يحي بن يحي توفى سنة ٢٣٣ .

ـ٢ـ ابن خلكان ج ٢ ص ١٩٦ .

— ٣ —

المذهب الشافعي

كان ظهوره أولاً بمصر وكثر أصحابه بها وغلب على بغداد وعلى كثير من بلاد خراسان ودخل شيء منه الى افريقيا والاندلس بعد سنة ٣٠٠ هـ ، وقويت شوكته وعظمت شهرته في عهد الدولة الأيوبية فانهم شافعية وبذلوا جهدهم في نصرته ببناء المدارس لفقهاء الشافعية واختصاص القضاء بهم ، وكان الغالب على أهل مصر الشيعة في عهد الفاطميين الذين كانوا يملكون مصر قبله ، وكان المذهب يدرّس في الجامع الأزهر وغيره فابطل صلاح الدين درسه فيها واحيا مذهب الشافعي وابي حنيفة ومالك وبنى لهم كثيراً من المدارس ورغب الناس فيها بالأوقاف التي حبّسها عليها فرغبوا فيها وأخذوا في تقليدها وهجروا ماعداها من المذاهب . وكان انتشار مذهب الشافعي بعد صلاح الدين اكثر من غيره لاعتناق الملوك الذين تولوا من بعده مذهب الشافعي ، ونجح الشافعي في بدء أمره عند ما قدم مصر وزاحم مذهب مالك حتى تعصب عليه المالكية لأنه كاد ان ينسي الناس مذهب مالك الى ان آل الأمر فقتلوه بسبب التعصب كما يأتي بيانه . وكان سبب نجاحه مؤازرة بني عبد الحكم له فان لهم مكاناً رفيعاً بمصر ومنزلة سامية وجاهاً عظيماً ، وقد وازره ابو محمد عبدالله بن عبد الحكم بن اعين بن الليث وكان عالماً عاقلا متحققاً بمذهب مالك واليه أفضت الرياسة بعد أشهب فلما نزل الشافعي عليه اكرم مثواه وبلغ الغاية في برّه ومات الشافعي في بيته فاعتنق

مذهب الشافعي وكتب كتبه لنفسه مع انه لن يعدم رعاية السلطان هناك فانه دخل مصر وهو يحمل من الرشيد كتابا لواليه على مصر يوصيه به ويلزمه بعنايته ووقعت بينه وبين المالكية مناوشات كان النجاح له في نهاية الأمر . وكان قدوم الشافعي الى مصر في سنة ١٩٨ ﻫ ويقال انه جاء مع أميرها عبد الله بن العباس ابن موسى العباسي فصحبه جماعة من أعيان أهل مصر كبني عبد الحكم والربيع ابن سليان وابي ابراهيم اسماعيل بن يحيي المزني والبويطي وكتبوا عنه ونشروا مذهبه .

— ٤ —

المذهب الحنبلي

ظهر مذهب أحمد ببغداد وهو آخر المذاهب لتأخره زمناً فى الحدوث وكانت خطوة انتشاره خارج بغداد قصيرة جداً ولم ينل شهرة غيره من المذاهب ، وظهر فى مصر في القرن السابع بين أفراد معدودين ولكنه انتشر بعد فترة قصيرة عندما تولى القضاء عبد الله بن محمد بن محمد بن عبد الملك الحجازي زاد انتشاره هناك وذلك في سنة ٧٣٨ هـ . قال ابن خلدون : فاما احمد بن حنبل فمقلده قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد واصالته في معاضدة الرواية والأخبار بعضها ببعض واكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها وهم أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية الحديث .

وعداد أحمد بن حنبل عند القدماء انه من أهل الحديث لا الفقهاء ولذا لم يعد مذهبه فى الخلاف بين الفقهاء وكان ابن جرير يقول : انه رجل حديث لا رجل فقه ، وعده المقدسي كذلك من أهل الحديث لا من الفقهاء ، ولم يذكره ابن قتيبة فى معارفه فى عداد الفقهاء ، واقتصر ابن عبد البر على ذكر مالك والشافعي وابي حنيفة . والحق أن المذهب الحنبلي أقل المذاهب انتشاراً وقد عدَّ متبعوه هذه القلة فخراً . نعم ظهرت عظمته ببغداد إذ كان متبعوه يحتفظون فيما بينهم باتحاد وثيق حيث تكون المصلحة هناك ، وقد أصبحوا في زمن مّاولهم قوة استطاعوا بها ان يقلقوا بال الحكومة ، وتظاهروا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولكنهم تستروا بذلك فكانت صولتهم عظيمة واوقعوا فى سائر المذاهب

التي تخالفهم ما تشتهيه أنفسهم من التنكيل والأذى ، وقضت الحكومة على تلك الحركات الغير منظمة وضيقوا دائرة اتساع دعوتهم ولم ينل المذهب الحنبلي قوة أنصار ورجال دعوة إلا في البلاد النجدية فقد ساعده الزمن وكتب له البقاء على يد محمد بن عبد الوهاب مؤسس المذهب الوهابي وان كان مذهب أحمد وشهرته اندكت الى جانب شهرة الوهابي ومذهبه ولا ينكر مالابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية من النضل في انتشار المذهب ونشاطه وهما فى الحقيقة ابطال دعوته وعنهم أخذ ابن الوهاب تعاليم مذهبه الجديد .

— ٥ —

وبهذه المغريات وعوامل الترغيب التي اتخذها اولئك الامراء وذوي النفوذ والسلطة أخذت هذه المذاهب بين العامة فى الصيت والشهرة ما جعلهم متزاحمين على اعتناقها بدون تمييز وحرية في الرأي وضلت حقيقتها غامضة إذ لا يمكن استكشافها . فالخضوع للسلطان أمر لا مفر منه وكان عدم تدخل الحكومة في مثل هذه الامور أعود على الامة وأصلح لدينها ودنياها فتدخلها فيه جر الامة الى منافسات وعصبية أعقبتها فتن ذهبت ضحيتها نفوس .

وأدت الى فرقة وتباعد مما كدر صفو الامة ورماها بالشتات بعد الألفة وبالعداء بعد الأخوة . وعلى هذا المنوال أستطيع أن أسير في التدليل على ما في هذا الالتزام من النقص وقد سارت عليه جماهير من المسلمين بدون دليل ولا برهان ، فوقوف التشريع الاسلامي وانحصاره باقوال الأربعة إنما هو تحجير للفكر وجمود للتشريع لأغراض تعود على الطبقة الحاكمة الذين يريدون أن يطبعوا أعمالهم بطابع الدين وماهم من الدين في شيء ، على ان الأئمة الأربعة

أنفسهم لا يعرفون هذا و يفتون بضده، فاقوالهم تدل على عدم الالتزام بقول أحد. هذا مالك بن أنس يقول : « إنما أنا بشر اصيب واخطئ. فاعرضوا قولي على الكتاب والسنة » ويقول ابو حنيفة : « هذا رأيي وهذا أحسن مارأيت فمن جاء برأي خلافه قبلناه » ويقول الشافعي : « اذا صح الحديث بخلاف قولي فاضربوا بقولي الحائط » ويقول أحمد : « من ضيق علم الرجل ان يقلد دينه الرجال » وقال : لا تقلد دينك الرجال فانهم لم يسلموا من أن يغلطوا .

فلماذا لا تأخذ الأمة باقوالهم هــــذه ويخالفونهم الى اتباع شيء كانوا ينهون عنه وهل ذلك إلا لاتباع اولئك القوم الذين ساروا باضطهاد الامة في الطرق الغير المشروعة لرغبات في نفوسهم تعود لصالح أنفسهم وهم مخادعون بما أبدوه للامة من مناصرة العلم والعلماء .

وبهذه العوامل استطاعت المذاهب أن تخطو الى ساحة الرقي واكتسبت قيمتها المعنوية وبقيت موضع عناية الخلفاء والولاة المتعاقبين ، وان عناية السلطة تكسب الشيء لونا من الاعتبار والعظمة حسب نظام السياسة لا النظام الطبيعي . فعوامل الترغيب وأداة القوة جعلتها تأخذ بالتوسع شيئاً فشيئاً ، ولولا ذلك لما استطاعت على البقاء حتى تصبح قادرة على مزاحمة من سواها ، و بذلك انتشرت فى القرن الأول على ايدي القضاة كما مر ذكره . ثم كان بعد هذا ما هو أدهى وأمر فانه في سنة ٦٤٥ هـ أحضر مدرسوا المدرســة المستنصرية الى دار الوزير . فطالب منهم ألا يذكروا شيئاً من تصانيفهم وألا يلزموا الفقهاء بحفظ شيء منها ، بل يذكروا كلام الشيوخ السابقين تأدبا معهم ، وتبركا بهم ، فاجاب جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي الحنبلي بالسمع والطاعة . وقال سراج الدين عبدالله الشرمساحي المالكي : ليس لاصحابنا تعليقة ، اما النقط من مسائل الخلاف

فما ارتبه . وقال شهاب الدين الزنجاني الشافعي وأقضى القضاة عبد الرحمن بن اللمغاني الحنفي : إن المشايخ كانوا رجالا . ونحن رجال ، فاوصل الوزير ما اجابوا به الى المعتصم ، وكان قد تولى الملك بعد أبيه المستنصر فاحضرهم أمامه ، وطلب منهم جميعاً ان يلتزموا ذكر كلام المشايخ ويحترموهم ، فاجابوه جميعاً بالسمع والطاعة ورجع مدرسا الشافعية والحنفية عن اعتدادهما بانفسهما .

وقال المقريزي : فلما كانت سلطنة الظاهر بيبرس البندقداري ولي بمصر أربعة قضاة وهم شافعي ومالكي وحنفي وحنبلي فاستمر ذلك من سنة ٦٦٥ حتى لم يبق في مجموع أمصار الاسلام مذهب يعرف من مذاهب أهل الاسلام سوى هذه المذاهب الأربعة وعملت لأهلها المدارس والخوانك والزوايا والربط في سائر ممالك الاسلام وعودي من تمذهب بغيرها وانكر عليه ولم يول قاض ولا قبلت شهادة أحد ولا قدم للخطابة والامامة والتدريس أحد مالم يكن مقلداً لأحد هذه المذاهب ، وأفتى فقهاء الأمصار في طول هذه المدة بوجوب اتباع هذه المذاهب وتحريم ماعداها . ولنصغ الى حديث الاستاذ عبد المتعال الصعيدي أحد علماء الأزهر في كتابه ميدان الاجتهاد يقول :

« فلما رأى بنو العباس أن وسائلهم في القهر لا تجديهم ، أرادوا أن يأتوا الناس من باب التعليم ، فيتولوا أمره بانفسهم ، ليربوا العلماء على الخضوع لهم . ويملكوهم بالمال من أول أمرهم ، وكانت الامة هي التي تتولى أمر التعليم بعيداً عن الحكومة ، كما تتولاه الآن الأمم الراقية فى اوربا وامريكا فيقوم في المساجد حراً لا يخضع لحكم ملك أو أمير ، ويتربى العلماء بين جدرانها أحراراً لا يراقبون إلا الله في عملهم ولا يتأثرون بهوى حاكم ، ولا تلين قناتهم لطاغية أو ظالم ، فاراد بنو العباس أن يقضوا على هذا التقليد الكريم ، ويتولوا

بانفسهم أمر التعليم بين المسلمين فاخذوا ينشئون له المدارس بدل المساجد ، ويحبسون عليها من الأوقاف الكثيرة ما يرغب العلماء فيها ، ويجعل لهم سلطانا عليهم ، وأخذت الممالك التابعة لهم تأخذ بهذا في سنتهم حتى صار التعليم خاضعاً للحكومات بعد أن كان أمره بيد الرعية ، وكان لهذا أثره فى نفوس العلماء ، فنزلوا على ارادة الملوك ولم تقو نفوسهم على مخالفتهم فى رأيهم ، أو توجيه شيء من النصح اليهم ، وكانت المدرسة البيهقية أول ما انشئت من تلك المدارس ، وهي منسوبة الى البيهقي المتوفى سنة ٤٥٠ ثم انشئت بعدها المدرسة السعيدية بنيسابور ، انشأها الامير نصر بن سبكتكين ، ثم انشئت بعدها النظامية ببغداد أنشأها الوزير نظام الملك سنة ٤٥٩ وقد احتفل بافتتاحها احتفالا عظيما .

الى أن يقول في حديثه « ثم جاء صلاح الدين الايوبي لمصر ، فقام بانشاء المدارس فيها للتعليم ، وانشأ المدرسة الناصرية لتعليم مذهب الشافعي سنة ٥٦٦ ثم انشأ المدرسة الصلاحية بالقرافة الصغرى سنة ٥٧٢ بجوار الامام الشافعي وجعل لناظرها أربعين ديناراً فى كل شهر ، ورتب له فى كل يوم ستين رطلا من الخبز وراويتين من ماء النيل ثم انشأ مدرسة أخرى بجوار المشهد الحسيني وجعل دار العباس العبيدي مدرسة للحنفية .

وكان صلاح الدين يقصد من هذه المدارس كلها أحياء مذهب أهل السنة والقضاء على مذهب الشيعة الفاطميين الذين كانوا يملكون مصر قبله ، ورغّب الناس فيها بالأوقاف التي حبسها عليها ، فرغبوا فيها وأخذوا في تقليدها وهجروا ماعداها من المذاهب .

وقدجاء المستنصر العباسي (١) بعد هذا فانشأ في بغداد المدرسة المستنصرية سنة ٦٢٥ ، وانفق فى بنائها أموالا لا تحصر حتى تم بناؤها سنة ٦٣١ ، فاحتفل بافتتاحها احتفالا عظيما حضره بنفسه وحضر معه نائب الوزارة وكذلك الولاة والحجاب والقضاة والمدرسون والفقهاء وشيوخ الربط والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء وجماعة من أعيان التجار الغرباء ، واختير لكل مذهب من المدارس وغيرها اثنان وستون نفساً ورتب لها مدرسين ونائبي تدريس وكان المدرسان محي الدين محمد بن يحيي بن فضلان الشافعي ورشيد الدين عمر بن محمد الفرغاني الحنفي ، وكانا نائبا التدريس جمال الدين عبد الرحمن بن يوسف بن الجوزي وأبا الحسن عليا المغربي ، وجعل لها ستة عشر معيداً . أربعة لكل مذهب ، وجعل ربع القبلة الأيمن للشافعية ، وجعل ربع القبلة الأيسر للحنفية ، وجعل الربع الذي على يمين الداخل للحنابلة ، وجعل الربع الذي على يساره للمالكية ، وقد شرط المستنصر في وقفه عليها ان يكون عدد فقهائها مأتين وثمانية وأربعين من كل طائفة اثنان وستون بالمشاهرة الوافرة والجراية الدارة ، واللحم الراتب ، الى غير هذا من وسائل الترغيب فى هذه المذاهب .

فاقبل الناس على دراستها واهملوا غيرها من المذاهب التي لم يقدّر لها مثل هذه الاوقاف المغرية » .

---

(١) هو ابو جعفر منصور بن الظاهر ولد سنة ٥٨٨ وبويع له سنة ٦٢٣ وتوفى سنة ٦٤٠ .

خلاصة البحث

ظهر لنا مما سبق أن العامل الأساسي لتكوين الالتزام بمذهب معين ، وعدم الترخص فى إستنباط الاحكام الشرعية إنما هو السلطة الموضوعة ، وأن بقاء هذه المذاهب إنما تكون بتلك الوسائل المشجعة ، حتى كثر أنصارها . ولو قدرت عوامل الانتشار لغير المذاهب الأربعة لبقي لها جمهور يقلدها أيضاً ، ولكانت مقبولة عند من ينكرها ، ولكنها عدمت رعاية السلطة فمحيت من الوجود إذ لا قابلية لها فى ذاتها على البقاء بقوتها الذاتية .

وقد فاز المذهب الحنفي بتشجيع أكثر من غيره ، فهو فى العصر العباسي ترجع الدولة اليه فى مهمات التشريع ، ورآسة القضاء بيد أهل الرأي لم يشاركهم إلا القليل من سائر المذاهب وبعد انقراض الدولة العباسية اعتنق المذهب سلاطين الاتراك عندما أرادوا انطباق إسم الخلافة الاسلامية عليهم ومن شروطها : أن يكون الخليفة قرشياً طبقاً للحديث والحنفية لا يشترطون هذا الشرط وأول من تولى الخلافة الاسلامية من غير قريش السلطان سليم الفاتح وصحح الحنفية هذه الخلافة وحجتهم أن الخليفه يتولى الخلافة بخمسة حقوق (١) حق السيف (٢) حق الانتخاب (٣) حق الوصاية (٤) حماية الحرمين (٥) الاحتفاظ بالامانات وهي المخلفات النبوية المحفوظة فى الاستانة وهم يقولون إن الآثار النبوية سلمت من اغتيال التتر في بغداد فحملها الخليفة العباسي الى القاهرة حتى نقلها السلطان سليم الى القسطنطينية فى صندوق من الفضة وهي البردة النبوية ، وسن من أسنان النبي وشعرات من شعره ونعاله ، وبقية من العلم النبوي وإناء من حديد وجبة الامام

أبي حنيفة ـ١ـ ؛

وبهذا الشكل سارت عوامل انتشار المذاهب مع السياسة جنباً لجنب إذ الرغبة فيها منوطة بالقضاة ورغبة السلطة حتى كثر التحول من مذهب الى مذهب تقربا للسلطان وطلباً لرفده وتحول كثير من الشافعية الى الحنفية لأجل الدنيا وذلك أن الامير يلبغا ابن عبد الله الخاصكي الناصري الامير الكبير صاحب النفوذ والصولة كان يتعصب لمذهب ابي حنيفة ، ويعطي لمن تحول اليه العطاء الجزيل ورتب الجامكيات الزائدة وحاول في آخر عمره أن يجلس الحنفي فوق الشافعي ـ٢ـ .

وانتقل أبو البركات الحنفي الى مذهب الحنبلي فآذاه الحنفية فانتقل الى مذهب الشافعي فقال المؤيد التكريتي في هجائه :

ألا مبلغ عني الوزير رسالة	وإن كان لا تجدي اليه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل	وذلك لما أعوزتك المآكل
وما اخترت رأي الشافعي تديّناً	ولكنما تهوى الذي هو حاصل
وعما قليل أنت لا شك صائر	الى مالك فافهم لما أنا قائل ـ٣ـ

وهذا أبو بكر البغدادي الحنبلي تحوّل شافعياً لأجل الدنيا وولي القضاء ، وكان ابو المظفر يوسف بن قرغلي سبط ابن الجوزي حنبلياً نقله الملك المعظم الى مذهب أبي حنفية ـ٤ـ . وخلاصة القول أن تلك الوسائل المشجعة للمذاهب الأربعة

ـ١ـ التمدن الاسلامي ج ١ س ١٠٩
ـ٢ـ شذرات الذهب ج ٦ س ٢١٣
ـ٣ـ مرآة الجنان ج ٤ س ٢٤
ـ٤ـ شذرات الذهب ج ٥ س ٢٦٧

دعت الناس الى الرغبة فيها والاعراض عما سواها ودعت اكثر الفقهاء الذين لهم أهلية الاستنباط أن يجمدوا على تقليد السلف وتعطيل موهبة الاجتهاد .

قال الشيخ أبو زرعة : قلت مرة لشيخنا البلقني ما يقصر بالشيخ تقي الدين بن السبكي عن رتبة الاجتهاد وقد استكمل الآلة وكيف يقلد ؟ ولم أذكره هو استحياء منه ولما اريد أن أرتب على ذلك .

فسكت عني ، ثم قلت : ماعندي ان الامتناع من ذلك إلا للوظائف التي قررت للفقهاء على المذاهب الأربعة وإن من خرج عن ذلك لم ينله شيء وحرم ولاية القضاء ، وامتنع الناس من استفتائه ونسب الى البدعة فتبسم ووافقني .

وأستطيع أن أقول إن هذا هو الصواب والكل يوافق الشيخ على هذا الرأي وإلا فما هو الداعي لغلق باب الاجتهاد ، وفتحه أعود على الامة واجمع لشملها ؟ وها نحن نقدم بين يدي القارىء بعض أقوال العلماء في عدم الدليل على وجوب التقليد وانه نظام جائر .

فلننتقل الى البحث عن الاجتهاد والتقليد مقتصرين على نقل أقوال بعض السلف ومن المعاصرين ممن تحضرنا كلماتهم الآن وفي ذلك تتجلى حقيقة غلق باب الاجتهاد ، ولأي أمر الزم المسلمون بالجمود .

بين الاجتهاد و التقليد

إنما أنا بشر أصيب وأخطىء فاعرضوا قولي على الكتاب والسنة .

الامام مالك بن انس

إذا صح الحديث بخلاف قولي فاضربوا بقولي الحائط .

الامام الشافعي

هذا رأيي وهذا أحسن ما رأيت فمن جاء برأي غير هـذا قبلناه . حرام على من لم يعرف دليلي ان يفتي بكلامي .

الامام ابو حنيفة

من ضيق علم الرجال أن يقلدوا الرجال،لا تقلد دينك الرجال فانهم لن يسلموا من أن يغلطوا ، وقيل له لم لا تضع لاصحابك كتابا في الفقه أ لأحد كلام مع كلام الله ورسوله ؟

الامام أحمد

لايجوز ترك آية أو خبر صحيح لقول صاحب أو إمام ومن يفعل ذلك فقد ظل ظلالا مبيناً وخرج عن دين الله .

محي الدين ابن العربي

لم يبلغنا أن أحداً من السلف أمر أحداً أن يتقيد بمذهب معين ولو وقع ذلك منهم لوقعوا في الاثم لتفويتهم العمل بكل حديث لم يأخـذ به ذلك المجتهد الذي أمر الخلق باتباعه وحده .والشريعة حقيقة إنما هومجموع ما بأيدي المجتهدين كلهم لا يد مجتهد واحـد ومن أين جاء الوجوب والأئمة كلهم قد تبرأوا من الأمر باتباعهم وقالوا إذا بلغكم حديث فاعملوا به واضربوا بكلامنا الحائط .

الشعراني

سئل الشيخ تقي الدين بن تيمية عن رجل تفقه على مذهب من المذاهب وتبصر فيه واشتغل بعده بالحديث فوجد احاديث صحيحة ، لا يعلم لها ناسخاً ولا مخصصاً ولا معارضاً ، وذلك المذهب فيه ما يخالف تلك الأحاديث فهل له العمل بالمذهب ، أو يجب عليه الرجوع الى العمل بالحديث ومخالفة مذهبه ؟ فاجاب بما هذا نصه :

الحمد لله رب العالمين قد ثبت في الكتاب والسنة والاجماع أن الله افترض على العباد طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ولم يوجب على هذه الامة طاعة أحد بعينه في كل ما أمر به ونهى عنه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان صدّيق الامة وأفضلها بعد نبيها عليه الصلاة والسلام ورضي الله عنه يقول : اطيعوني ما أطعت الله ، فاذا عصيت الله عز وجل فلا طاعة لي عليكم : واتفق كلهم على انه ليس أحد معصوماً في كل ما أمر الله به ونهى عنه إلا رسول الله ولهذا قال غير واحد من الأئمة : كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله عليه الصلاة والسلام . وهؤلاء الأئمة الأربع رحمهم الله تعالى أجمعين قد نهوا الناس عن تقليدهم في كل ما يقولون وذلك هو الواجب ، قال الامام أبو حنيفة : هذا رأي وهذا أحسن ما رأيت فمن جاء برأي خير منه قبلناه ، ولهذا لما اجتمع أفضل أصحابه ابو يوسف بامام دار الهجرة مالك بن انس وسأله عن مسألة الصاع وصدقة الخضراوات ومسألة الاجناس فاخبر مالك بما دلت عليه السنة في ذلك فقال ابو يوسف : رجعت لقولك يا ابا عبد الله ولو رأى صاحبي ما رأيت لرجع كما رجعت ، ومالك رحمه الله كان يقول : انما انا بشر أصيب واخطىء فاعرضوا قولي على الكتاب والسنة أو كلام هذا معناه ، والشافعي رحمه الله كان يقول إذا صح الحديث بخلاف قولي فاضربوا بقولي الحائط ، وإذا رأيت

الحجة موضوعة على طريق قولي -١- تقي الدين بن تيمية

ما انحصر فضل الله على بعض خلقه وقصر فهم هذه الشريعة المطهرة على من تقدم عصره فقد تجرأ على الله عز وجل ثم على شريعته الموضوعة لكل عباده الذين تعبدهم بالكتاب والسنة فاذا كان التعبد بهما مختصاً باهل العصور السابقة ولم يبق لهؤلاء المتأخرين إلا التقليد لمن تقدمهم ولا يتمكنون من معرفة كتاب الله وسنة رسوله فما الدليل على هذه التفرقة الباطلة والمقالة الزائفة وهل النسخ إلا هذا؟ سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم . حسن خان

ليس على الانسان التزام مذهب معين وانه يجوز له العمل بما يخالف ماعمله على مذهبه مقلداً فيه غير إمامه مستجمعاً شروطه ، ويعمل بامرين متضادين فى حادثتين لا تعلق بواحدة منهما بالأخرى وليس له إبطال عين مافعله بتقليد إمام آخر لأن إمضاء الفعل كامضاء القاضي لا ينقض -٢- .

ابن عابدين

إعلم أن المقلد على غير ثقة فيما قلد فيه وفي التقليد إبطال منفعة العقل لانه إنما خلق للتدبر ، وقبيح بمن اعطي شمعة يستضيء بها أن يطفئها ويمشي في الظلمة، واعلم أن عموم اصحاب المذاهب يعظم فى قلوبهم الشخص فيتبعون قوله من غير تدبر بما قال وهذا عين الضلال لأن النظر ينبغي ان يكون إلى القول لا إلى القائل -٣-

جمال الدين بن الجوزي

إعلم انه لم يكلف الله احداً من عباده بأن يكون حنفياً أو مالكياً

-١- جلاء العينين للالوسى ص ١٠٧ .

-٢- نفس المصدر .

-٣- تلبيس إبليس لابن الجوزى ص ٨١

أو شافعياً ، أو حنبلياً ، بل اوجب عليهم الايمان بما بعث به محمداً (ص) والعمل بشريعته ـ١ـ .

عبد العظيم المكي

ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف احدهم على ضعف قول إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعاً وهو مع ذلك مقلد فيه ، ويترك من شهد الكتاب والسنة والاقيسة الصحيحة لمذهبهم ، جموداً على تقليد امامه ، بل يتحيل لظاهر الكتاب والسنة ويتأولهما بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالا عن مقلده ولم يزل يسألون من اتفق من العلماء الى أن ظهرت هذه المذاهب ومتعصبوها من المقلدين فان أحدهم يتبع إمامه مع بُعد مذهبه عن الأدلة مقلداً فيما قال كأنه نبي ارسل ، وهذا نأي عن الحق وبُعد عن الصواب لا يرضى به أحد من أولي الألباب ـ٢ـ

عز الدين عبد السلام

ينبغي لمن اشتغل بالفقه أن لا يقتصر على إمام ويعتقد فى كل مسألة صحة ما كان أقرب الى دلالة الكتاب والسنة المحكمة وذلك سهل عليه وليتجنب التعصب والنظر في طرائق الخلاف فانها مضيعة للزمان واصفوه مكدرة ، فقد صح عن الشافعي أنه نهى عن تقليده وتقليد غيره ـ٣ـ .

الشيخ أبو شامة

إن قفل باب الاجتهاد معناه الضربة القاضية على حرية الفكر بل على الاسلام الذي قلنا إنه جاء للناس كافة ليساير مختلف العصور والشعوب . والآن

ـ٢ـ رسالة القول السديد ص ٣

ـ٣ـ رسالة الانصاف .

ـ٤ـ انظر دائرة المعارف لفريد وجدى ج ٣ ص ٢٤٨

بعد سير الف سنة سار خلالها المسلمون جامدين -١-

محمد علي مؤلف كتاب الدين الاسلامي

وإني استطيع أن أحكم بعد هذا بأن منع الاجتهاد قد حصل بطرق ظالمة وبوسائل القهر والاغراء بالمال ، ولاشك أن هذه الوسائل لو قدرت بغير المذاهب الأربعة التي نقلدها الآن لبقي لها جمهور يقلدها أيضاً ولكانت الآن مقبولة عند من ينكرها ، فنحن إذاً في حل من التقييد بهذه المذاهب الأربعة التي فرضت علينا بتلك الوسائل الفاسدة ، وفي حل من العود الى الاجتهاد في أحكام ديننا لأن منعه لم يكن إلا بطريق القهر ، والاسلام لا يرضى إلا بما يحصل بطريق الرضى والشورى بين المسلمين كما قال تعالى في الآية (٢٨) من سورة الشورى « وأمرهم شورى بينهم » -٢- .

عبد المتعال الصعيدي أحد علماء الأزهر

رأى بعض المقلدة لمذهب إمام يزعمون أن إمامهم هو الشريعة بحيث يأنفون أن تنسب الى أحد من العلماء فضيلة دون إمامهم حتى اذا جاءهم من بلغ درجة الاجتهاد وتكلم في المسائل ولم يرتبط إلى إمامهم رموه بالنكير وفوّقوا اليه سهام النقد وعدوه من الخارجين عن الجادة والمفارقين للجماعة من غير استدلال منهم بدليل بل بمجرد الاعتبار العامي، ولقد لقي بقيٌّ بن مخلد حين دخل الاندلس آتياً من المشرق من هذا الصنف الأمرّين حتى أصاروه مهجور الفناء مهتضم الجانب لأنه جاءهم من العلم ، الى أن يقول وكان هؤلاء المقلدة قد صمموا على مذهب

-١- مجلة المسلم .

-٢- ميدان الاجتهاد ص ١٤

مالك بحيث أنكروا ماعداه وهـــذا تحكيم الرجال على الرجال والغلو في محبة المذاهب -١- .

الشاطبي

بأي نص سد باب الاجتهاد أو أي إمام قال : لا ينبغي لأحد من المسلمين بعدي أن يجتهدوا ليتفقهوا فى الدين ، أو ان يهتدى بهدي القرآن وصحيح الحديث ، أو أن يجد ويجتهد بتوسيع مفهومه ، والاستنتاج على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجيات الزمان وأحكامه ولا ينافي جوهر النص إن الله بعث محمداً رسولا بلسان قومه العربي ليعلمهم ما يريد إفهامهم ، وليفهموا منه ما يقولهم .

ولا ارتياب بأنه لو فسح في أجل أبي حنيفـــة ومالك والشافعي وأحمد وعاشوا إلى اليوم لداموا مجتهدين مجدين يستنبطون لكل قضية حكما من القرآن والحديث ، وكلما زاد تعمقهم زادوا فهما وتدقيقاً ، نعم أن اولئك الفحول من الأئمة ورجال الأمة اجتهدوا وأحصنوا فجزاهم الله خير الجزاء ، ولكن لا يصح أن نعتقد انهم احاطوا بكل أسرار القرآن وتمكنوا من تدوينها في كتبهم -١- .

جمال الدين الافغاني

منع الاجتهاد هو سر تأخر المسلمين . وهذا هو الباب المرن الذي عندما قفل تأخر المسلمون بقدر ما تقدم العالم ، فاضحى ما وضعه السابقون لا يمكن ان يغير ويبدل لأنه لاعتبارات سياسية .

منع الولاة والسلاطين الاجتهاد حتى يحفظوا ملكهم ويطمئنوا الى أنه لن يعارضهم معارض واذا ما عارضهم أحد - لأنه لا تخلو أمة من الامم إلا وفيها المصلح النزيه ، والزعيم الذي لا يخشى في الحق لومة لائم فلن يسمع قوله لأن

-١- الاعتصام ج ٣ س ٢٥٩ .

-٢- خاطرات جمال الدين س ١٧٧

باب الاجتهاد قد اغلق.لهذا جمد التشريع الاسلامي الآن، وما التشريع إلا روح الجماعة وحياة الامة وإني ارجع الفتنة الشعواء، التي حصلت فى عهد الخليفة عثمان والتي كانت سبباً في وقف الفتح الاسلامي حيث تحولت فى عهده الحرب الخارجية الى حرب داخلية ــ ارجع ذلك ــ الى ان عثمان كان من المحافظين ، وقد شرط ذلك على نفسه ، عندما وافق عبد الرحمن بن عوف على : « لزوم الاقتداء بالشيخين في كل ما يعني دون اجتهاد » عند انتخابه خليفة ولم يوافق الامام علي على ذلك حينئذ قائلا : إن الزمن قد تغير فكان سبب تولي عثمان الخلافة هو سبب سقوطه ــ١ــ .

الدكتور عبد الدائم البقري الانصاري

كم بين دفتي التاريخ من احزاب سياسية استحالت الى مذاهب دينية ، رب مغفل أرعن يحقد على اخيه لاختلاف مذهبهما اختلافا فى الفروع منشؤه الاجتهاد ، ولا يذكر ان كلمة التوحيد التي تجمعه واخاه على خطر عظيم ، وان حقده هذا يزيده خطراً .

الاجتهاد مجلبة اليسر ، واليسر من اكبر مقاصد الشارع وأبدع حكم التشريع بالاجتهاد يتلاطم موج الرأي فينفذ جوهر الحقيقة على الساحل ، الحوادث لا تتناهى والعصور محدثات . فاذا جمدنا على ما قيل فما حيلتنا فيما يعرض من ذلك القبيل ؟ سد باب الاجتهاد اجتهاد فقل للقائل به إنك قائل غير ما تفعل ــ٢ــ

العلامة العبيدي

وقد الفت فى هذا الباب رسائل عدة لكبار العلماء ، وكلهم يندون في

ــ١ــ الفلسفة السياسية للاسلام ص ٢١

ــ٢ــ النواة فى حقل الحياة ص ١٣٦

جمود التشريع على المذاهب الأربعة ويطلبون حل تلك العقدة التي عقدها ولاة أمر لا يطلبون بذلك إلا صالح الدولة ، وقد أوضح العلماء أسباب هـذا الجمود كالغزالي ، والعز بن عبد السلام وغيرهما من الأئمة الذين لا تأخذهم فى الحق لومة لائم ، فمنها بالنسبة الى بعضهم :

المباراة والماراة ، وحب الظهور ، وما يتعلق بذلك ، ومنهـا المنافع ، والمرافق في القضاء ، والافتاء ، والأوقاف بالنسبة الى آخرين ، ومنها الثقـة والاطمئنـان بالتربية العلمية على المذهب والاقتصار عليه في التعليم والافتاء . ومن طبع الانسان أن ما يعتاد عليه زمناً طويلا يملك عليه امره ، ويؤثر في نفسه تأثيراً يصرفها عن كل ماعداه ، إلا أصحاب العقول الكبيرة والنفوس العالية الذين تكون الحقيقة ضالتهم والصواب وجهتهم -١- .

— ٢ —

أماالذين يحاولون الجمود ويلزمون بالتقليد فانهم عجزوا عن الوصول الى رتبة الاجتهاد واقتنعوا بعناية السلطان على ماهم فيه من النقص، فلا يروق لهم بلوغ أحد رتبة الاجتهاد، و نسبوا مدعيه الى الجنون كما ذهب اليه الشيخ داوود النقشبندي ويرى ان مدعي الاجتهاد ضال مبتدع -٢- .

ويقول الشيخ أحمد بن عبد الرحيم : في تقسيم طبقات المجتهدين : الطبقة الثالثة من نشأ من المسلمين من رأس المأة الرابعة ويجب على العامي تقليد المجتهد المنتسب لاغير ، « أي لاحد المذاهب الاربعة » لامتناع وجود المستقل من هذا التأريخ حتى اليوم ، ثم اورد على نفسه وأجاب واهم شيء يعتمد عليه في أدلته ،

-١- انظر الوحدة الاسلامية للسيد محمد رشيد رضا ص ١١٢

-٢- انظر كتاب أشد الجهاد للشيخ داوود النقشبندي .

قوله : انه اجتمعت الامة على ان يعتمدوا على السلف في معرفة الشريعة فلا بد لنا من الرجوع اليهم ، ولا يرجع إلا الى المروي عن السلف بسند صحيح مدوّن فى الكتب المشهورة مع بيان الارجح من دلالتها وتخصيص عمومها أو تقييدها والجمع بين مختلفاتها ، ولا توجد هذه الخصوصيات إلا في المذاهب الأربعة ، وليس مذهب بهذه الصفة إلا الامامية ، والزيدية وهم (أهل البدعة) -١- لا يجوز الاعتماد على اقاويلهم فتعين الأخذ باحد المذاهب الاربعة .

هذا أهم ماعنده من الادلة. وذهب بعضهم الى القول بعصمة الاربعة مستدلا بعصمة النبي وهم ورثته فهم معصومون من الخطأ واذا كانوا كذلك فيجب الرجوع اليهم فحسب .

ولا حاجة بنا الى اطالة نقل اقوال المانعين لملكة الاجتهاد لعلماء الامة بعد المذاهب الاربعة ، لانها حجج لقضية تبتني على عدم لياقة اى احد بعدهم لهذه الرتبة ، وان مدعيها ضال مضل بل ممن يريد فى الارض الفساد ، ويجب إقامة الحد عليه ، ومن ادعى من الامة تلك المنزلة أو كانت له لياقة استنباط الاحكام الشرعية شنعوا عليه ، ورموه بالتكبير . فهذا العلامة جلال الدين السيوطي ادعى رتبة الاجتهاد المطلق قام عليه علماء عصره فرموه بالتكبير ، ووقعوا فيه ، وكذلك انكروا على كل من ادعى ذلك . والواقع ان في القرون المتأخرة رجالا برهنوا بمؤلفاتهم عن تلك الملكة التي ادعي استحالتها عليهم ، حتى فضلوا بعضهم على رؤساء المذاهب . فهذا ابو حامد احمد بن محمد الاسفرايني فضلوه على الشافعي ، وكثير منهم كانوا بمنزلة من العلم لا يستبعد اتصافهم بتلك الملكة .

كالشيخ عبد العزيز بن سلام المتوفى سنة ٥٧٨

-١- رسالة الانصاف للدهلوى .

والشيخ عبد الكريم بن محمد بن عبدالكريم بن الفضل بن الحسن القزويني المتوفى سنة ٦٢٣ .

واسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني المتوفى سنة ٤٤٩ .

ومحمد بن اسحاق صدر الدين القوني المتوفى سنة ٦٧٣ .

وابراهيم بن محمد بن ابراهيم الاسفرائني المتوفى سنة ٤١٨ .

وناهيك ما للقفال ، وامام الحرمين الجويني ، والصيدلاني ، والسبخي والسرخسي ، والجصاص ، والسيوطي من منزلة في العلم وموهبـــة في استنباط الأحكام ولكنهم الجئوا من قبل العامة الذين رأوا ادعاء الاجتهاد ضلالة ، بل يتلبس مدعيها بتهمة التشيع لأنهم يقولون بذلك -١-

وكان ابو الحسن الداركي أحد المجتهدين في عصره اذا سئل عن فتوى يجيب بعد تفكر ، فربما كانت فتواه مخالفة لمذهب الشافعي وأبي حنيفة فيقال له في ذلك على طريق الانكار ، فيقول : ويلكم روى فلان عن فلان عن رسول الله (ص) كذا وكذا ، فلاخذ به أولى من الأخذ بمذهب الشافعي ومخالفتهما أسهل من مخالفة الحديث .

ولقد لقي بقيّ بن مخلد من الأذى وشدة الانكار لدعوى الاجتهاد ماجعله مهجور الفناء مهتضم الجانب وكثير من أمثاله ، كابن تيمية وابن قيم الجوزية وغيرهم .

ولست أدري ما هذه الاستحالة وعدم الامكان من حصول درجـــة الاجتهاد والحكم على الرجال بالقصور ، والنقص وحصر الكمال على عدد معين بدون دليل ؟ ونرى من الخير تعريف الاجتهاد والتقليد عندهم اجمالا لنعرف

-١- انظر اشد الجهاد لمدعي الاجتهاد ص ٢٥

مدى تحجير الافكار ووقوف العقل عن ادراك ذلك .

﴿ الاجتهاد ﴾ : وهو لغة بذل الوسع في ما فيه كلفة مأخوذ ، كما نقل ابن ابي زرعـــة عن الماوردي من جهاد النفس وكدها فى طلب المراد ، وفي الاصطلاح : على ما في جمع الجوامع استفراغ الفقيه الوسع لتحصيل ظن بحكم ، والفقيه والمجتهد لفظان مترادفان وهوالبالغ العاقل أي ذو ملكة يدرك بها العلوم ، وهذه الملكة العقل . قال ابو اسحاق : ومن كان موصوفا بالبلادة والعجز عن التصرف فليس من أهل الاجتهاد ، وفي انكاره للقياس خلاف وان يكون عارفا بالدليل العقلي وهو البراءة الاصلية ، وان يكون عارفا بلغة العرب وبالعربية وعلم النحو اعرابا وتصريفاً ، وباصول الفقه ليقوى على معرفـــة الادلة وكيفية الاستنباط ، وبالبلاغة ليتمكن من الاستنباط بحيث يميز العبارة الصحيحة من الفاسدة . وأن يكون عارفا بالكتاب والسنة ولا يعتبر العلم بجميعها ولا حفظها ، قال العلامة السبكي : المجتهد من هـذه العلوم من له ملكة واحاطة بمعظم قواعد الشرع ، ومارسها بحيث اكتسب قوة يفهم بها مقصود الشارع ، ويعتبر على ما قيل كونه خبيراً بمواقع الاجماع كيلا يخرقه والناسخ والمنسوخ ، وأسباب النزول وشرط المتواتر والآحاد ، والصحيح والضعيف ، وحال المرويات وسير الصحابة ، ولا يشترط فيه الكلام ، وتفاريع الفقه ، والذكورة ، والحرية ، وكذا العدالة على الأصح .

هذه هي شروط المجتهدعندهم،وأنت لو نظرت الى الواقع لم تجد سبباً لمنعه من أجل قصور عن ادراكه لمن أراده ، وكم من العلماء من عرفنا عنه تمام المعرفة لهذه العلوم وزيادة ولكن المانع شيء آخر .

﴿والتقليد﴾ هوأخذ قول الغير من غير معرفة دليله ، قال ابن ابي زرعة فى

شرح الجوامع : وقد اختلف العلماء فى تقليد المفضول من المجتهدين مع التمكن من تقليد الفاضل على مذاهب ، أحدها وهو المشهور جوازه وقد كانوا يسألون الصحابة مع وجود أفاضلهم ، والثاني : منعه ، وبه قال الامام احمد وابن سريج ، واختاره القاضي حسين وغيره ، والثالث يجوز لمن يعتقده فاضلا ، أو مساويا لغيره فان اعتقده دون غيره امتنع استفتاؤه ، وكذا اختلفوا فى تجويز تقليد الميت على أقوال أحدها : جوازه وبه قال الجمهور ، وعبر عنه الشافعي بقوله : المذاهب لا تموت بموت أربابها ،والثاني : منعه ، أي منع تقليد الميت مطلقاً ، وعزاه الامام الغزالي لاجماع الاصوليين ، واختاره الامام فخر الدين ، الثالث : يجوز مع فقد حي ولا يجوز مع وجوده ، انتهى ملخصاً . وقال الشيخ محي الدين في الباب الثامن والثمانين من الفتوحات المكية : والتقليد فى دين الله لا يجوز عندنا لا تقليد حي ولا ميت ، انتهى فتدبر . وقال ابن عابدين الشامي : انه يجوز تقليد المفضول مع وجود الأفضل وبه قالت الحنفية والمالكية والشافعية واكثر الحنابلة ، وعن أحمد وطائفة كثيرة من الفقهاء : لا يجوز .

بين المذاهب

— ١ —

كان النزاع الحاصل بين المسلمين إنما هو نزاع علمي ، واختلاف لا يتعدى حدود القول في النقض لما ينهجه الطرف الآخر ، وسرت الامور على هذا المنوال ولكن حركة الانشقاق تتسع وروح الاختلاف تسري فى المجتمع بسرعة لقوة الدافع السياسي الذي يحاول ان لا تتفق الامة على رأي واحد فهو يعمل على احياء العصبية « إذ لا حياة للنظام الملكي إلا بها » -١- ومضى عصر أئمة المذاهب بعد ان خدموا الامة ونشروا العلم ووسعوا دائرة الفكر وجاء دور اتباعهم فشغل كل بمذهبه الذي يرتضيه وتأصلت روح الخصومة وانحاز كل الى جهة بدون التفات الى ماوراء هذا التحيز من خطر على العلم فى ضياع حقيقته وسلب منافعه التي أراد الاسلام ان تسير الأمة على ضوء تعاليمه القيمة لاكتساب الحرية ونيل السعادة ، ولم يصل لهذا الحد وقوف على مذهب ، ولا تحديد من قبل السلطة لواحد معين لا غير ، نعم كل تلك المذاهب كان يعمل بها بدون مؤاخذه . يقول الشاه ولي الدهلوي -٢-

اعلم ان الناس كانوا فى المأة الاولى والثانية غير مجتمعين على التقليد في مذهب واحد بعينه ، بل كان الناس على درجتين : العلماء والعامة ، وكانوا في المسائل الاجماعية التي لا خلاف فيها بين المسلمين أو بين جمهور المجتهدين لا يقلدون إلا صاحب الشرع ، وكانوا يتعلمون صفة الوضوء والغسل واحكام الصلاة ، والزكاة ونحو ذلك من آبائهم ، أو معلمي بلادهم فيمشون على ذلك ، واذا وقعت

-١- فلسفة السياسة الاسلام ص ٢١ نقلا عن ابن خلدون .

-٢- رسالة الانصاف ص ٨ .

لهم واقعة نادرة استفتوا فيها أي مفت وجدوا من غير تعيين مذهب، واما العلماء فكانوا على مرتبتين : منهم من امعن فى تتبع الكتاب والسنة والآثار حتى حصل له بالقوة القريبة من الفعل ملكة تؤهله لفتيا الناس يجيبهم في الوقائع غالبا بحيث يكون جوابه اكثر مما يتوقف فيه ويخص باسم المجتهد . وهذا الاستعداد يحصل تارة باستفراغ الجهد في جميع الروايات فانه ورد كثير من الاحكام في الأحاديث وكثير منها في آثار الصحابة والتابعين .

ثم بعد هذه القرون كان ناس آخرون ، ذهبوا يميناً وشمالا وحدث فيهم امور منها ، الجدل والخلاف في علم الفقه وتفصيله ، على ماذكره الغزالي (١) اذ لما انقرض عهد الخلفاء الراشدين أفضت الخلافة الى قوم تولوها بغير استحقاق ، ولا استقلال بعلم الفتاوى والاحكام فاضطروا الى الاستعانة بالفقهاء والى استصحابهم في جميع أحوالهم ، وكان بقيّ من العلماء من الطراز الأول ، فكانوا اذا طلبوا هربوا واعرضوا فرأى أهل تلك الأعصار ـ غير العلماء ـ اقبال الأئمة عليهم مع اعراضهم فاشتروا طلب العلم توصلا الى نيل العز فاصبح الفقهاء بعد ان كانوا مطلوبين طالبين ، وبعد أن كانوا أعزة بالاعراض عن السلاطين اذلة بالاقبال عليهم ، إلا من وفقه الله ، وقد كان من قبلهم قد صنف ناس في علم الكلام ، واكثروا القال والقيل والايراد والجواب وتمهيد طرق الجدال وقع ذلك منهم بموقع من قبل ان كان الصدور والملوك من مالت نفسه الى المناظرة في الفقه من

---

(١) هو محمد بن محمد الغزالى نسبة الى غزالة قرية من قرى طوس ، الملقب حجة الاسلام صاحب كتاب احياء العلوم الذى نال شهرة عظيمة إلا انه أورد فيه خمسمائة حديث مرسل ليس لها طريق ولم يروها أحد ولم يخرجها الحفاظ وله مؤلفات كثيرة ومنزلته العلمية أشهر من أن تذكر ولد فى سنة ٤٥٠ وتوفى سنة ٥٠٥ ودفن بالطابران فى طوس وكان فى عداد الشافعية إلا أنه مجتهد .

مذهب الشافعي وأبي حنيفة ، فترك الناس الكلام وفنون العلم واقبلوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وابي حنيفة على الخصوص وتساهلوا في الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد بن حنبل وغيرهم ، وزعموا ان غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذهب وتمهيد اصول الفتاوى وأكثروا فيها التصانيف وهم مستمرون عليه الى الآن . ولسنا ندري ما الذي قدره الله تعالى فيما بعده من الأعصار ؟ اه .

ويعطينا الخطابي (١) في كتابه معالم السنن صورةً عن الخلاف الذي حصل بعد المأة الثالثة بين فقهاء المسلمين ومتبعي المذاهب يقول :

رأيت أهل زماننا انقسموا الى فرقتين . أصحاب حديث وأثر وأهل فقه ونظر ، ووجدت هاتين الفرقتين اخوانا متهاجرين .

أما أهل الحديث والأثر فان الاكثر منهم انما كدهم الروايات وجمع الطرق ، وطلب الغريب والشاذ من الحديث الذي أكثره موضوع أو مقلوب، لا يراعون المتون ولا يتفهمون المعاني ، وربما عابوا الفقهاء وتناولوهم بالطعن وادعوا عليهم مخالفة السنن .

واما الطبقة الأخرى وهم أهل الفقه والنظر ، فان اكثرهم لا يعرجون من الحديث إلا على اقله ؛ ولا يكادون يميزون صحيحه من سقيمه ، اذا وافق مذاهبهم التي ينتحلونها ووافق آراءهم التي يعتقدونها ، وقد اصطلحوا على مواضعة بينهم

(١) هو الشيخ حمد (بفتح الحاء وسكون الميم) بن محمد بن الخطاب الخطابي البستي قال السمعاني : كان الخطابي حجة صدوقا رحل الى العراق والحجاز وجال في خراسان وخرج الى ما وراء النهر . وقال السبكي في طبقات الشافعية : كان اماماً في الفقه والحديث واللغة ، وقال الذهبي : كان ثقة من اوعية العلم وقال اليهنسي : انه من الأعلام المجتهدين في قواعد الأحكام توفي سنة ٣٨٨ .

في قبول الخبر الضعيف والحديث المنقطع اذا كان ذلك ، قد اشتهر عندهم وتعاورته الالسن فيما بينهم من غير تثبت فيه ، أو يقين علم به ، ولو حكي لهم عن واحد من رؤساء مذاهبهم وزعماء نحلهم قول يقوله باجتهاده من قبل نفسه طلبوا فيه الثقة واستبرؤا له العدة ، فتجد أصحاب مالك لا يعتمدون فى مذهبه إلا على ما كان من رواية ابن القاسم واشهب . فاذا جاءت رواية عبد الله بن الحكم واضرابه لم يكن عندهم طائلا وترى أصحاب أبي حنيفة لا يقبلون من الرواية عنه إلا ماحكاه ابو يوسف ومحمد بن الحسن ، فان جاءهم عن الحسن بن زياد اللؤلؤي وذوي روايته قول بخلافه لم يقبلوه ولم يعتمدوه .

وكذلك تجد أصحاب الشافعي ، إنما يعولون في مذهبه على رواية المزني ، والربيع بن سليمان المرادي فاذا جاءت رواية خزيمة والجرمي وأمثالهما لم يلتفتوا اليها ، ولم يعتدوا بها في أقاويله . وعلى هذا عادة كل فرقة من العلماء في أحكام مذاهب أئمتهم وأساتذتهم . فاذا كان هذا دأبهم وكانوا لا يقتنعون فى أمر هذه الفروع والرواية عن هؤلاء الشيوخ إلا بالوثيقة والتثبت فكيف يجوز لهم أن يتساهلوا فى الأمر الأهم ، والخطب الأعظم ، وأن يتواكلوا الرواية والنقل عن إمام الأئمة ورسول رب العزة (ص) الواجب حكمه ، اللازمة طاعته الذي يجب علينا التسليم لحكمه والانقياد لأمره من حيث لا نجد في أنفسنا حرجاً مما قضاه ولا في صدورنا غلا من شيء أبرمه وأمضاه ، ولكن أقواماً عساهم استوعروا طريق الحق واستطابوا الدعة فى ذلك الحظ وأحبوا عجالة النيل فاختصروا طريق العلم واقتصروا على نتف وحروف منتزعة من معاني اصول الفقه سموها عللا وجعلوها شعاراً لأنفسهم في الترسم برسم العلم وأخذوها جنة عند لقاء خصومهم ونصبوها ذريعة للخوض والجدال يتناظرون بها ويتلاطمون عليها وعند التصادر

عنها قد حكم الغالب بالحذق والتبريز ، فهو الفقيه المذكور في عصره والرئيس المعظم في بلده ومصره . انتهى باختصار -١-

— ٢ —

هذه بعض كلمات علماء ذلك العصر أوردناها ليتضح للقارىء سير العلم - في تلك الأدوار - والخلاف الذي أدى به الى الارتباكات التي أحاطت بمفهومه ، وبلغ الحال الى تطور مؤلم أدى بالطعن فى المعتقدات ونتج من وراء ذلك ثورات دموية ذهبت بكثير من النفوس والاموال بشكل يبعث على الأسف الشديد لما حل بالامة من التطاحن بين المذاهب فاصبحوا أعداء متخاصمين ، وترقى الامر الى الطعن فى المعتقدات وعامل بعضهم معاملة الخارجين عن الدين فالحنبلي يقول : « لو كان لي من الأمر شيء لأخذت على الشافعية الجزية » ويقول أبو حامد الطوسي المتوفى سنة ٥٦٧ : « لو كان لي أمر لوضعت على الحنابلة الجزية » -٢-

وان اسباب تلك الفتن التي حلت بالمسلمين كلها تعود لمسايرة بعض العلماء للدولة ، يشايعها ويؤيد وجهة نظرها ، فاغدقت عليه العطاء وبذلك أصبح العلم مسايراً للدولة .

ولو استقل العلم عن مؤثرات السياسة فى تلك العصور لأرغمت الدولة على الخضوع له ولسارت فى موكبه وفي ذلك سعادة الامة ، ولكن حملة العلم بمسايرتهم لولاة الأمر مع ماهم فيه من الانحراف عن الدين فاصبحوا دعامة تستند اليها سلطتهم الجائرة في أهم الامور مما جعل الناس ينظرون الى الاسلام مسلوب

-١- رسالة الانصاف للدهلوي ص ١٧ .
-٢- مرآة الجنان ج ٣ ص ٢٠٧

القوة العادلة عن تنظيم شؤون العالم ، والدين أجل واسمى عن ان يكون مهبآ للاهواء أو مثاراً لاختلاف الآراء أو مجالا لتحزب العلماء . وعلى أي حال فقد اصطدمت الطوائف اصطداماً عنيفاً وخلقت كثيراً من المشاكل التي هي في نهاية التعقيد ولا يمكن حلها ما دام علماء الدولة هم المحور لتلك الامور ومنهم تنبعث تلك الأفكار التي تتحرك بها شعور العامة فيقع من وراء ذلك حوادث مؤلمة .

ونضع صوراً بين يدي القارىء الكريم من صور التطاحن والتشاجر بين المذاهب، مما يدل على كذب دعوى صاحب كتاب التبصير . ليت شعري أخفيت عليه تلك الحوادث التي وقعت بين الحنفية والحنابلة وبين الحنابلة والشافعية يوم قام خطباء الحنفية يلعنون الحنابلة والشوافع على المنابر، والحنابلة يحرقون مسجداً للشافعية بمرو ، وتقع هناك فتنة هائلة ذهب تحت هياجها خلق كثير ، ويعظم الأمر والخلاف بين الحنفية والشافعية في نيسابور ، وتقع فتنة مبعثها التعصب المذهبي فتحرق الاسواق والمدارس ويكثر القتل فى الشافعية فينتصرون بعد ذلك على الحنفية ، ويسرفون في أخذ الثار منهم وذلك في سنة ٥٥٤ هـ ومثلها تقع بين الشافعية والحنابلة وتضطر السلطة الى التدخل فى حسم النزاع بالقوة وذلك في سنة ٧١٦ هـ -١- وكثر القتل وحرق المساكن والاسواق فى اصبهان منشؤه التعصب -٢-

اما في بغداد فان الحنابلة كانوا يخلون بالأمن ويرهجون بغداد ويستظهرون بالعميان على الشافعية الذين كانوا يأوون للمساجد ، فاذا مرّ بهم شافعي المذهب

-١- البداية والنهاية ج ١٤ ص ٧٦ .

-٢- مرآة الجنان ج ٣ ص ٢٤٢ .

أغروا به العميان فيضربونه بعصيهم -١- وكان رئيس الحنابلة وزعيمهم الديني الشيخ البربهاري يتولى اثارة الفتنة وذلك في سنة ٣٢٣ . ولما تولى القشيري الوعظ بالمدرسة النظامية عظم ذلك على الحنابلة فخطوا منه ، وكان ينال منهم فوقعت بينهم فتنة ذهبت بكثير من النفوس -٢- واشتد تعصب محب الدين بن محمد الهندي الحنفي المتوفى سنة ٧٨٩ على الشافعية وكان يظهر التدين والنسك ويرى تعصبه عليهم تديناً والدين بريء منه -٣- وتجتمع بقية المذاهب على الحنابلة غضباً على أعمال ابن تيمية ونودي في دمشق وغيرها : من كان على دين ابن تيمية حلّ ماله ودمه -٤- بمعنى أنهم كفرة يعاملون معاملة الكافرين ، على ان الشيخ ابي حاتم الحنبلي يقول : « من لم يكن حنبلياً فليس بمسلم » -٥- فهو يكفّر جميع المسلمين ، وعكسه الشيخ ابو بكر المقري الواعظ في جوامع بغداد ذهب الى تكفير الحنابلة اجمع -٦- .

وتكفير الفرق بعضها بعضاً أمر شائع يحز في صدر الحق ويؤلم التأريخ وقعه ويتبرأ الاسلام منه .

هذا أبو سهل بن زياد القطان كان من الحفاظ والثقات عندهم يذهب الى تكفير المعتزلة مستدلا بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا في الأرض » الآية .

-١- ابن الاثير ج ٨ ص ٢٢٩ .
-٢- مرآة الجنان ج ٣ س ٩٧ .
-٤- شذرات الذهب ج ٦ س ٢١٠
-٤- مرآة الجنان ج ٤ س ٢٤٠
-٥- تذكرة الحفاظ ج ٣ س ٣٧٥ .
-٦- شذرات الذهب ج ٣ س ٢٥٣

وهذا الشيخ ابو اسحاق ابراهيم بن علي بن يوسف الفيروز ابادي المتوفى سنة ٤٧٩ وكان شيخ الشافعية وعالمهم المبرز تعصب الحنابلة عليه فتكلموا فيه وبالغوا في الأذى بالسنتهم فثارت فتنة عظيمة أدت الى ذهاب نفوس من الطرفين، وانتصر السلطان لأبي اسحاق فسجن شيخ الشافعية -١- . وهذا الفقيه ابو منصور المتوفى سنة ٥٦٧ قتله الحنابلة بالسم تعصباً عليه ، قال ابن الجوزي : إن الحنابلة دسوا اليه امرأة جاءت اليه بصحن حلوى وقالت : هذا ياسيدي من غزلي ، فاكل هو وامرأته وولد له صغير فاصبحوا موتى وكان من علماء الشافعية المبرزين -٢- ، وكذلك ابو الحسن بن فورك قتل مسموماً بواسطة التعصب وابو علي خادم المستنصر كان من أئمة الشافعية في مصر وكان يجلس في حلقة ابن عبد الحكم ويناظرهم فسعوا به الى السلطان وقالوا : هذا جاسوس فحبسه سبع سنين اجتمع مشايخ المذاهب في هراة عند الملك الب ارسلان يستغيثون به من الشيخ محمد بن عبد الله الأنصارى الحنبلي بعد أن جعلوا صنماً تحت سجادته ويقولون للملك انه مجسّم وانه يترك في محرابه صنما يزعم أن الله على صورته فتفحص الملك ووجد الأمر كذلك -٣- ويحدثنا ابن خلكان -٤- عن الشيخ الآمدي المتوفى سنة ٦٣١ كان أول اشتغاله حنبلي المذهب وانحدر الى بغداد وبقي مدة ثم انتقل الى مذهب الشافعي وعاد الى الديار المصرية وتولى الاعادة بالمدرسة المجاورة لضريح الامام الشافعي فحسده جماعة من فقهاء البلاد وتعصبوا عليه ونسبوا اليه

-١- طبقات الشافعية ج ٣ ص ١٠٩

-٢- طبقات الشافعية ج ٤ ص ١٨٤

-٣- تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ٣٥٨

-٤- وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٠١

فساد العقيدة وانحلال الطوية ومذهب الفلاسفة والحكماء وكتبوا محضراً يتضمن ذلك ووضعوا خطوطهم بما يستباح به دمه) وفي مصر بأمر القاضي المالكي وهو الحارث بن مسكين باخراج الحنفية والشافعية من المسجد وامر بنزع حصرهم . وكثير من هذا مما يطول ذكره ويعسر استقصاؤه مما انطوت عليه اضلاع التاريخ .

ولعل أعظم صورة تتجلى بها روح العصبية والخلاف بين الطوائف هي قضية القفال عند السلطان محمود بن ناصر وذلك انه كان حنفياً وتحول شافعياً فاحضر علماء الفريقين وطلب من القفال المروزي أن يصلي ركعتين طبق المذهب الحنفي فصلى القفال على مذهب الشافعي وكان شافعي المذهب بوضوء وشرائط معتبرة ، ثم صلى على مذهب ابي حنيفة وما يجوزه في الصلاة فصلى ركعتين بتلك الصورة التي ذكروها ونحن نعرض عن ذكرها ـ١ـ

وهذا الشيخ علي بن الحسن الملقب بسيف الدين المتوفى سنة ٦٣١ كان حنبلياً ثم صار شافعياً وتعصب عليه فقهاء البلاد وحكموا عليه بالكفر والزندقة ـ٢ـ

وكثير من أمثاله من العلماء الذين قتلوا بسيف التعصب بشهادة رجال ذلك العصر ، ولا يستبعد ان ذلك كله افتراء محض وأن أكثر هؤلاء هم بريؤن مما نسب اليهم ، وقد استساغ أعداؤهم شهادة الزور على من يخالفهم تديناً استفتى بعضهم فى شهادة على شافعي زوراً فاجابه المفتي ألست تعتقد أن دمه وماله حلال؟ قال : نعم ، قال : فما دون ذلك ، فاشهد وادفع فساده عن المسلمين . وهذه الامور التي ابتلي بها الاسلام إنما هي من جنايات علماء السوء الذين تزلفوا للدولة وتأثروا بسياستها لفتح باب الشحناء والنزاع والتخاصم والبغضاء بين طوائف المسلمين .

ـ١ـ وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨٦ والطبقات ج ٤ ص ١٤

ـ٢ـ مرآة الجنان ج ٤ ص ٢٤

فتجد الحنابلة يتعصبون على الحنفية والحنفية على الحنابلة . ولو امعنت النظر فى طيات التاريخ واستعرضت حوادث الفتن بين المنتسبين الى السنة بعضهم مع بعض فانك تجد من الوقائع ما يؤلم قلب كل مسلم . يقول الاستاذ السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار : ومن أغرب ما تجد أن العدوان بين الشافعية كان من أسباب حملة التتار على المسلمين ، تلك الحملة التي كانت أول صدمة صدعت بناء قوة المسلمين صدعا لم يلتئم من بعده . أدر طرفك في بلادهم اليوم وانظر حال هـــذه المذاهب على ضعف الدين في نفوس الجماهير تجد بأسهم بينهم شديداً تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى كما قال الله تعالى في وصف من لا إيمان لهم ولا أيمان -١-

— ٣ —

تعددت عوامل التفرقة ، وكثرت طرق الخلاف بين الطوائف وتعصب كل الى جهة ، فاهل الجرح والتعديل أدى بهم التعصب الى الحط مما يخالف مذهبهم وتكلم البعض فى البعض ، فكم من مجروح عدّلوه ، وعادل جرّحوه ، وأعطف عليهم المؤرخين فانهم ربما وضعوا من اناساً ورفعوا اناساً ، إما لتعصب ، أو لجهل ، أو لمجرد اعتماد على نقل من لا يوثق به أو غير ذلك . يقول السبكي : « والجهل في المؤرخين أكثر منه في الجرح والتعديل ، وكذلك التعصب قلّ أن رأيت تاريخاً خالياً من ذلك ، وأما تاريخ شيخنا الذهبي غفر الله له فانه على حسنه وجمعه مشحون بالتعصب، فانه أكثر الوقيعة في أهل الدين الذين هم صفوة الخلق ، واستطال بلسانه على كثير من أئمة الشافعية والحنفية ومال فافرط ومدح فزاد في المجسمة . ويقول الحافظ صلاح الدين : إن الحافظ شمس الدين الذهبي

-١- الوحدة الاسلامية ص ٢

لا شك في دينه وورعه ولكنه غلب عليه مذهب الاثبات ومنافرة التأويل ، والغفلة عن التنزيه حتى أثر ذلك في طبعه انحرافا شديداً -١-

وعلى أي حال فقد مالت الأهواء وأثرت النزعات فنفروا من الحقائق ولم يتقبلوها فكتبوا بما توحيه اليهم أهواؤهم وأغراضهم لا بما تقتضيه الحقيقة من حيث هي .

وتأصلت روح العداء ، وتحيز كل الى مذهبه وغلوا في أئمتهم غلواً أخرجهم عن حدود الاتزان ووضعوا فى مدحهم ما شاءت رغباتهم بدون قيد وشرط ، وتوسعوا فى وضع الأحاديث عن النبي بالبشائر بائمة المذاهب كما أورد الحنفية مرسلا : أن آدم افتخر بي وأنا أفتخر برجل من امتي اسمه النعمان ، وبصورة أخرى : الأنبياء يفتخرون بي وأنا أفتخر بابي حنيفة ، من أحبه فقد أحبني ومن أبغضه فقد ابغضني -٢- .

وتوسعوا فى الادعاءات لتصحيح مذهبه ووجوب اتباعه ان عيسى يحكم بمذهبه وان الله غفر له ولأهل مذهبه الى يوم القيامة -٣- وانه أعظم معجزة للنبي بعد القرآن .

ومن ذلك قولهم إن الله خص أبا حنيفة بالشريعة والكرامة ومن كرامته ان الخضر عليه السلام كان يجيء اليه كل يوم وقت الصبح ويتعلم منه أحكام الشريعة الى خمس سنين فلما توفي ابوحنيفة دعا الخضر ربه فقال يارب ان كان لي عندك منزلة فاذن لأبي حنيفة حتى يعلمني من القبر على عادته حتى اعلّم الناس

-١- طبقات الشافعية ج ١ ص ١٩٠

-٢- الدر المختار فى شرح تنوير الأبصار ج ١ ص ٥٢ و ٥٤

-٣- نفس المصدر .

شرع محمد على الكمال ليحصل لي الطريق ، فاجابه ربه الى ذلك . واتم الخضر دراسته على أبي حنيفة وهو فى قبره فى مدة خمس وعشرين سنة الى آخر مافي هذه الاسطورة التي تتلى في مجالس الحنفية فى الهند ومساجدهم (١) وقد صنعت فى عصور التعصب . ولو بعث أبو حنيفة لأقام الحد على هؤلاء المتجرئين بالكذب والافتراء على مقام الانبياء ولخر صعقاً الى الارض وعفر خده فهو يعرف نفسه ولكنهم أرادوا أن يحسنوا فاساءوا ويقول شاعرهم لتأييد صحة مذهبه وترجيحه على غيره .

غدا مذهب النعمان خير المذاهب   كذا القمر الوضاح خير الكواكب

مذاهب أهل الفقه عنه تقاصت   واين عن الروسي نسج العنا كب

ويقول الشافعي :

مثل الشافعي في العلماء   مثل البدر في نجوم السماء

قل لمن قاسه بنعمان جهلا   أيقاس الضياء بالظلماء

والمالكية يدعون لامامهم اموراً ، منها انه مكتوب على فخذه بقلم القدرة مالك حجة الله في أرضه ، ـ٢ـ وانه يحضر الاموات من أصحابه في قبورهم وينحي الملكين عن الميت ولا يدعهما يحاسبانه على أعماله ـ٣ـ ، ومنها انه القى كتابه الوطأ فى الماء فلم يبتل ويقول شاعر :

اذا ذكروا كتب العلوم فحي هل   بكتب الوطا من تصانيف مالك

فشد به كف الصيانة تهتدي   فمن حاد عنه هالك في الهوالك

ـ١ـ انظر كتاب الياقوت فى الوعظ لابى الفرج على بن الجوزى ص ٤٨

ـ٢ـ شرح تائية ابن الفارض للشرنوبى

ـ٣ـ مشارق الأنوار العدوى ٢٨٨

ويقول الحنبلي :

سبرت شرائع العلماء طراً ... فلم أر كاعتقاد الحنبلي

فكن من أهله سراً وجهراً ... تكن أبداً على النهج السوي

ويقول آخر :

أنا حنبلي ما حييت وان امت ... فوصيتي للناس أن يتحنبلوا

والحنابلة يقولون أحمد بن حنبل امامنا فمن لم يرض فهو مبتدع ، فما اكثر المبتدعين في نظرهم على هذه القاعدة .

وتقوّلوا على الشافعي قوله : من أبغض أحمد بن حنبل فهو كافر ، فقيل له : أتطلق عليه اسم الكفر ؟ فقال : نعم ، من أبغض أحمد عاند السنة ، ومن عاند السنة قصد الصحابة ومن قصد الصحابة أبغض النبي (ص) ومن أبغض النبي (ص) كفر بالله العظيم -١-

واني استبعد صدور هذا القول من الشافعي وهو هو في مكانته ولكن الغلو لا يقف عند حد ولا يتقيد بشرط ، والا فلماذا لا يسمى من أبغض علياً كافراً ؟ مع انا نراهم يعظمون المتوكل العباسي ويسمونه بناصر السنة ويحوكون له المناقب والفضائل وهو هو في تحامله على علي وبغضه له وتقريبه من عرف بالنصب والعداء لعلي كعمر بن فروخ ، وابو السمط وعبدالله بن محمد بن داود وعلي بن الجهم وغيرهم من حزبه وأعوانه ، حتى انه كان لا يأنس الا بنقص علي والحط من كرامته ، وكان يقصد من يبلغه عنه انه يتولى علياً وأهل بيته فيأخذ ماله ويهدر دمه . ولكنهم لم يلتفتوا الى هذا الخطأ فوسموه بانه ناصر السنة وانه من أهل الجنة ومن أولياء الله ومجاوريه في حظيرة القدس . وكذلك حزبه النواصب

-١- طبقات الحنابلة ج ١ ص ١٣

وسموهم بالسنة . قال ابن الجوزي فى مناقب أحمد : وكان علي بن الجهم من أهل السنة حسن الرأي في أحمد .

فعلى هذا ان كل من كان حسن الرأي فى أحمد هو من أهل السنة وان اساء الرأي فى جميع المسلمين ونال منهم . قاتل الله الغلو كيف يحيد بصاحبه عن طريق الحق .

وكذلك يقولون : انه ما قام بامر الاسلام أحد بعد رسول الله ما قام به أحمد بن حنبل ولا ابو بكر الصديق مثله ، وان الله جل وعلا كان يزور قبره الى آخر ماهنالك من مناقب مبعثها الجهل والتعصب -١-

ويحدثنا الشيخ عبد الله بن محمد الهروي يقول : قصدت أبا حاتم بن جاموس بالري ، وكان مقدّم أهل السنة وقد أمر السلطان محمود أن كل من دخل الري ان يعرض اعتقاده على الشيخ أبي حاتم ، قال : فلما قربت من الري كان معي رجل في الطريق ، فسألني عن مذهبي ، فقلت : حنبلي ، فقال : مذهب ماسمعت به ، وهذه بدعة وأخذ بثوبي وقال : لا أفارقك حتى تذهب الى الشيخ ابي حاتم ، فذهب بي الى داره فاخبره بذلك ، فقال الشيخ : دعه فكل من لم يكن حنبلياً فليس بمسلم . -٢-

فسائر أهل المذاهب الاسلامية أجمع في نظر هذا الشيخ كفار وما أعظمها من قسوة فى الحكم وما أبعد هذا الشيخ عن الانتساب لمنزلة العلم . ولكن حكم العاطفة العمياء يسلب الرجل رشده ، وللعصبية وقعها وطابعها الخاص .

وكان القضاء للحنفية لإيثار الخلفاء لهم بذلك . ولما أراد القادر بالله نقله

-١- مناقب أحمد لابن الجوزى

-٢- تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ٣٧٥

الى الشافعية ، وعين أبا العباس أحمد بن محمد البارزي الشافعي بدلا من الاكفاني الحنفي قاضي بغـــداد باشارة أبي حامد الاسفرائني ، وكتب أبو حامد بذلك الى السلطان محمود ، وأهل خراسان : ان الخليفة نقل القضاء عن الحنفية الى الشافعية فاشتهر ذلك وصار أهل بغداد حزبين ثارت بينهما الفتن ، فاضطر الخليفة الى جمع الأشراف والقضاة وأخرج اليهم رسالة تتضمن ان الاسفرايني ادخل على أمير المؤمنين مداخل أوهمه فيها النصح والشفقة والأمانة ، وكانت على اصول الدخل والخيانة ، فلما تبين له أمره ووضح عنده خبث اعتقاده فيما سأل فيه من تقليد البارزي الحـكم والعدول باميرالمؤمنين عما كان عليه أسلافه من ايثار الحنفية وتقليدهم واستعمالهم صرف البارزي وأعاد الأمر الى حقـه وأجراه على قديم رسمه ، وحمل الحنفية على ما كانوا عليه من العناية والـكرامة والحرمة والاعزاز ، وتقدم اليهم ان لا يلقوا ابا حامد ولا يقضوا له حقاً ولا يردوا عليه سلاماً ، وخلع على ابي محمد الاكفاني وانقطع ابو حامد عن دار الخلافة وظهر التسخط عليـه والانحراف عنه ـ٢ـ .

ظهر لنا من هذه القصة عظيم اهتمام الحنفيـة في منصب القضاء . ويعود الأمر لعظيم منزلة القضـاة إذ هم همزة الوصل بين البلاط واهل ذلك المذهب وتكون لهم تلك الحظوة ونيل الـكرامة والعناية والحرمة والاعزاز ماحمل الحنفية على اثارة تلك الفتنـة عندما أراد الشافعية سلبها منهم والاختصاص بهذه المنزلة دونهم وانتهت تلك المشكلة بتنازل الخليفـة عن رأيه وعاد الأمن الى نصابه . والتزاحم بالمناكب على القضاء هو أقوى عامل لاثارة تلك الفتن وبث روح الشغب والفرقة .

ـ١ـ نظرة تاريخية لأحمد تيمور باشا

وكان القضاة في أغلب الأوقات يثيرون الفتن ويوقدون نار الحرب بين الطوائف . كان أحمد بن صاعد الحنفي رئيس نيسابور وقاضيها وكان يلقب بشيخ الاسلام وقد بالغ في تعصبه على بقية المذاهب فاغرى بعضهم ببعض حتى لعنت الخطباء اكثر الطوائف على المنابر -١-

وأراد القاضي بكار أن يعمل في جامع بني امية إماماً حنفياً ، وكان لا يؤم فيه إلا شافعي ، ولاصعد منبره غير شافعي فاراد هذا القاضي أن يشاركهم بامام على مذهبه فثارت الشافعية وأغلقوا الجامع وعزل القاضي -٢-

ولعل من أعظم تلك الفتن التي وقعت بين المذاهب هي فتنة ابن القشيري عندما ورد بغداد سنة ٤٦٩ وجلس في النظامية وأخذ يذم الحنابلة وينسبهم الى التجسيم ، وكتب الى الوزير يشكو الحنابلة ويسأله المعونة ، وهجم أصحاب القشيري على زعيم الحنابلة عبد الخالق بن عيسى ووقع قتال بين الطرفين وأغلق اتباع ابن القشيري وهم الشافعية أبواب سوق مدرسة النظام ، وغضب أبو اسحاق الشيرازي وكاتب فقهاء الشافعية نظام الملك غضباً لتسلط الحنابلة ، واتسعت الفتنة وفكر الخليفة في حل هذه المشكلة واهتدى الى سعيه في الصلح فجمع القشيري واصحابه وابا جعفر الشريف زعيم الحنابلة وأصحابه بحضر الوزير فقام القشيري رئيس الشافعية والتفت الى الوزير عندما طلب منه الصلح وقال : أي صلح يكون بيننا؟ إنما يكون الصلح بين مختصمين على ولاية ، أو ديناً أو تنازع في ملك . فاما هؤلاء القوم فانهم يزعمون انا كفار ، ونحن نزعم ان من لا يعتقد ما نعتقده كان

-١- شذرات الذهب ج ٣ ص ٢٦١

-٢- طبقات الشافعية ج ١ ص ١٧٤

كافراً ، فأي صلح يكون بيننا ؟ -١-

وقد واجه كثير من العلماء، وتحملوا بلاء عظيما عندما يتحولون من مذهب الى مذهب . فهذا أبو سعد المتوفى سنة ٥٦٢ كان حنفي المذهب وتحول شافعياً ، وهذا السمعاني لما انتقل من المذهب الحنفي الى المذهب الشافعي اقي محنا وتعصبا وقامت الحروب على ساق ، واضطرمت نيران الفتنة بين الفريقين فكانت عملاً ما بين خراسان والعراق واضطرب أهل مرو لذلك اضطرابا فظيعاً وفتحت باب المشاقة ، وتعلق أهل الرأي باهل الحديث وساروا الى باب السلطان الى آخر ما وصفه السبكي -٢- في الطبقات والشيخ عبد العزيز بن الخزاعي - كان من أكابر المالكية فلما قدم الامام الشافعي بغداد تبعه وقرأ عليه كتبه ونشر علمه ، والشيخ محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٢٦٨ كان على مذهب الامام مالك فلما قدم الشافعي الى مصر انتقل الى مذهبه ثم رجع ، وابو جعفر بن نصر الترمذي سنة ٢٩٥ رأس الشافعية بالعراق كان حنفياً فلما حج انتقل الى مذهب الشافعي ، وابو جعفر الطحاوي ، كان شافعياً وتفقه على خاله المزني ثم تحول حنفياً بعد ذلك ، والخطيب البغدادي الحافظ سنة ٤٩٣ كان حنبلياً ثم صار شافعياً ، وابن فارس صاحب كتاب المجمل في اللغة ، كان شافعياً تبعاً لوالده ثم انتقل الى مذهب مالك ، والسيف الآمدي الاصولي المشهور سنة ٦٣١ كان حنبلياً ثم تحول الى مذهب الشافعي ، والشيخ محمد بن الدهان النحوي سنة ٥٩٠ كان حنبلياً ثم انتقل الى مذهب الشافعي ثم تحول حنفياً حينما طلب الخليفة نحويا يعلم ولده النحو ثم تحول شافعياً ، والشيخ تقي الدين بن دقيق كان أولا مالكيا ثم تحول الى مذهب الشافعي

-١- ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ج ١ ص ٢٢ باختصار .

-٢- طبقات الشافعية ج ٣ ص ٢٢

وكل هؤلاء امتحنوا وعذّبوا من قبل أنصار المذهب الذي يتحولون منه وأمثالهم كثيرون ، وقد طغت موجة التعصب حتى أصبح التكتم بالمذهب لازماً .
يقول أبو بكر محمد بن عبد الباقي المتوفى سنة ٥٣٥ وكان حنبلياً :

احفظ لسانك لا تبح بثلاثة ... سن ومال ما استطعت ومذهب
فعلى الثلاثة تبتلى بثلاثة ... بمكفّر وبحاسد ومكذب

ويعطينا الزمخشري صورة واضحة من صور الخلاف وشدة التطاحن بين المذاهب وطعن البعض على البعض بقوله :

إذا سئلوا عن مذهبي لم أبح به ... وأكتمه كتمانه لي أسلم
فإن حنفياً قلت قالوا بأنني ... أبيح الطلى وهو الشراب المحرم
وإن شافعياً قلت قالوا بأنني ... أبيح نكاح البنت والبنت تحرم
وإن مالكياً قلت قالوا بأنني ... أبيح لهم أكل الكلاب وهم هم
وإن قلت من أهل الحديث وحزبه ... يقولون تيس ليس يدري ويفهم ـ١ـ

— ٤ —

هـذا عرض موجز لحركات التعصب الطائفي الذي تسترت به السلطة الحاكمة من وراء تلك الحوادث لتوقع الفرقة في صفوف المسلمين فتصل الى غاياتها ، ويشق علينا ذكر أمثال هذه الحوادث المؤلمة وقد ذكرنا بعضها استطراداً في البحث لاظهار حقيقة يلزمنا اظهارها نصرة للحق ، رداً للباطل وتكذيباً لما يدعيه البعض كالاسفرائني وغيره من اتفاق المذاهب وعدم حصول أي خلاف بينهم ولم يحصل بينهم شقاق وتطاحن ولم يكفر بعضهم بعضا ، مستدلين بذلك على صحة

ـ١ـ الكشاف ج ٢ ص ٩٨ ؛ ط بولاق

مبادئهم و بطلان مذهب الشيعة وفساد عقائدهم بحصول الخلاف فيما بينهم وتكفير بعضهم بعضا ، ونحن لا نستغرب من الاسفرائني هذه الدعوة الباطلة فكم له في كتابه من غرائب وافتعالات على سائر فرق المسلمين بدون دليل بل هو تقول بالباطل ورجم في الغيب ، واليك قوله :

الفصل الثاني من هذا الباب فى طريق تحقيق النجاة لأهل السنة ، والجماعة فى العاقبة .

منها ان أهل السنة مجتمعون فيما بينهم لا يكفر بعضهم بعضا وليس بينهم خلاف يوجب التبري والتكفير فهم إذاً أهل الجماعة . قائمون بالحق والله تعالى يحفظ الحق وأهله كما قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » قال المفسرون أراد به الحفظ عن التناقض وما من فريق من فرق المخالفين إلا وفيما بينهم تكفير وتبري يكفر بعضهم بعضا . كما ذكرنا من الخوارج والروافض والقدرية ، حتى اجتمع سبعة منهم في مجلس واحد فافترقوا عن تكفير بعضهم بعضا ، وكانوا بمنزلة اليهود والنصارى حين كفر بعضهم بعضا ، حتى قالت اليهود: « ليست النصارى على شيء ، وقالت النصارى : ليست اليهود على شيء »

أخفي على الاسفرائني تلك الحوادث التي مرّ ذكرها فيذهب الى هذا الرأي ؟ أم نسي محنة القول بخلق القرآن، وماحدث من ورائها من تكفير البعض للبعض ؟ فقد ذهب احمد بن حنبل الى تكفير من يقول بخلق القرآن ، ويقول أبو عبد الله محمد بن يحيي الذهلي المتوفى سنة ٢٥٥ : من زعم ان القرآن مخلوق فقد كفر ، وبانت منه امرأته ، فان تاب وإلا ضربت عنقه ، ولا يدفن في مقابر المسلمين ، ومن وقف وقال لا أقول مخلوق أو غير مخلوق فقد ضاهى الكفر ، ومن زعم ان لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع ، ولا يدفن في مقابر المسلمين ، على ان أحمد بن

حنبل لم يقبل توبة التائب ، وكان لا يشيع جنازة من يقول بخلق القرآن ، ولم يصل على أحد منهم ، وكان يرتب عليهم احكام الكفار ، وشاع التكفير حتى عند النساء . يحدثنا الخطيب : ان امرأة تقدمت الى قاضي الشرقية عبدالله بن محمد الحنفي ، فقالت : إن زوجي لا يقول بمقالة أمير المؤمنين في القرآن ، ففرق بيني وبينه ـ١ـ ، نعم واتسع الخلاف بين المسلمين ، من تكفير البعض للبعض ، فطائفة تقول : ان من قال القرآن غير مخلوق فهو كافر ، وعليه ابن ابي داود وجماعته ، حتى ان الواثق استفك من الروم أربعة آلاف من الاسارى ، ولكنه اشترط ان من قال القرآن مخلوق يخلص من الأسر ، ويعطى دينارين ـ٢ـ ومن امتنع عن ذلك فيترك في الأسر ولا يفك ، بمعنى انه رتب آثار الكفر على من لم يقل بخلق القرآن ، ولما قدم أحمد بن نصر اليه قال له الواثق ما تقول في القرآن؟ ـ وكان أحمد ممن يذهب الى أن القرآن غير مخلوق ـ فقال كلام الله وأصر على رأيه غير متلعثم ، فقال بعض الحاضرين : هو حلال الدم ، وقال ابن ابي داود: هو شيخ مختل لعل به عاهة أو تغير عقله ، يؤخر أمره ويستتاب ، فقال الواثق ما أراه إلا داعياً للكفرة ، ثم دعى بالصمصامة فقال : إذا قمت اليه فلا يقومن أحد معي فاني احتسب خطاي الى هذا الكافر الذي يعبد ربا لا نعرفه ، ثم أمر بالنطع فاجلس عليه وهو مقيد ، وأمر ان يشد رأسه بحبل ، وامرهم ان يمدوه ، ومشى اليه برجله وضرب عنقه ، وأمر بحمل رأسه الى بغداد ـ٣ـ .

وبهذا القدر نكتفي ولا نطيل في البحث فهو واسع لمن أراد ان يتتبع ، ولكن من الأسف الشديد ، ان ناشر كتاب التبصير والمعلق عليه قصرت خطاه

ـ١ـ تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٧٤

ـ٢ـ طبقات الشافعية ج ٣ ص ٢٢ وتاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٤

ـ٤ـ شذرات الذهب ج ٢ ص ٦٧

عن الوصول لتلك الحقائق فلم ينبه على خطأ رأي المؤلف كما نبه على أخطاء ارتكبها المؤلف في حق الحنفيـــة كما هو يراها وعذرنا شارح الكتاب الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثري عن هـذا الاعراض ، ولـكن ما بال الدكتور محمد محمود الخضيري الذي قدم للكتاب وشكر الناشر على ذلك والدكتور هو استاذ تأريخ الفلسفة الاسلامية بالجامعة المصرية ، وكلية اصول الدين بالأزهر ؟ وبالطبع انه يتجرد عن العاطفة ويحرر نفسه عن عبودية التقليد ولـكنه مرغم على ذلك فماذا يصنع ؟

— ٥ —

اما الحوادث التي جرت بين السنة والشيعة فكثيرة لا يسعنا ذكرها الآن ونشير الى بعضها إتماماً للغرض ، ان أسباب الثورات التي تقوم بين السنة والشيعة هي اقامة ذكرى الطف وذكرى يوم الغدير ببغداد ، ولا نستطيع ان نعرف الأسباب التي من أجلها تتحرك شعور السنة عندما ينظرون الى الشيعة يقومون بهذه الذكريات ، فان كان الانكار منهم للدين من حيث ان هذه الامور هي بدعة في نظرهم ، ولا يمكنهم السكوت عنها إذ النياحة على الميت محرمة عندهم فلماذا نراهم ينكرون شيئاً ويفعلونه أ كان من جهتهم مباح وعلى غيرهم محضور ؟

لماذا نراهم ينكرون تعظيم يوم الحسين (ع) واعادة ذكرى يوم الطف وما لقيـه بطل المسلمين وقائدهم الأعلى الى ساحات التحرر من عبودية المستبدين ومن ضحى بنفسه لاعلاء كلمة الحق ونشر لواء الدعوة الاسلامية على حزب المشركين والمتألبين للقضاء على دين محى تلك المبادىء الفاسدة .

ونراهم يقيمون النياحـة على مصعب بن الزبير مقابلة له بالحسين (ع) ،

وأقاموا مهرجان يوم الغار في قبال مهرجان يوم الغدير ، ثم نراهم يقومون بمراسيم الحزن والأسى لرجال منهم لم تقم الشيعة بالبعض من ذلك واليك البعض منها :

يموت ابو الفتح اسماعيل بن السلطان محمود سنة ٥٦٧ فتقام عليه المآتم وينـاح عليه نوح الثكلا ويكثر البكاء في الطرق ، وتفرش بالرماد اظهاراً للحزن ، وتعظيما للمصاب -١-

ويموت ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ فتحضر جنازته خمسون الف امرأة ينحن عليه ، ومئتا الف رجل يرفعون أصواتهم بالتكبير مزيجاً بالبكاء والعويل ، ولما غسل جمع ماء غسله فشربوه تبركاً به ، واقتسم جماعة بقية السدر الذي غسل به تبركاً ، ودفع بالطاقية التي على رأسه خمس مائة درهم ، والخيط الذي في رقبته فيه الزئبق لدفع القمل دفع فيه مائة وخمسون ديناراً ، وسارت جنازته بين الضجيج والبكاء ، والمنادي امامه ينادي هكذا تكون جنائز أهل السنة ، ولما وضع على المغتسل دخل الرجال عليه يقبلونه وينوحون عليه ، ثم اذن للنساء ففعلن مثل ذلك -٢- واقيمت عليه المآتم ودامت النياحـــة ، ورثاه خلق كثير منهم شمس الدين الذهبي وغيره -٣- .

ويموت أحمد بن السلطان ملك شاه سنة ٤٨١ فمكث الناس ينوحون عليه سبعة أيام ولم يركب أحد فرساً والنساء ينحن عليـه في الاسواق ، وسود أهل البلاد أبوابهم .

ويموت شيخ الحرمين فتطوف تلامذته في الشوارع ينوحون عليـه نوح

-١- شذرات الذهب ج ٦ س ١١٢

-٢- تاريخ بن كثير ج ١٤ س ١٣٨

-٣- العقود الدرية من مناقب ابن تيمية ص ٣٩٩

النساء وكسروا المحابر وأقاموا النياحة عليه سنة -١-

وأبو عمر الحنبلي المتوفى سنة ٦٠٧ يعظم عليه البكاء والعويل يتناوحون عليه رجالا ونساء ، وغسل في المسجد ونشف ماء غسله بخمر النساء ، وعمائم الرجال للتبرك طبعاً ويتسابقون الى تمزيق كفنه يتبركون به ، وكادت تبدو عورته ، لولا محافظة الدولة على كرامته فدفعت الناس عنه بالسيف ، قال ابن العماد : ولولا الدولة لما وصل من كفنه الى قبره شيء -٢-

وتخرج النساء يوم وفاة المسترشد العباسي سنة ٥٢٩ ينحن عليه ويلطمن وهن منشرات الشعور ينشدن المراثي في الطرقات ، اما الرجال فشاركوهن بالنياحة وزادوا بان شقوا الثياب عليه -٣-

ونحن اذا نظرنا الى أسباب تلك المؤاخذات التي تؤاخذ بها الشيعة واستوجبت حدوث تلك الحوادث، نجد الأسباب تعود الى متابعة أغراض السلطة، حتى تحكم العداء للشيعة وأصبح الابتعاد عن تهمة التشيع ، أمر لازم حتى حرموا التشبه بهم .

ذكر الزرقاني في المواهب اللدنية في صفة عمة النبي (ص) على رواية علي في اسدالها على منكبه حين عممه رسول الله (ص) ثم ذكر قول الحافظ العراقي : ان ذلك اصبح شعار كثير من فقهاء الامامية فينبغي تجنبه لترك التشبه بهم .

فهذا الشيخ يفتي بحرمة التشبه بالشيعة في اتخاذ العمة التي كان رسول الله يلبسها هذا شاهد من آلاف الشواهد التي عامل بها رجال اولئك العصر شيعة آل محمد

-١- طبقات الشافعية ج ٣ ص ٢٥٩
-٢- شذرات الذهب ج ٣ ص ٣٠
-٣- تاريخ دول الاسلام للذهبي ج ١ ص ١٨٢

ولا غرابة فان تهمة التشيع تدعو لسخط الدولة ، وهل وراء ذلك إلا ازهاق الارواح ، ونهب الأموال أو السجن أو التبعيد ؟ لذلك التجأ الاكثر الى التظاهر فى الوقيعة بهم فادى الأمر الى التباعد عنهم والحذر من تهمة التشيح حتى في الرؤيا ، يحدثنا الخطيب البغدادي : ان رجلا رأى علياً (ع) فى المنام فلم يجسر على الدنو منه فسأله صاحبه فقال : اخشى ان قربت اليه اسأله ان اتهم بالتشيع.

هكذا أرادت السلطة الجائرة ، تفريق كلمة المسلمين ، وايقاد نار العداء فيما بينهم، لغايات تعود لمصالحهم الخاصة ، ورغبات في نفوسهم ، لا تنال مع الوحدة والاتحاد ، وتبادل الثقة والاخاء .

وكان فى الأمة رجال يدعون الى الحق ، وينبهونهم على هذه الأخطاء ، ولكن جهودهم لم تثمر كثير فائدة ، لأن الفوضى تحكمت فى المجتمع ، ودبت روح الاختلاف في النفوس ، وطغت موجة التعصب ، حتى كانت عاقبة ذلك الجهل ان ساط عليهم أعداء لا يعرفون الرحمة ، فالبسوهم الذل ، وحكموا فيهم السيف ، وسقوا من دمائهم الأرض ، وأقاموا من رؤوسهم تلالاً ، فتمكن من قلوب المسلمين الرعب ، وسلبت منهم تلك القوة والشجاعة ، والتفاني فى سبيل نشر كلمة التوحيد ، يوم ساروا تحت راية الاسلام ، وهم يستهينون بالحياة ، ويستقبلون الموت ، ويتمنون الشهادة ، حتى أخضعوا جبابرة الأرض ودانت لهم البلاد ، واذا بهم بعد تلك العزة ، يستولي عليهم الذل ، ويدخل في قلوبهم الرعب، ولا يدافعون عن أنفسهم ، فكان الرجل الواحد من التتر يقتل جماعة من المسلمين الواحد بعد الآخر ، ودخلت امرأة داراً وقتلت جماعة من أهلها ، ولم يدفعوها عن أنفسهم ودخل واحد منهم دربا فيه مائة رجل فما زال يقتلهم واحداً واحداً حتى أفناهم ، ولم تمد اليه يد بسوء وأخذ رجل من التتر رجلا من المسلمين ولم يجد

ما يقتله فيه ، فقال له : ضع رأسك على هذا الحجر ولا تبرح ، فوضع رأسه وبقي نائماً حتى جاء التتري وقتله -١-

وهذا ما يذهب بنفس المسلم حسرات ويميت قلبه أسفاً وحزناً ، وها نحن اليوم امام تيار المبادىء الفاسدة ، والآراء الهدامة ، والعقائد السخيفة ، وان خطرها على المسلمين لاعظم خطر يخاف عاقبته ، وتخشى مغبتـه فاذا لم ينهجوا فى مكافحتها لتفهيم التعاليم الاسلامية والقيام بتطبيقها عملياً ، ويتحدوا لابعاد المتدخلين بين صفوف المسلمين ، لهدم المجتمع الاسلامي ، وتشويه تعاليمه الدينية والأخلاقية ، واستبداله بتعاليم اباحية ، ولا يتم ذلك إلا باتحاد الكلمة وفهم الاسلام فهما صحيحاً ، وان تستسق تعاليمه من ينبوعه الذي أراد الله ان نأخذ عذبه منه وتتبع قول الحق ، وأئمة الصدق :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين »

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا »

-١- الله والجزر لأبي الحسن المناوى ص ٣٧

المذاهب

انتشارها فى الأقطار الاسلامية

ونود الاشارة الى انتشار المذاهب فى الأقاليم الاسلامية فى القرن الرابع سواد صنعاء ونواحيها مع سواد عمان شراة غالية ، وبقيـة الحجاز وأهل الرأي بعمان وجبر وصعده شيعة . والغالب على صنعاء أصحاب أبي حنيفة والجوامع بايديهم ، وفى نواحي نجد واليمن مذهب سفيان . وفي العراق الغلبة ببغداد للحنابلة والشيعة ، وبه مالكية وأشعرية ، وبالكوفة الشيعة إلا الكناسة فانها سنة ، وأكثر أهل البصرة قدرية و (شيعة) وثم حنابلة ، وببغداد غاليـة يفرطون بحب معاوية ، وهنا يحدثنا المقدسي عن دخوله جامع واسط واستماعـه لقصاص يقص على الناس حديثاً عن النبي (ص) : ان الله يدني معاوية يوم القيامة فيجلسه الى جنبه ثم يجلوه على الخلائق كالعروس ، قال المقدسي فقلت له بماذا ؟ بمحاربته علياً ؟ رضي الله عنه كذبت يا ضال ، فصاح القصاص خذوا هذا الرافضي ، فاقبل الناس علي ، فعرفني بعض الكتبة فكركرهم عني .

اقليم اقور وهو اليوم شمال العراق ـ أي الموصل ونواحيها ـ مذهبهم سنة وجماعة ، إلا عانه فانها كثيرة المعتزلة ، ولا ترى في الرأي غير مذهب ابي حنيفة والشافعي ، وفيها حنابلة وجلبة للشيعة ، واقليم الشام مذاهبهم مستقيمة أهل جماعة وسنة ، وأهل طبرية ونصف نابلس وأكثر عمان شيعة ولا ترى فيـــه مالكيا

والعمل كان فيه على مذهب أصحاب الحديث .

اقليم مصر على مذهب أهل الشام ، غير ان اكثر فقهائهم مالكيون ، ألا ترى انهم يصلون قدام الامام ويربون الكلاب ؟ واعلا القصبة صندفا شيعة وسائر المذاهب في الفسطاط موجودة ظاهرية .

واقليم المغرب : فالمذاهب على ثلاثة أقسام ، واما فى الاندلس فمذهب مالك ، وقرائة نافع ، وهم يقولون لا نعرف إلا كتاب الله ، وموطأ مالك ، فان ظهروا على حنفي أو شافعي نفوه ، وان عثروا على معتزلي أو شيعي ونحوهما ربما قتلوه ، وبسائر المغرب الى مصر لا يعرفون مذهب الشافعي إلا مذهب أبي حنيفة ومالك ، وأصحاب مالك يكرهون الشافعي ، يقولون أخذ العلم عن مالك ثم خالفه .

اقليم جانب خراسان للشيعة والمعتزلة والغلبة لأصحاب أبي حنيفة إلا في كورة الشاش فانهم شوافع وفيهم قوم على مذهب عبد الله السرخسي .

واقليم الرحاب مذاهبهم مستقيمة ، إلا أن أهل الحديث حنابلة ، والغالب بدبيل مذهب أبي حنيفة .

واقليم الجبال اما بالري فمذاهبهم مختلفة ، فالغلبة للحنفية وهم نجارية ، وبالري حنابلة كثيرة ، وأهل قم شيعة ، وفي الدينور جلبة لمذهب سفيان الثوري

اقليم خوزستان مذاهبهم مختلفة ، أكثر أهل الأهواز ورامهرمز والدورق حنابلة ونصف الأهواز شيعة ، وبه من أصحاب أبي حنيفة كثير ولهم فقهاء وبالأهواز مالكيون .

اقليم فارس ، العمل فيه على اصحاب الحديث ، وأصحاب ابي حنيفة ، وللداودية دروس ومجالس وغلبة . ويتقلدون القضاء والأعمال .

اقليم كرمان المذاهب الغالبة للشافعي .

اقليم السند : مذاهبهم اكثرها أصحاب حديث . ورأيت القاضي أبا محمد المنصور داوديا اماما فى مذهبه . وأهل الملتان « شيعة يهيعلون في الاذان ويثنون فى الاقامة » ولا تخلو القصبات من فقهاء على مذهب أبي حنيفة ، وليس بهم مالكية ، ولا معتزلة ، ولا عمل للحنابلة ـ١ـ

ـ١ـ انظر أحسن التقاسيم لشمس الدين محمد بن أحمد المعروف بالشارى طبع سنة ١٩٠٩ م بمطبعة بريل .

انتشار المذاهب الاربعة

في العصر الحاضر *

المغرب الأقصى يغلب عليه الآن المذهب المالكي . وعلى الجزائر وتونس أيضاً .

« طرابلس » المذهب المالكي بكثرة . والحنفي بقلة . وهم من بقايا الاسر التركية ، وأكثرهم في تونس ومنهم افراد بيت الامارة بها ، ولهذا تمتاز حاضرتها بالقضاء الحنفي مشاركا للقضاء المالكي ، وأما سائر أعمالها : فقضاتها مالكية ، وفي الحاضرة كبير المفتين الحنفي ويلقب بشيخ الاسلام وله التقدم والزعامة المعنوية على الجميع ، والمالكي وله المقام الثاني ، وقد تساهلوا الآن فى تلقيبه بشيخ الاسلام أيضاً . ومع قلة المقلدين للمذهب الحنفي فان من السنن المتبعة عندهم أن يكون نصف مدرسي جامع الزيتونة حنفية ، والنصف الآخر مالكية . وإنما امتاز الحنفي بذلك لكونه مذهب الاسرة المالكة .

« مصر » : الشافعي والمالكي ويغلب الأول في الريف والثاني في الصعيد والسودان ، ويكثر الحنفي وهو مذهب الدولة والمتبع في الفتوى والقضاء والحنبلي قليل بل نادر .

« الشام » : الحنفي يشمل نصف أهل السنة بها والربع شافعية ، والربع الآخر حنابلة .

---

* انظر ما كتبه أحمد تيمور باشا فى كتاب نظرة تاريخيه ص ٤٢

« فلسطين » : يغلب على مذاهب أهل السنة فيه الشافعي ، ويليه الحنبلي فالحنفي ، فالمالكي .

« العراق » : يغلب الحنفي فيه على مذاهب أهل السنة ويليه الشافعي وبه مالكية وحنابلة .

« الترك » : العثمانيون والالبان وسكان بلاد البلقان المذهب الحنفي .

« الاكراد » : المذهب الشافعي وهو الغالب على بلادارمينية لأن مسلميها من أصل تركماني أو كردي ، والسنيون من أهل فارس أغلبهم شافعية وقليل منهم حنفية .

« الأفغان » : المذهب الحنفي والشافعي والحنبلي بقلة .

« تركستان الغربية » : التي منها بخاري المذهب الحنفي ، واما تركستان الشرقية فكان الغالب عليها الشافعي ، ثم تغلب الحنفي بسعى العلماء الواردين عليها من بخارى القفقاز وما والاها الحنفي وفيهم شافعية .

« الهند » : الحنفي والشافعي بقلة ، وفيها مذاهب أخرى .

« الهند الصينية » : شافعية وكذلك مسلموا استرالية ، وفى البرازيل من من امريكا نحو ٢٥ الف مسلم حنفية .

« امريكا » : فيها من المسلمين عدد ينوف على ١٤٠ الفاً وهم مختلفو المذاهب .

« الحجاز » : الشافعي والحنبلي وفيه حنفية ومالكية في المدن وأهل عسير شافعية .

« اليمن » : السنيون فيها وفي عدن ، وحضرموت شافعية ، وقد يوجد

بنواحي عدن حنفيـة والغالب على عمان الاباضية ولـكنها لا تخلو من حنابلة وشافعية .

« قطر والبحرين » : المالـكي وفيهما حنابلة من الواردين عليهما من نجد .

« الاحساء » : الغالب على أهل السنة فيها الحنبلي والمالـكي .

« الـكويت » المالكي

انشاء المدارس

لترويج المذاهب الأربعـــة

كانت بغداد في العهد العباسي ربوعاً عامرة انشئت فيها دور للعلم ، وبنيت مدارس لتعلم الفقه الاسلامي على المذاهب الأربعة ، واجريت على طلاب العلم منهم نفقات طائلة، وقـد انفق نظام الملك عليهم في كل سنة مايبلغ ستمائة الف دينار ، وكان ابو الحسن علي بن محمد وزير المقتدر العباسي يقوم بنفقات خمسة آلاف طالب منهم ، وبذلك اصبحت بغداد دار هجرة يؤمها طلاب العلم من كل ناحيـة وصوب وأهم تلك المدارس هي :

١ : النظامية : التي انشأها نظام الملك الطوسي على شاطىء دجلة سنة ٤٥٧ وبنى حولها اسواقا وجعلها وقفاً عليها مع كثير من الضياع والخانات والحمامات .

٢ : التاجية : وقـد بنيت سنة ٤٨٢ بناها تاج الدين ابو الغنائم المتولي لتدبير دولة ملك شاه بعد نظام الملك .

٣ : التتوشية : التي بناها خمار تكين خادم تتش بن ألب ارسلان بن داود بن سلجوق ، وهي خاصة لاصحاب ابي حنيفة فقط .

٤ : باب الازج بنيت لثقة الدولة ابي الحسن علي بن محمد القزويني .

٥ : مدرسة ابن دينار : بنيت لأبي حكيم ابراهيم بن دينار البغدادي الفقيه الشافعي .

٦ : مدرسة زيرك أو مدرسة سوق العميد : خاصة للحنفية .

٧ : المدرسة الشرابيـة : انشأها شرف الدين اقبال الشرابي سنة ٦٢٨

على عهد المستنصر بسوق العجم .

٨ : المدرسة البشيرية : انشئت بالجانب الغربي من بغداد وقد أمرت ببنائها حظية المستعصم وجعلتها وقفاً على المذاهب الاربعة ، ووقفت عليها أوقافاً كثيرة .

ولكن أهم تلك المدارس هي المستنصرية التي مرت الاشارة اليها في الابحاث السابقة وقد وصفها السيوطي -١- وابن بطوطة في رحلته وابن الفوطي -٢- وغيرهم . وكانت تعد هذه المدرسة كالجامعة لتخريج العلماء على المذاهب الأربعة في ذلك العصر .

أما فى مصر فكان مجموع المدارس التي انشئت للمذاهب الأربعة لا يقل عددها عن تسعين مدرسة واليك ذكر البعض منها :

١ : المدرسة الفائزية : انشأها شرف الدين بن صاعد سنة ٦٣٦ وهي خاصة للشافعية .

٢ : المدرسة القطبية : انشئت سنة ٥٧٠ انشأها الأمير قطب الدين خسرو وهي للشافعية .

٣ : المدرسة السيوفية : انشئت سنة ٥٧٢ وهي للحنفية انشأها الملك الناصر صلاح الدين ايوب واوقف على مستحقيها ٣٢ حانوتا .

٤ : المدرسة الفاضلية انشأها القاضي الفاضل عبدالرحيم سنة ٥٨٠، وجعلها لفقهاء الشافعية والمالكية .

٥ : مدرسة المحلى انشأها برهان الدين ابراهيم بن علي المحلى .

-١- تاريخ الخلفاء ص ١٨٥ ط بولاق .

-٢- الحوادث الجامعة ص ٥٣ .

٦ : المدرسة الفارقانية انشئت سنة ٦٧٦ وهي للشافعية والحنفية .

٧ : المدرسة الشريفية : انشأها أحد امراء مصر فى الدولة الايوبية سنة ٦١٢ وهي للشافعية .

٨ : المدرسة الصالحيـــة : أنشأها الملك نجم الدين أيوب سنة ٦٣٩ للفقهاء الأربعة .

٩ : المدرسة الكاملية : انشأها السلطان ناصر الدين محمد بن الملك العادل للشافعية .

١٠ : المدرسة الظاهرية : للشافعية والحنفية .

١١ : المدرسة القطبية : انشئت في القرن السابع بوصيـــة من الست عصمة الدين مونسة خاتون -١- .

ولا يسعنا ذكر بقيـة المدارس التي فى سائر الاقطار الاسلامية والغرض الاشارة الى عظيم تشجيع الدولة والأمراء لروح العلم وبثه في تلك العصور ونشره طبقاً للمذاهب الأربعة فقط ليلتزم الناس التمسك بها دون غيرها :

-١- انظر الخطط المقريزي ج ٤ من ص ١٩١ الى ٢٦٢

المذهب الجعفرى
نشأته وعوامل انتشاره

— ١ —

هو مذهب أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا وهو أقدم المذاهب نشأة وأقواها عاملا ، يستمد تعاليمه من الينبوع الاسلامي الفياض . القرآن الكريم وسنة نبيه ، وقد غرس النبي صلى الله عليه وآله بذرته ووجه الناس اليه بتعاليمه وارشاداته وعمل به عهد الصحابة ، وقام بنشره جماعة منهم كما يأتي بيانه ، واختصاصه بالامام الصادق للاسباب التي مرّ ذكرها عند حصول تلك الفترة السعيدة بين شيخوخة الدولة الاموية وطفولة الدولة العباسية ، وفيها اتسع المجال للامام الصادق (ع) وهو امام عصره فتوسع في بث الأحكام الإلهية ، ونشر التعاليم النبوية التي استقاها عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، عند رفع تلك الرقابة التي جعلها الامويون للحيلولة بين الامة وبين أهل البيت ، فاشتهر في ذلك العصر ذكر جعفر بن محمد وازدحم طلاب العلم على أبواب مدرسته ، وكثرت الهجرة اليها فنسب المذهب اليه في عهد ازدهار العلم ولم يكن المذهب الجعفري كسائر المذاهب الاسلاميـــة في تطور نشأته وعوامل انتشاره بل امتاز باستقلاله عن مقومات المادة ومؤازرة السلطة ، واستطاع بمؤهلاته الذاتية اخضاع الزمن واجتياز العقبات التي تقف في طريق نشره .

ولولا فيض من القدسية في مبادئه ، وقوة روحية في تعاليمه ، وعناية قبل كل شيء من الخالق الحكيم رحمة بهذا الخلق المتعوس ، لقضت عليه السلطات بمحاولتها القضاء عليه ، فكان نصيبها الفشل ونصيبه النجاح .

وقد اتضح لنا بالبحث عن المذاهب الاسلامية ودراساتنا للظروف التي تكونت فيها والعوامل الرئيسية لنشر البعض وخمول البعض الآخر ، انمـــا هو

لتدخل السلطة التنفيذية فقد أخذت على عاتقها نشر من ترتضيه منها ومعارضة المذهب الذي لا يروق لها نشره وكانت الأسباب التي أدت الى محو تلك المذاهب البائدة بعد شهرتها بين المسلمين هي عدم المؤازرة والترغيب من قبل الدولة .

أما مذهب أهل البيت فقد وقفت السلطات في مقابلته على ممر الأدوار والعصور وكان لكل دولة غايات تعمل على تحقيقها في مقابلة أهل البيت ، والوقوف فى طريق انتشار مذهبهم فى البلاد الاسلامية ، أما الدولة الأموية فكانت مدفوعة للمعارضة فى أمور ثلاثة :

١ ـ العداء للبيت النبوي عداء ذاتياً متأصلا ، توارثته الأبناء عن الآباء ولم يغير الاسلام من وجهة نظرهم هذه أي شيء بل يزداد حقدهم كلما زاد انتشار الاسلام بالصورة التي أرغمتهم على الدخول فيه استسلاما لا إسلاماً .

٢ ـ ان مذهب أهل البيت بانتشاره فى عهدهم وعدم معارضتهم له ، معناه الضربة القاضية على الدولة للتفاوت العظيم بين سياسة أهل البيت وسياسة الأمويين .

٣ ـ انهم بدون شك لا يجهلون أنفسهم ومؤهلاتها للخلافة الاسلامية ، ويعرفون الأمة واتجاه أنظارها لآل محمد صلى الله عليه وآله ولا توجد أي نسبة بين الأمويين وبين أهل البيت فاذا تركوا الامور تسير بمجراها الطبيعي كان بالطبع أن يتأخر فوز الأمويين بالخلافة (حتى يلج الجمل في سم الخياط) وهم يعلمون هـــذا فاتخذوا تلك التدابير لنجاح أمرهم وشاء الله أن يمتحن الخلق ويبتليهم ولا راد لمشيئته .

اما العباسيون ، فكانوا يشاركون الأمويين فى النقطتين الأخيرتين لأنهم لم يكونوا في بادىء الأمر أعداء لهذا البيت ، بل هم أنصارهم والمتألمين لما ينالهم

من الأذى، ولـكنهم كانوا يخافون على زوال ملـكهم ، عندما تشتد قوة الدعوة لأهل البيت وينتشر مذهبهم في الأقطار الاسلامية ، رغم تلك العوامل التي تقف ضده من الدولتين الأموية والعباسية .

— ٢ —

لم يبق معاوية في كنانة حقده سهماً إلا ورمى فيه أهل البيت فـكان يستعمل شتى الوسائل في مقابلتهم ويستميل الناس بكل حيلة لتحويلهم عنهم ، فـكانت أيامه موجة بلاء على الشيعة إذ استعمل معهم أقسى ما يتصور من الشدة والفوضى ، وعاقب المنظمين لجانب علي حتى دعته نفسه الى تتبع النساء العربيات اللاتي قمن بدورهن بالانتصار لأهل البيت ، والغضب على الأمويين فسجن من سجن وقتل من قتل منهن ، واحضر من تمكن على احضارها بمجلسه في الشام .

ولقيت الشيعـة في عهده اضطهاداً ، وكانوا في كل آونة يترقبون في عهده الموت أو السجن . هكذا حاول معاوية ان يقضي على مذهب أهل البيت ولـكن جهوده أفضت الى عكس المقصود فكلما ازداد في سخطه ازداد الناس تمسكاً باهل البيت لعلمهم بانه لا يدعو إلا للباطل وأهل البيت على الحق .

فانتشر مذهب أهل البيت في عاصمة الامويين في عهـد معاوية وازداد انتشاره على ممر العصور ، وان أول من نشر المذهب في الديار الشامية هو الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري فقد قام بدوره في نشر تعاليم الاسلام ، واظهار الانكار على معاوية ، وكاد أن ينتصر لولا استغاثة معاوية بعثمان فاجابه لما طلبه من اخراج أبي ذر ليصفو له الجو فكان نصيبه التبعيد عن دار الهجرة ، وموته وحيداً بالربذة.

ولم يقض معاوية على تلك الحركة الاصلاحية التي قام بها أبو ذر بل توسعت بصورة أرغمته على أثارة العصبية بين القبائل وبث روح التفرقة بين الناس وبذل كل مافي وسعه فى مقابلة علي وانصاره كما تقدم . وتقف الكوفة التي هي أهم مراكز الاسلام ويعترف الأمويون بخطرها على الدولة موقف المعارضة والانكار للاوضاع الشاذة التي ارتكبها ولاة الأمر ، ويترأسهم الصحابي الجليل حجر بن عدي وخلص أصحابه ، فقاموا يطالبون بالحق وينتصرون للعدل ويتألمون لهجر تعاليم الاسلام والخروج على نظامه المقدس وينبهون الأمويين على تلك الأخطاء التي ارتكبوها ، المخالفة لاحكام الاسلام بصورة واضحة بما لا مجال للدفاع عنهم ، فكان موقف الدولة موقف تريث وتأنيب واستعمال طرق الاقناع لزعماء هذا الحزب عسى أن يتحولوا عن هذا الرأي ، ويسالموا معاوية ويكونوا فى جملة المؤيدين لسياسته . ولكن الأمر يزداد شدة وتوتر العلاقات ويكثر الناقمون عندما أعان الوالي على المنبر الزام الناس بالبراءة من علي وشتمه وهم يرون أن علي بن أبي طالب هو بطل الاسلام وناشر دعوته وانه أقرب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وأقرب الناس اليه .

ولما ولي زياد الكوفة استقر رأيه ورأي معاوية على الوقيعة بهم فزوروا شهوداً ـ وما أكثرهم فى ذلك العهد ـ من الذين استخدمهم معاوية بصلاته فشهدوا على حجر (١) وأصحابه بما يستطيعون ان يردوا بعض الانكار عنهم فكانت

(١) حجر بن عدي بن معاوية بن جبلة بن الأدبر كان من فضلاء الصحابة ومن شيعة علي (ع) وحضر معه حروبه وكان على كنده يوم صفين ، وعلى الميسرة يوم النهروان ، حمله زياد بامر معاوية فى اثنى عشر رجلا موثقين فى الحديد فقتل معاوية ستة منهم حجر واستحيا ستة وأوصى حجر من حضر من أهله أن لا تطلقوا عنى حديداً ولا تغسلوا عنى دماً فانى ملاق معاوية غداً على الجادة ، وكان قتله فى مرج عذراء سنة احدى وخمسين انظر الاستيعاب ج ١ ص ٣٥٨ بهامش الاصابة .

خاتمة مطاف حياتهم في مرج عذراء بتلك الصورة المؤلمة .

ولقيت الأمة في سبيل الانتصار للحق والانضمام لجانب أهل البيت وهم أهله ، أنواع العذاب . أما أهل البيت أنفسهم فكانوا في الدور الاموي ـ دور الارهاب والظلم ـ يلاقون المصائب ، وينظرون الى الامة أسرعت بخطاها وراء تلك الفئة الباغية التي لا تريد إلا محو الدين ، والقضاء على نواميسه المقدسة ، طمعاً في دنياهم ، ورغبة في نائلهم ، وتزلف الناس اليهم ، بالعداء لآل محمد صلى الله عليه وآله ، وتطوع آخرون لنصرتهم بضرب الأحاديث المكذوبة على صاحب الرسالة ، استجابة لاقتراح معاوية ، واتباعاً لاوامره التي أصدرها بلاطه الجائر ، فكانت هناك مجموعة أحاديث كلفت بيت مال المسلمين مئات الآلاف من الدنانير ، وقليلا ما يبذلون ، فان اولئك الدجالون يبيعون عليهم دينهم ، وانهم يريدون ان يجعلوا من الفارة جملا ، ويحاولون ادخال الأسد في البيضة ، يريدون أن يجعلوا من وليد بيت الشرك ، ورضيع ثدي الفجور ، شخصية تعترف الامة بانها شخصية روحانية طاهرة مطهرة ، تمنحه الامة ثقتها ، وتنقاد له بدافع العقيدة وهذا أمر لا يكون . انهم يريدون أن يجعلوا لمعاوية حق وراثة النبي صلى الله عليه وآله وتولي سلطانه ، وهو عدوه الألد ، انهم يريدون ان يجعلوا من أبي سفيان شخصية اسلامية تتفانى في نصرة الدين وهو هو لا يجهل أحد حاله ، ويريدون أن يلبسوا هنداً ثوب الطهر والعفاف ، لتصبح رمزاً للفضيلة ، ومثالا للعفة اذاً :

لمن الصبي بجانب البطحاء ... في الترب ملقى غير ذي مهد ؟

ومن هذا وذاك فان قبول مثل هذه الامور تحتاج الى قوة تسيطر على

العقل وتفقده التمييز وتطفيء شعلته ، ولا يستبعد ما للمال من عوامل مؤثرة ، فهي في الواقع أقوى من عامل السيف ، ولذلك أصبحت تلك المفتريات لها أثرها ، وطابعها الخاص ، واذا بمعاوية تحاك له أحاديث المدح ، واذا به (أمين هذه الامة) وهو الخائن بعينه وأمير المؤمنين ، وما ذاق طعم الايمان ، وما دخل الاسلام قلبه (وما كان اسلامه اسلام الجنان بل اسلام الشفة واللسان) ويصبح خصماً لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حتى عدّ ذلك من أعظم مصائبه فقال : (انزلني الدهر حتى قيل علي ومعاوية) وابو سفيان مع صراحته بالكفر ، ووسمه بالنفاق ، وجهره بما لا يشك عاقل بانه كافر ، أصبح بمقتضى تلك الأوضاع المقلوبة مسلماً صحابياً له مكانته ومناقبه .

وأبو طالب مع بذله الجهد في دعوة الحق ، وتفانيه بالدفاع عن محمد صلى الله عليه وآله بدافع العقيدة لا العاطفة وموجات الحق ، تردد اناشيده وترسمها على لوحة الخلود :

ولقد علمت بأن دين محمد   من خير أديان البرية دينا

وساند النبي صلى الله عليه وآله في دعوته وبذل أقصى جهده في حمايته ، وأعز الله جانبه فيه ، وألجم أعداءه عن مقابلته ، كيف يصبح كافراً ولا ينطق بشهادة أن لا إله إلا الله ، وتذهب أتعابه سدى وتسند اليه كلمة الكفر ؟ وماذلك إلا رغبة لنوال من لا رغبة له إلا أن ينال من علي عليه السلام ويحاول ان يخمل ذكره ، ولا ترضى نفس ابن ابي سفيان ان تكون لعلي تلك السلسلة الطاهرة التي لم تنجسها الجاهلية بارجاسها وهو والرسول الأعظم ركيضا رحم ، ورضيعا لبن .

ومعاوية يعلم نفسه من هو وابن من ، فتمكن بمكره وخدعه ، وجاب ما استطاع بخيله ورجله في تركيز هذه الفكرة ، وما ذنب ابي طالب ولم

يبق في كنانتـــه سهما إلا رماه في نصرة الدين ، ولـكن عليا هو منبع تلك المؤاخذات المكذوبة على أبي طالب ، وما ذنب علي إلا انه على الحق ومعاوية على الباطل ، فعداء معاوية لعلي (عداوة جوهرية يستحيل تحويلها . هي عداوة الشر للخير والخبيث للطيب والباطل للحق والـكفر للايمان) .

— ٣ —

نشأ مذهب أهل البيت وتكوّن فى عهد صاحب الرسالة صلى الله عليه وآله فهو أول من وضع بذرة التشيع في حقل الاسلام يوم غرس دوحة شريعته الغراء جنباً الى جنب وسواء بسواء ، ولم يزل غارسها (ص) يتعاهدها بالسقي والعناية حتى ثبتت ونمت في حياته ثم أثمرت بعد وفاته حيث كان يتعاهدها أهل بيتـــه وخلّص أصحابه ، وقد قام كل بما يجب عليه من رعايتها وتحمل ماتحمل من نكبات واضطهاد فى سبيل حفظها ، وقاوم تلك السلطات التي كانت تحاول القضاء عليها لمحو ذكر آل محمد (ص) ، وقد وقفوا امام تلك التيارات وقفـة اخلاص وايمان وثبات على مبدأ الحق ، ولم يأبهوا يوماً ما بسلطة أو سياسة ، ومرت تلك الأدوار العصيبة المظلمة ولم يزل ذلك الغرس ثابت الجذور نامي الفروع يسقى من ماء غير آسن ، حتى أفرعت دوحته وامتدت أغصانه وأينع ثمره بحفيـد النبي الـكريم ووارث علمه الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام .

كان الامام الصادق (ع) مشغولا فى تلك الفترة المارة الذكر ببث العلوم ونشر المعارف الاسلامية ، وقد هيأت له الظروف المواتية ما أمكنه بها أن ينشر رسالته في عصر لم يتهيأ لامام قبله أو بعده مثلها ، فاقبل الناس على مدرسته وازدحموا على أبوابها ينتهلون من علومه ويقتبسون من أنوار معارفه حتي كثر

تلاميذه والمنتمون الى مدرسته فكان عددهم أربعة آلاف ، وكثر التأليف فى عصره ودوّن فقه أهل البيت وحديثهم بصورة واسعة حتى أحصي مادونوه في عصره فكان أربعمائة مؤلف لاربعمائة مؤلف ممن سمعوا الحديث منه ، فدونوه وعرفت بالاصول الاربعمائة (١)

وبالجملة فان الغرض هو بيان ان مذهب أهل البيت لم يكن حادثاً بل أقدم المذاهب نشأة وأثبتهم أساساً وأحقهم دعوة .

وإني لأعجب — وأيم الحق — ممن يتصف بالعلم والمعرفة ويشتهر بالاطلاع الواسع بتدوين تاريخ الحوادث ، ان يجهل هذه الحقائق وتعميه العصبية عن عن الاهتداء لطريق الصواب فيظلم الحقيقة غير منصف ، ويغير الواقع لاغراضه ورغباته النفسية أو تقليده لاسلافه دونما تروٍ أو بصيرة وقد شذ كثير عن الواقع بتحاملهم على آل البيت ومحاولتهم اطفاء نورهم الساطع بحجاب يشف عما وراءه .

وإني لأعجب كل العجب من رجل اشتهر في التاريخ وأؤتمن على نقل الحوادث كابن خلدون ، بنسبة مذهب أهل البيت الى الشذوذ حيث يقول في مقدمته :

« وشذ أهل البيت بمذاهب ابتدعوها ، وفقه انفردوا به ، ونوّه على مذاهبهم ، في تناول بعض الصحابة بالقدح » –٢– « كبرت كلمة تخرج من أفواههم » .

ولم يكن رأي هذا الرجل المشهور في ابدائه رأيا من عند نفسه أقنعته التجربة ، وأيده العلم بالصحة ولكنه كان من وحي نزعة التعصب الطائفي ، هبط

---

(١) سيأتي بيان هذه الاصول عند ذكر تدوين الفقه الجعفري .

–٢– انظر مقدمة ابن خلدون ص ٢٧٤ .

عليه شيطانها فصدع به ، اداء لأمانة التبليغ فما كان أعظمه من جرم ، وما اشق الأمة بالاقتناع به ، وقد طبعت مقدمته عدة مرات فلم يلتفت أحد الى التنبيه على هذا الخطأ الفاحش.(١)

ولقد خضع ابن خلدون لمؤثرات العاطفة خضوع العبد لسيده الجائر وهذه الكلمة هي التي بعثتنا على خوض غمرات البحث والتعرف على المذاهب ، وعوامل انتشارها ، وأسرار نجاح المذاهب الأربعة وأسباب خلودها دون غيرها من مذاهب المسلمين ، فاتضح لنا ان ذلك مستنداً الى دواعي السلطة ، واغراء المادة ، التي من أجلها نسي ابن خلدون نفسه ، فجرى قلمه بظلم الحق والحقيقة ، ولا يستبعد ذلك من انسان تربع على دست قضاء دولة لا ترغب في اظهار فضل آل محمد (ص) اسوة باخواتها التي سارت على ذلك من قبل فهو عبد لسلطانه ، وأسير لشيطانه ، والوقت أثمن من صرفه بنقاشه ، وستعرف شخصية ابن خلدون عندما عرّ بك موكب القضاة.

ورأي ابن خلدون هذا لا ينبعث إلا عن جهل ، أو عقل أعمى لا يبصر الحقائق ، فان لم يقتنع هذا المؤرخ الشهير بالقرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وآله في اختصاص آل محمد بمؤهلات تلزم الامة باتباعهم ، فليقتنع بشهادة التأريخ الذي اشتهر هو به ، إذا جعل القرآن وراء ظهره ، وضرب باحاديث الرسول عرض الجدار ، فيجد هناك مواقف آل محمد في الدفاع عن الاسلام ، وتفانيهم في نشر تعاليمه ، ومحاربة ذوي العقائد الفاسدة ، وقيامهم بتعليم الأمة مستمدين من الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بما لا مجال للشك في ذلك ، ولكنه لم يقتنع بكل شيء للعقيدة الارتكازية التي ورثها من الآباء والأمهات ، ولأثر البيئة الاجتماعية ، والاطماع الدنية . حوّر الآراء ونقل الحوادث عن غير

(١) وقد رد عليه سيدنا شرف الدين في فصوله المهمة فراجع .

طريق الواقع ، وصبها في قالب رغباته ورغباتهم ، وتساهل فى إبداء الحقيقة ، وجعلها في طيات الخفاء والكتمان .

فى أدوار التاريخ

كانت سيطرة الطبقة الحاكمة تلجيء المفكرين على كبت الشعور وتلجم الألسن عن قول الحق ومن التجأ الى المعارضة فقد عرّض بنفسه الى السخط وجعلها هدفاً للنقمة ، وبذلك ضاعت أكثر الحقائق وأثرت تلك السيطرة على سير المسلمين وتقدمهم لعدم الحرية في الرأي والعقيدة كما قرره نظام الاسلام ، ولولا ذلك لما حدثت تلك الحوادث التي أخرت المسلمين ، فقد كان اولئك القوم يلتجئون دائماً الى خلق مشكلات يفرقون بها كلمة الامة ويثيرون الشحناء ويشغلون الافكار لاستخدام الاكثر لمصالحهم الذاتية وقد أجهدوا أنفسهم بربط العقائد في دستورهم الذي يتمشى مع رغباتهم ، وان أهم مشكلة فى تاريخ الاسلام هي مشكلة الخلافة أو الاعتقاد بالامامة بانه منصب إلهي كالنبوة . فكما ان الله سبحانه يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة ويؤيده بالمعجزة التي هي كنص من الله عليه فكذلك يختار للامامة من يشاء ويأمر نبيه بالنص عليه فالنبي (ص) مبلّغ عن الله والامام مبلغ عن النبي (ص) .

وبدون شك أن تلك المنزلة لم تحصل إلا لعلي وولده والامامة متسلسلة فى اثني عشر اماماً كما نص النبي (ص) على ذلك . ومن المعلوم ان الشيعة لا ترى تلك الخلافة الإلهية لغير علي وبنيه ، ولا يسعنا التعرض لبحث الامامة ولكننا

نريد الاشارة بهذه العجالة الى الادوار التاريخية التي سار فيها شيعة آل محمد (ص) في المحافظة على وصاية النبي (ص) من التمسك بالكتاب والعترة .

وقد قام أصحاب محمد (ص) في نشر تلك الدعوة في الصدر الأول وتحملوا ما تحملوا في سبيل ذلك ، ومن ذكر الدور الاموي وما لقي فيه آل محمد (ص) وشيعتهم من الاضطهاد والمحنة فلا نتعرض للبيان باكثر من ذلك .

ويجدر بنا الاقتصار على ذكر العصور والأدوار المتأخرة عن ذلك العهد .

— ١ —

كان من نتائج تلك الحركة الفكرية الواسعة النطاق والنهضة العلمية التي ازدهرت فى عصر الامام الصادق ﴿ع﴾ هو انتشار مذهب أهل البيت في الأقطار الاسلامية .

وكانت الدولة العباسية فى طفولتها تعارض حركة انتشار المذهب من وراء الستار إذ ليس في امكانها التظاهر في المعارضة لأنهم فى حاجة ملحة لاستمالة أعيان أهل البيت والاستعانة بزعماء الشيعة لتثبيت أركان الدولة .

ولم يكن هناك شهرة لأحد سوى الامام الصادق ﴿ع﴾ والتأريخ يدلنا بوضوح على ذلك .

أما مالك بن أنس فقد كان فى حياة الامام كأحد رجال المدينة ولم ينتشر ذكره إلا فى سنة ٤٨ وهي سنة وفاة الامام الصادق ، وكان ضربه بالسياط واهانته فى سنة ١٤٦ أي قبل وفاة الامام الصادق باقل من سنتين ، وبعد سنة ١٤٨ وجه المنصور نظره نحو مالك وبرز بتلك العبقرية وأمره أن يضع كتابا يحمل الناس عليه ويوزع نسخاً في الامصار ولا يكون غيره .

وكان غرض المنصور فى ذلك معارضة انتشار مذهب أهل البيت لأنه يثقل عليه تخليد ذكر جعفر بن محمد (ع) وقيام ولده الامام موسى بن جعفر بعده والتفاف الناس حوله حتى لقبوه بالعالم وهو هو في زهده وورعه وعلمه ، ولم يغب عن مالك مغزى هـذا التكليف فاجابه : يا أمير المؤمنين لاتفعل، أما هذا الصقع فقد كفيتكه ، وأما الشام ففيه الرجل الذي علمته يعني الاوزاعي ، وأما أهل العراق فهم أهل العراق . فكان المنصور يشد أزر الاوزاعي ويراسله ويلحظ مالكا ويواصله حتى ازدحم الناس على باب داره التي أصبحت كأبواب دور الملوك ، وبذل جهده بالانتصار الى اهل الرأي يأمل من وراء ذلك كله القضاء على مبادىء أهل البيت . ولما اشتد جانب الدولة وقوي ساعدها أظهر ما كان يضمره فاعلن مقاومة أهل البيت ومعارضـــة انتشار مذهبهم وشدد النكير على أهله .

وكان المنصور يأمل بالامام ابي حنيفة عندما رعاه بعنايته ونصره وقدمه على كثير من الفقهاء ان يوجد منه شخصية علمية تقف امام تيار مذهب جعفر بن محمد (ع) ولـكنه قد خاب امله . فهذا الامام ابو حنيفة يصرح للملأ بأنه ما رأى أعلم من جعفر بن محمد (ع) وانه أعلم الامة -١- وسأله رجل يوماً عن رجل وقف ماله للامام فمن يكون المستحق ؟ فاجاب أبو حنيفـة : المستحق هو جعفر الصادق لأنه هو الامام الحق -٢- .

وذهبت تلك المحاولات بالفشل ولم يزل المذهب يتسع في الاقطار وينتشر فى العواصم وكثرت اتباعه رغم تلك المحاولات والخطط التي خطها المنصور ومن

-١- جامع أسانيد ابي حنيفة ج ١ ص ٢٢٢

-٢- تاريخ العلويين محمد امين غالب ص ١٤٠

بعده المهدي والهادي والرشيد ، وقد بذل الرشيد كلما في وسعه من توجيه انظار الناس عن آل محمد وأظهر تعظيم مالك بن انس فكان يجلس بين يديه تأدبا يتعلم منه العلم ويأمر أولاده وخواصه باحترامه ويقرب الفقهاء وينظر الى الشافعي نظر عطف وحنان لأنه قرشي ، وأرسله الى مصر صحبة الوالي وأمره باحترامه وإكرامه وتقريب أصحابه واعطاه سهم ذي القربى .

واذا به يعامل اهل البيت بتلك الشدة والقسوة ، من تتبع انصارهم ، والقضاء على من اتهمه في موالاتهم ، حتى ثقل عليه ان يكون علياً رابع الخلفاء ، فحاول ان ينفي ذلك ويعاقب من يثبته ، قال ابو معاوية : دخلت على هارون الرشيد فقال لي يا ابا معاوية : هممت انه من اثبت خلافة علي فعلت به وفعلت ، قال : فسكت فقال لي : تكلم قلت ان اذنت لي تكلمت قال : تكلم ، فقلت : يا امير المؤمنين ، قالت تيم منا خليفة رسول الله ، وقالت عدي: منا خليفة خليفة رسول الله ، وقالت بنو امية : منا خليفة الخلفاء ، فاين حظكم يا بني هاشم من الخلافة ؟ والله ما حظكم إلا ابن أبي طالب -١- وبهذا استطاع ابو معاوية ان يصرف الرشيد عن رأيه .

واستعمل في معاملة اهل البيت مالا يستعمله احد وفيه صبابة من الانسانية ، سجن الامام موسى بن جعفر عليه السلام وهو عالم عصره ، ومن له السلطة الروحية ، وضيق عليه حتى قتله بالسم ، وتتبع بقية أهل البيت وشيعتهم ، وطلبهم تحت كل حجر ومدر ، وكان بحكم السياسة العمياء التي لا تعرف إلا غايتها ، ولا تفرق بين الحق والباطل ، ولا ترى سوى السيطرة على الناس فحسب ، باي طريق وباي نوع كان ، فحمل الناس على العداء لآل محمد ، وحاول قلع بذرة حبهم التي

-١- تاريخ بغداد ج ٥ ص ٢٤٤ .

غرسها الرسول ، وسقاها بماء غديره العذب ، تلك البذرة الطيبة التي اينعت فاثمرت وجنى ثمرها رجال العلم ، وصلحاء الامة ، رغم تلك المحاولات والجهود الجبارة التي بذلها العباسيون يطلبون من وراء ذلك استقرار ملكهم بالوراثة الشرعية ، بادعائهم دون آل علي .

دخل شريك القاضي على المهدي . فقال له المهدي ما ينبغي ان تقلد الحكم بين المسلمين ، قال : ولم ؟ قال : لخلافك على الجماعة . وقولك بالامامة . فقال : اما قولك بخلافك على الجماعة ، فمن الجماعة اخذت ديني . فكيف اخالفهم وهم اصلي في ديني ؟ واما قولك بالامامة ، ما اعرف إلا كتاب الله وسنة رسوله . واما قولك : مثلك ما يقلد في الحكم فهذا شيء انتم فعلتموه ، فان كان خطأ فاستغفروا الله منه ، وان كان صوابا فامسكوا عليه ، قال ما تقول في علي بن ابي طالب ؟ قال : ما قال فيه جدك العباس وعبد الله ، قال : وما قالا فيه ؟ قال : فاما العباس فمات وعلي عنده أفضل الصحابة ، وقد كان يرى كبراء المسلمين يسألونه عما ينزل من النوازل ، وما احتاج هو الى احد حتى لحق بالله ، واما عبد الله فانه كان يضرب بين يديه بسيفين . وكان في حروبه سيفاً منيعاً وقائداً مطاعاً ، فلو كانت امامته على جور ، كان اول من يقعد عنها ابوك لعلمه وفقهه في احكام الله ، فسكت المهدي ولم يمض بعد هذا المجلس إلا قليلا حتى عزل شريكا .

— ٢ —

تغلب المذهب الجعفري على سائر الاقطار الاسلامية ، فقد كان له في بغداد من القوة والنشاط ما استطاع ان يقاوم الدولة التي كانت تنظم في اغلب

الأحيان الى جانب خصوم الشيعة ، وكان فيهم من كثرة العدد وعدة القوة ما جعلهم يستطيعون اقامة الشعائر الدينية بدون خفاء وتكتم ، وكانت الدولة تعد هذا التظاهر تهديداً لها وخطراً عليها . وفي أيام المأمون كانت الغلبة للمذهب الجعفري فى جميع الاقطار بل امتدت دعوة التشيع الى رجال الدولة أنفسهم فكان منهم الوزراء والامراء ، وقواد الجيش والكتاب ، ورؤساء الدواوين ، الامر الذي دعا المأمون ان يلجيء الى التظاهر فى التشيع والميل الى العلويين ، لأنه خشي على زوال ملكه فدعا الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام الى البيعة ، وتنازل له عن العرش ، ولكن الامام ردّ هذه الدعوة .

وقبل ولاية العهد بعد أخذ ورد ، واكثر المأمون عقد المجالس للمناظرة في الامامة وقد نجح بما دبّره في سياسته ودهائه ، إذ استمال قلوب الشيعة وامن ثورة العلويين المتوقعة .

وفي ايام المعتصم التجأ الشيعة الى التكتم نوعا ما ، ونراهم يخرجون على الدولة بعدة كاملة ، وقوة لم تستطع الدولة لمعارضتهم ، وذلك عندما استخرجوا جنازة الامام الجواد عليه السلام عندما حاول دفنه سراً ، ولا يسمح لأحد في تشييعه ، ولكن الشيعة خرجوا بذلك الموكب المهيب ، والسيوف على عواتقهم ، فشيعوا جنازة الامام رغم معارضة السلطة .

واشتد الأمر وعظمت المحنة في ايام المتوكل العباسي فكان بغض علي وشيعته يأكل قلبه كما تأكل النار يابس الحطاب ، وكان لا يذوق طعم الراحة ولعلي ذكر في الوجود ولشيعته مجتمع زاهر بالعلم محتفظ بكرامته ، مستقل بمواهبه منفصل عن الدولة ، وتتبع العلويين وحط من كرامة أهل البيت ولم يسمح لأي احد ان يذكرهم بخير . ولما حدث نصر بن علي الجهضمي بحديث عن النبي (ص)

انه اخذ بيد الحسن والحسين وقال : (من احبني واحب هذين واباهما وامهما كان معي في درجتي يوم القيامة) ، فامر المتوكل بضربه الف سوط الى ان كلمه جعفر بن عبد الواحد بان نصراً لم يكن شيعياً وانما هو من اهل السنة ، فضرب خمسماءة سوط وعفى عن الباقي -١-

يحدثنا المقريزي : ان يزيد بن عبد الله امير مصر ، امر بضرب جندي تأديباً لشيء صدر منه ، وكان عقابه خفيفاً . وعندما احس الجندي بألم الضرب . اقسم على الامير بحق الحسن والحسين ان يعفو عنه ، فامر الامير بضربه ثلاثين سوطاً جزاءً لهذا القسم ، وكتب الى المتوكل في بغـــداد يخبره بخبر الجندي فورد الكتاب على يزيد يأمره بضربه مأة سوط وحمل الى بغداد -٢- . ولو يدري لأي حال انتهت حاله ولعل النطع والسيف كانت خاتمة المطاف .

وامر بضرب احمد بن محمد بن عاصم صاحب خان عاصم الف سوط ، لاتهامه بسب الشيخين حتى مات. قال في الحضارة الامية نقلا عن المنتظم : وكانت الحكومة اذا ارادت ان تعاقب شيعياً لمذهبه لم تذكر اسم علي بل يجعل سبب العقوبة انه شتم ابا بكر وعمر -٣-

وما اكثر من عوقب بهذه المادة بدون تطبيق . ولكن انصار المتوكل وحزبه الذين يرون البغض لعلي وشيعته تقربهم اليه زلفاً. نالوا بذلك إربهم في الدنيا وعقابهم في الآخرة .

والغرض ان المتوكل اشتد في العـــداء لاهل البيت والنيل منهم .

-١- الخطيب ج ٢ ص ٢٨١ .
-٢- الخطيب ج ٤ ص ١٥٣ .
-٣- سيأتي زيادة بيان في هذا الموضوع .

واستقدم ابا الحسن الهادي عليه السلام من المدينة الى سامراء في سنة ٢٣٦ وعامله بالشدة والأذى وتوصل المنحرفون عن آل علي الى اساءة الامام الهادي فسعوا به الى المتوكل وأخبروه ان في منزله سلاحا وكتباً من شيعته فهجموا عليه داره ليلا ولم يعثروا على أي شيء من ذلك وما زال الامام الهادي مقيما في سامراء الى أن مات مسموماً سنة ٢٥٤ وكانت مدة اقامته فيها ١٨ سنة .

— ٣ —

مرت الأدوار ، وتعاقبت السنين ، والشيعة يلاقون الأذى ويخوضون غمار الحروب ويواجهون المصاعب ويتجرعون من ولاة الأمر ضروب المحن ، كل ذلك في سبيل نصرة آل محمد (ص) ونشر مذهبهم على وجـــه البسيطة ومادفعهم الى تحمل ذلك إلا حبهم لآل محمد (ص) وامتثالهم لأوامره صلى الله عليه وآله في المحافظة عليهم ووصاياه المتكررة في اتباعهم . ولقد بذل الشيعة كلما في وسعهم لنصرة أهل البيت الذين عنهم يأخذون معالم دينهم ، وكانوا فى هذه الادوار يتصلون بمدرسة أهل البيت مهما كلفهم الأمر ، فلا يقعد بهم خوف ظالم ولا تحول دونهم ودون الاتصال بهم تلك الارهابات التي اتخذها اعداء آل محمد (ص) وسيلة لفصل الامة عنهم ، فهم من زمان علي (ع) الى زمان الامام الحسن العسكري يأخذون عنهم معالم الدين الى ان وقعت الغيبة الصغرى . وسيأتي بيان ذلك عند ذكرنا للنهضة العلمية عند الشيعة بعد عصر الأئمة (ع) وكان الامام العسكري قد جلبه المتوكل مع أبيه علي الهادي الى سامراء ، وما زال مع أبيه الى ان التحق أبوه بالرفيق الأعلى ، وبقي مدة إمامتـه القصيرة فى سامراء ست سنين فى نكد وأذى ، وانفرد بعد أبيه بما يقصده به العباسيون من الاساءة والغض من مقامه

والتضييق عليه والسجن الى ان اغتاله المعتمد العباسي بالسم ، وقبض فى سامراء لثمان خلون من ربيع الأول سنة ٢٦٠ ودفن مع أبيه فى دارهما حيث قبرهما الآن، وكان عمره الشريف ثمان وعشرين سنة .

وفى ذلك العهد كان مذهب أهل البيت ينتشر في البلاد الاسلامية وأصبحت قم من عواصم العلم للشيعة وفيها من الرواة عن أهل البيت عدد كثير ، ومن المؤلفين في الحديث والفقه وفنون العلم جم غفير ، وكذلك الكوفة وبغداد والمدائن وسامراء والشام عاصمة الامويين كما سيأتي بيانه .

وان تمسك الشيعة بمذهب أهل البيت، لا لتحزب أو تعصب ، ولا لطعن في مذاهب المسلمين أو حط في كرامة أحد من أئمة المذاهب ولكن الادلة الشرعية أخذت باعناقهم، لوجوب الأخذ بمذهب أهل البيت لحكم الأدلةالقاطعة وتعبداً بسنة سيد النبيين (ص) . ولو وجدوا طريقاً للأخذ عن غيرهم لاتبعوه ، ولم يتحملوا المحن فى سبيل اتباعهم ولكن لا طريق الى ذلك بل وجدوا الحق معهم والحق أحق أن يتبع ، ولأنهم عليهم السلام كانوا يمثلون الرسول (ص) فى خُلقه وهديه وورعه وزهده . فهم عدل القرآن متكاتفين معه يمتثلون أوامره ويسارعون الى تنفيذه ، واطلعوا على أسرار أحكامه ودقائق أطواره والقرآن قد اشاد بفضلهم .

ولقد بذلوا جهدهم في تعاليم الناس، وبذلوا لهم النصح ليرشدوهم الى طرق السعادة ، وقد نشروا العلم والعدل وقاوموا الجهل والظلم ، وليس هذا مجرد فرض وانما هو أمر واقع وحقيقة ظاهرة لا يمكن انكارها ، ووجد الناس فيهم أئمة هدى « لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه وهم دعائم الاسلام وولائج الاعتصام بهم عاد الحق الى نصابه وانزاح الباطل عن مقامه عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية

لا عقل سماع ورواية فان رواة العلم كثير ورعاته قليل » .

وهم أهـل بيت النبوة وموضع الرسالة ومهبط الوحي ولم تسمح الادلة بمخالفتهم والأخذ عن غيرهم .

وقـد صرّح النبي صلى الله عليه وآله بوجوب اتباعهم والتمسك بهم في مواطن عديدة .

أخرج الطبراني في مسنده بالاسناد الى ابن عباس قال قال : رسول الله صلى الله عليه وآله : « من سره أن يحيى حياتي ويموت مماتي ويسكن جنة عدن غرسها ربي فليتول علياً من بعدي وليوال وليه وليقتد باهل بيتي من بعدي فانهم عترتي خلقوا من طينتي ورزقوا فهمي وعلمي فويل المكذبين بفضلهم من امتي القاطعين صلتي لا أنالهم الله شفاعتي » -١-

وقال صلى الله عليه وآله : « في كل خلف من امتي عدول من أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين وانتحال المبطلين . وتأويل الجاهلين ، ألا وإن أئمتكم وفدكم الى الله فانظروا من توفدون » -٢-

وقال صلى الله عليه وآله : « فلا تقدموهم فتهلكوا ولا تقصروا عنهم » .

وقال صلى الله عليه وآله : « اجعلوا أهل بيتي منكم مكان الرأس من الجسد ومكان العينين من الرأس ولا يهتدي الرأس إلا بالعينين » -٣-

وقال صلى الله عليه وآله : « اوصي من آمن بي وصدقني بولاية علي بن أبي طالب فمن تولاه فقد تولاني ، ومن تولاني فقد تولى الله ، ومن أحبه فقد أحبني

-١- أخرجه أحمد في مسنده .

-٢- أخرجه ابن حجر في صواعقه .

-٣- أخرجه جماعة من الحفاظ عن أبي ذر الغفاري .

ومن أحبني فقد أحب الله ، ومن أبغضه فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض الله » .

وقال صلى الله عليه وآله : « اللهم من آمن بي وصدقني فليتول علي بن ابي طالب فان ولايته ولايتي وولايتي ولاية الله » .

وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن ابن عباس قال : قال رسول الله (ص) : ما أنزل الله آية وفيها « يا أيها الذين آمنوا » إلا وعلي رأسها وأميرها . واخرج عن حذيفة قال : قالوا : يا رسول الله ألا تستخلف علياً ؟ قال : إن تولوا علياً تجدوه هاديا مهديا يسلك بكم الطريق المستقيم -١- وأخرج بطريق آخر عنه صلى الله عليه وآله : إن تستخلفوا علياً وما أراكم فاعلين ، تجدوه هاديا مهديا يحملكم على المحجة البيضاء ، وأخرج النسائي فى الخصائص من طريق عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وآله قال : ما تريدون من علي ؟ إن علياً مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن من بعدي -٢- وأخرج أيضاً من طريق أم سلمة قالت: سمعت رسول الله يقول : من سب علياً فقد سبني -٣- وأخرج عن حبشي بن جنادة السلولي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله علي مني وأنا منه فلايؤدي عني إلا انا أو علي .

وأخرج الحاكم من طريق أبي ذر عن النبي انه قال : « من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن أطاع علياً فقد أطاعني ومن عصى علياً فقد عصاني » ،

-١- ج ١ س ٦٤

-٢- انظر الخصائص ص ٣٢ ط مصر

-٣- نفس المصدر ص ٢٤ .

وأخرج أيضاً من طريق ابي ثابت مولى ابي ذرعن أم سلمة عن النبي(ص) انه قال : « علي مع القرآن والقرآن مع علي لن يفترقا حتى يردا علي الحوض » -١-

وعن ابن عباس قال كنا نتحدث ان افضى أهل المدينة علي بن ابي طالب

وعن ابي هريرة : قال : قال عمر بن الخطاب : لقد أعطي علي بن ابي طالب ثلاث خصال لإن تكون لي خصلة منها أحب إلي من أن اعطى حمر النعم قيل وما هن يا أمير المؤمنين ؟ قال : تزويجه فاطمة بنت رسول الله (ص) وسكناه المسجد مع رسول الله (ص) يحل فيه مايحل له .

وأخرج الحاكم أيضاً قال : كنا مع رسول الله فانقطعت نعله فتخلف علي يخصفها فمشى قليلاثم قال : إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله فاستشرف لها القوم وفيهم ابو بكر وعمر قال ابو بكر : أنا هو ؟ قال : لا ، قال عمر : أنا هو ؟ قال : لا ، ولكن خاصف النعل يعني علياً فاتيناه وبشرناه فلم يرفع رأسه كأنه سمعه من رسول الله (ص) -٢-

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : فاين تذهبون وأنى تؤفكون والأعلام قائمة والآيات واضحة والمنار منصوبة فاين يتاه بكم بل كيف تعمهون وبينكم عترة نبيكم وهم ازمة الحق وأعلام الدين وألسنة الصدق فانزلوهم منازل القرآن وردوهم ورود الهيم العطاشى . أيها الناس خذوها من خاتم النبيين إنه يموت من مات منا وليس بميت، ويبلى من بلي منا وليس ببال ، فلا تقولوا بما لا تعرفون فان اكثر الحق فيما تنكرون ، واعذروا من لاحجة لكم عليه وانا هو ، ألم أعمل

-١- انظر المستدرك ج ٢ ص ١٢٢

-٢- نفس المصدر ولهذه الأحاديث طرق كثيرة ذكرها الحفاظ أعرضنا عن ذكرها .

فيكم بالثقل الأكبر واترك فيكم الثقل الأصغر ، وركزت فيكم راية الايمان ؟

وقال عليه السلام : انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم واتبعوا أثرهم فلن يخرجوكم من هدى ، ولن يعيدوكم في ردى ، فان لبدوا فالبدوا، وان نهضوا فانهضوا ، ولا تسبقوهم فتضلوا ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا .

وأخرج الحاكم عن الكناني قال سمعت ابا ذر يقول وهو آخذ بباب الكعبة : من عرفني فقد عرفني ومن انكرني فانا ابو ذر . سمعت رسول الله يقول مثل اهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجى ومن تأخرعنها غرق .

فالأخذ عن أهل البيت بموجب هـــذه النصوص وغيرها التي لا يسعنا حصرها لازم شرعاً والرجوع لغيرهم لا يحصل معه صحة العمل .

ونحن مع احترامنا للمذاهب الأربعة ، لا نستطيع أن نتخطى أوامر الرسول في اتباع آله ووجوب الأخذ عنهم ولنا بحديث الثقلين ، وحديث الغدير وآية التطهير ، وآية الموالاة (١) كفاية لبراءة الذمة وصحة العمل بمذهبهم (ع) ولو سمحت لنا الأدلة بمخالفة الأئمة من أهل البيت أو تمكنا من تحصيل نية القربة في مقام العمل على مذهب غيرهم لاتبعناه ، على انه لا دليل للجمهور في رجحان شيء من مذاهبهم فضلا عن وجوبها .

كيف وأئمة المذاهب أنفسهم قد أخذوا عن أهل البيت ، وجعلوا ذلك فخراً لهم وسبباً لنجاتهم فهذا الامام ابو حنيفة كان يأخذ باقوال علي ، حتى جعلوا

---

(١) أخرج الطبراني في الاوسط عن عمار بن ياسر قال وقف على علي سائل وهـــو راكع في تطوع فاعطاه خاتمه فنزلت « إنما وليكم الله ورسوله والمؤمنون » الآية وأخرج السيوطي عن ابن عباس انها نزلت في علي وابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس مثله وأخرج أيضاً عن علي (ع) وأخرج ابن جرير مثله ولهذا شواهد كثيرة لا يمكن انكارها .

ذلك من مرجحات مذهبه على غيره من المذاهب لقول النبي صلى الله عليه وآله : « انا مدينة العلم وعلي بابها » (١) ذكر ذلك المقدسي في أحسن التقاسيم ، وكان ابو حنيفة يفتخر بالاخذ عن الصادق (ع) ويقول : « لولا السنتان لهلك نعمان » .

ونرى مالك بن انس هو أحد تلاميذ الصادق ، وعنه أخذ الشافعي واخذ أحمد بن حنبل عنه وكان الشافعي لا يروي إلا عن علي لذلك اتهموه بالتشيع فافتخر بذلك قائلا :

أنا الشيعي في ديني وأصلي ... بمكة ثم داري عسقلية

بأطيب مولد وأعز فخر ... وأحسن مذهب يسمو البرية -٢-

ورماه يحيي بن معين بالرفض وقال طالعت كتابه في السير فوجدته لم يذكر إلا علي بن ابي طالب وقد أظهر الشافعي ذلك في قوله :

يا راكباً قف بالمحصب من منى ... واهتف بقاعد خيفها والناهض

سحراً اذا فاض الحجيج الى منى ... فيضاً كملتطم الفرات الفائض

إن كان رفضاً حب آل محمد ... فليشهد الثقلان أني رافضي -٣-

وكذلك الامام أحمد كان يفضل علياً على الصحابة ، وسئل يوماً عن أفضل أصحاب رسول الله (ص) فقال ابو بكر ثم عمر ثم عثمان قيل فعلي ؟ قال: سألتموني عن اصحابه وعلي نفس محمد الى غير ذلك مما يطول ذكره ، على انا نجد اهل المذاهب متفرقين كل يذهب الى رجحان مذهبه وبطلان غيره ، ويقيم كل فريق أدلة

---

(١) لهذا الحديث طرق كثيرة يتجاوز عدها المائة .

-٢- مناقب الشافعي للفخر الرازي ص ٥١ .

-٣- نفس المصدر .

للغلبة على الآخر ولسنا بصدد البحث عن ذلك ولكن الغرض ان اخذ الشيعة عن أهل البيت انما هو لدلالة الكتاب والسنة ولا يرون صحة الأخذ باصول الدين وفروعه إلا عنهم ، فهم سفن النجاة وأمان الامة وباب حطة من دخله كان من الآمنين ، والعروة الوثقى التي لا انفصام لها ، واحد الثقلين لا يضل من تمسك بهما ولا يهتدي من ضل عن أحدهما .

وقد أشرنا للاسباب التي دعت لمقاومة مذهبهم من قبل ذوي النفوذ والسلطة باوهام حاولوا تركيزها بدون اقامة دليل شرعي ، ولا برهان عقلي .

وقد سرت تلك الامور المرتجلة يتلقفها السذج فم عن فم ويتوارثها جيل عن جيل كقضية مسلّمة ، والحق انها شُبه وأوهام تناقلتها الالسن وساعدتها الظروف والأحوال فصعب هجرها .

ومع هذا كله فان تلك المحاولات لم تقف موقف النجاح فقد انتشر المذهب بصورة واسعة النطاق كما سيأتي بيانه .

وهنا أمر آخر لابد من توضيحه : هو ان تلك المعارضات التي اجهد الساسة انفسهم في تركيزها ، ووازرهم على ذلك مرتزقة باعوا ضمائرهم بابخس الثمن ، إنما كانت بعيدة كل البعد عن الواقع ، ولا تجد من اولئك المتشدقين بذم الشيعة والحط من كرامة اهل البيت من اقام دليلا منطقياً يستطيع أن يؤيد قوله ، وإنما هم يتحمسون ويهرجون ، والحقيقة بعيدة عنهم ، والدين يتبرأ مما قالوا ونسبوا الى الشيعة اموراً كثيرة ، لا يسعنا عرضها الآن ، حتى انهم نسبوهم الى القول بالوهية الأئمة ، وهذا نهاية الحمق وغاية الجنون ، وان الاعتدال فى القول خير من التهور ، ومن اعتدل فكره اعتدل قوله .

من اين أخذوا ذلك عن الشيعة وبأي دليل يثبتونه . نعم حملهم بعض

الشيعة والتحامل على أهل البيت بأن يحملوا فرق الغلاة عليهم وحاولوا ربط عقائدهم بعقائد الشيعة ، مع الفرق البين وعدم امكان الارتباط ، ولكنهم ظلموا الحقيقة ، وتجرأوا على مقام أهل البيت بنسبة الغلاة الى اتباعهم وهنا يلزمنا التعرض لذكر موقف الأئمة من التبري من هذه النسبة ومعاملة الشيعة لتلك الفرق .

* * *

إن أعظم شيء على الشيعة هو حمل تلك الفرق عليهم وانضمامها اليهم عندما وازرتهم السياسة وسهلت لهم الطرق ليصلوا الى غايات في نفوسهم من تحطيم الشيعة والحط من كرامة أهل البيت إذ كانوا لا يستطيعون أن ينالوا من عقائدهم أو ينقصوهم بشيء، والأمر واضح كل الوضوح من أن مذهب أهل البيت لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وتعاليمهم هي المحور الذي يدور عليها نظام الاسلام .

فكان دخول الغلاة في صفوف الشيعة حركة سياسية أوجدتها عوامل من جهة والفتك بالاسلام من جهة اخرى ، لأن دخول الغلاة في الاسلام كان انتصاراً لمبادئهم إذ لم يجدوا طريقاً للانتقام منه والتشفي من أهله وعجزوا عن مقابلته بالقوة وجهاً لوجه وانهزموا أمام قوم وطأوا أرضهم باقدام لا تتأخر خطوة الى الوراء أما الموت أو الفتح . فاذلوا عزيزهم وأسروا ذراريهم وأخذوا منهم الجزية عن يد وهم صاغرون .

وقد عالج أهل البيت هـــذه المشكلة الخطرة وعرفوا الدوافع التي دعت هؤلاء الكفرة الى الالتحاق بصفوف الشيعة واتضح لهم غايات خصومهم الذين يريدون أن يوقعوا بهم المكروه فكان أهل البيت عليهم السلام يعلنون للملأ

البراءة من الغلاة وجاهروا في لعنهم وامروا شيعتهم بالتبري منهم والابتعاد عنهم ، وتلقى الشيعة تلك الأوامر الشريفة بالقبول والامتثال فاعلنوا البراءة وملأوا كتبهم من التبري منهم ، وافتوا بحرمة مخالطتهم واجمعوا على نجاستهم وعدم جواز تغسيل ودفن موتاهم وتحريم اعطائهم الزكاة ، ولم يجوّزوا للغالي ان يتزوج المسلمة ولا المسلم ان يتزوج الغالية ولم يورّثهم من المسلمين وهم لا يرثون منهم .

وكان الامام الصادق عليه السلام يلعن المغيرة بن سعيد ويصرح بكذبه وكفره ولعن ابا الخطاب واصحابه وجميع الدعاة لتلك الدعوة الفاسدة . وكان هذا الاعلان من الامام الصادق (ع) قد اوقف سريان دائها القاتل ولم يبق من تلك الفرق إلا الاسم في التاريخ وبادت بمدة قصيرة .

وقال عليه السلام ، لمرازم : قل للغالية توبوا الى الله فانكم فساق كفار مشركون . وقال له : إذا قدمت الكوفة فأت بشار الشعيري وقل له يقول لك جعفر بن محمد : يا كافر يا فاسق انا بريء منك . قال مرازم : فلما قدمت الكوفة قلت له يقول لك جعفر بن محمد : يا كافر يا فاسق يا مشرك انا بريء منك ، قال بشار : وقد ذكرني سيدي قلت : نعم ذكرك بهذا ، قال جزاك الله خيراً .

ولما دخل بشار الشعيري على ابي عبد الله الصادق قال له : اخرج عني لعنك الله والله لا يظلني واياك سقف ابدا ، فلما خرج قال عليه السلام : ويله ما صغر الله تصغير هذا الفاجر أحد انه شيطان بن شيطان خرج ليغوي اصحابي وشيعتي فاحذروه وليبلغ الشاهد الغائب أني عبد الله وابن امته ضمتني الاصلاب والأرحام ، وأني لميت ومبعوث ثم مسؤول .

وكتب الامام الحسن العسكري عليه السلام ابتداء منه الى احد مواليه : إني أبرء الى الله من ابن نصير الفهري وابن بابه القمي فابرأ منهما ، وأني محذرك

وجميع مواليّ ومخبرك اني العنهما لعنة الله ، يزعم ابن بابا اني بعثته نبيا وانه باب ، ويله لعنه الله سخر منه الشيطان فاغواه فلعن الله من قبل منه يا محمد إن قدرت أن تشدخ رأسه فافعل .

وقال الامام الصادق عليه السلام: لعن الله عبدالله بن سبأ انه ادعى الربوبية في أمير المؤمنين عليه السلام وكان والله امير المؤمنين قد عبد الله طائعاً ، والويل لمن كذب علينا اني ذكرت عبد الله بن سبأ فقامت كل شعرة في جسدي لقد ادعى أمراً عظيما ماله لعنه الله ، كان علي والله عبد الله صالحاً ما نال الكرامة من الله إلا بطاعته لله ولرسوله وما نال رسول الله الكرامة من الله إلا بطاعته لله .

وقال ابو عبد الله الصادق عليه السلام يوماً لاصحابه : لعن الله المغيرة بن سعيد ، لعن الله يهودية كان يختلف اليها يتعلم منها الشعر والشعبذة والمخاريق ، ان المغيرة كذب على ابي ، وان قوما كذبوا علي مالهم ! أذاقهم الله حر الحديد ، فوالله ما نحن إلا عبيد خلقنا الله واصطفانا ما نقدر على ضر ولا نفع إلا بقدرته ، ان رحمنا فبرحمته وان عذبنا فبذنوبنا ، ولعن الله من قال فينا : مالا نقول في أنفسنا ، ولعن الله من أزالنا عن العبودية لله الذي خلقنا واليه مآبنا ومعادنا وبيده نواصينا .

وقال عليه السلام : ان ابا منصور كان رسول ابليس : لعن الله ابا منصور قالها ثلاثاً .

وقال عليه السلام : إنا اهل بيت صادقون لا نخلوا من كذاب يكذب علينا عند الناس يريد ان يسقط صدقنا بكذبه علينا ، ثم ذكر المغيرة وبزيع والسري وابا الخطاب ، ومعمر وبشار الاشعري وحمزة اليزدي وصائد النهدي ، فقال : لعنهم الله اجمع وكفانا مؤنة كل كذاب .

وعن حمدويه قال : كنت جالساً عند ابي عبد الله وميسرة عنده فقال له

ميسرة : جعلت فداك عجبت لقوم كانوا يأتون الى هذا الموضع فانقطعت اخبارهم وآثارهم وفنيت آجالهم ، قال عليه السلام : ومن هم قلت ابو الخطاب واصحابه ، فقال عليه السلام وكان متكئاً ورفع بنظره الى السماء : على ابي الخطاب لعنة الله والملائكة والناس اجمعين ، فاشهد بالله انه كافر فاسق مشرك وانه يحشر مع فرعون في اشد العذاب وذكر عنده اصحاب ابي الخطاب والغلاة فقال عليه السلام: لا تقاعدوهم ، ولا تواكلوهم ، ولا تشاربوهم ، ولا تصافحوهم ولا توارثوهم وقال عليه السلام : ان من الغلاة من يكذب حتى ان الشيطان يحتاج الى كذبه .

وقال عليه السلام : ان قوماً يزعمون اني لهم امام والله ما انا لهم بامام ، مالهم لعنهم الله ! أقول كذا ويقولون كذا ، انما انا امام من اطاعني ومن قال باننا انبياء فعليه لعنة الله ومن شك في ذلك فعليه لعنة الله ـ ١ ـ

هؤلاء هم الغلاة الذين حاول خصوم آل محمد الحاقهم بالشيعة لغاية الحط من كرامة المبدء وليظهروهم للملأ بابشع المظاهر وأشنعها ، ويعلنوا للعالم ان الشيعة يعتقدون في الأئمة الألوهية ، فلا يصاح عدهم من المسلمين فتراق بذلك دماؤهم وتنهب أموالهم ، وكم حدثنا التاريخ عن تلك الفضايع السود ومن أراد ان يعرف موقف الشيعة من طوائف الغلاة فاليرجع الى كتاب روض الجنان للشهيد الثاني المتوفى سنة ٩٩٦ ، ونهج المقال للمرزا محمد الاسترابادي المتوفى سنة ١٠٢٦ والانتصار للسيد المرتضى سنة ٤٣٦ ، والتهذيب للشيخ الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠ ، والسرائر لابن ادريس المتوفى سنة ٥٩٨ والمنتهى ، ونهاية الأحكام ، والتذكرة والقواعد ، والتبصرة للعلامة الحلي المتوفى سنة ٧٢٦ والبحار للشيخ المجلسي المتوفى سنة ١١١ والدروس للشهيد الأول المتوفى سنة ٧٨٦ ، وجامع المقاصد للشيخ علي الكركي

ـ ١ ـ انظر كتاب الشيعة في التاريخ .

المتوفى سنة ٩٤٠ والشرايع والمعتبر والنافع للمحقق ابي القاسم الحلي المتوفى سنة ٦٧٦ والجواهر للشيخ محمد حسن المتوفى سنة ١٢٦٦ وغيرها من آلاف الكتب الفقهية التي تنص باجماع على كفر الغلاة ونجاستهم وبعدهم عن الدين ولا رابطة بينهم وبين الشيعة .

كما ان كتب الرجال طافحة بذمهم والتبري منهم ومن معتقداتهم ، ويلعنونهم بلغة واحدة ، وأخف عبارة تقولها كتب الشيعة في حق عبد الله بن سبأ ، ويكتفون عن ترجمة حاله عند ذكره في حرف العين هكذا : عبدالله بن سبأ العن من ان يذكر فاملنا بابناء المستقبل ان لا يركنوا الى الأوهام والاباطيل وان يطلبوا الحقيقة فالعلم يطلب منهم اداء رسالته والحق يدعوهم الى مؤازرته فقد آن ان تماط عن العيون نظارات التعصب التي منعتها رؤية الحق وابرزت الواقع معكوساً إذ هي كعدسة المصور فليعتدل الكتاب عن هذه السيرة الملتوية وليغيروا خططهم ولغتهم في معاملة الشيعة ولا يلتفوا لأوضاع تلك العصور المظلمة التي جنت على الاسلام جناية لا تغفر ، وملأوا القلوب بالاحقاد والضغائن ونسبوا مبدأ التشيع الى عبدالله بن سبأ اليهودي وطعنوا بذلك على اصحاب محمد صلى الله عليه وآله الذين عرفوا بتشيعهم لعلي ويتجاوز عددهم المآت وغيرهم ممن تكتم جريا للظروف ومتابعة الأحوال على ان كلمات اللغويين والمفسرين قد اجمعت على ان معنى الشيعة هي الوالاة لعلي إذ أصبح علماً في ذلك .

اما عبد الله بن سبأ ، ذلك اليهودي الذي دخل في صفوف المسلمين لبث روح الفرقة فقد تبرأت الشيعة منه ، إن كان له وجود في الوجود ، وإلا فهو في الواقع اسطورة وضعها خصوم الشيعة ، كما ذهب اليه اكثر رجال الفكر من العصر الحاضر وفي طليعتهم معالي الدكتور طه حسين في الفتنة الكبرى

واليك ما يقوله الاستاذ كرد علي في خطط الشام في كلمته حول الشيعة ونسبة عبد الله بن سبأ اليهم :

عرف جماعة من كبار الصحابة بموالاة علي في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله مثل سلمان الفارسي القائل : بايعنا رسول الله على النصح للمسلمين والإئتمام لعلي بن ابي طالب والموالاة له ، ومثل أبي سعيد الخدري الذي يقول أمر الناس بخمس فعلوا باربع وتركوا واحدة ولما سئل عن الاربع ، قال: الصلاة والزكاة وصوم شهر رمضان والحج ، قيل فما الواحدة التي تركوها ؟ قال : ولاية علي بن ابي طالب قيل له : وإنها لمفروضة معهن ، قال : نعم هي مفروضة معهن ، ومثل ابي ذر الغفاري وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وذي الشهادتين وخزيمة ابن ثابت وابي ايوب الأنصاري وخالد بن سعيد بن العاص وقيس بن سعد ابن عبادة .

واما ماذهب اليه بعض الكتاب من أن أهل مذهب التشيع من بدعة عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء فهو وهم وقلة معرفة بحقيقة مذهبهم ، ومن علم منزلة هذا الرجل عند الشيعة وبراءتهم منه ومن أقواله وأعماله وكلام علمائهم في الطعن فيه بلا خلاف بينهم فيه علم مبلغ هذا القول من الصواب ، ولا ريب فى ان أول ظهور الشيعة كان فى الحجاز بلد المتشيع له انتهى . -١-

ويقول الامام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء رحمه الله :

اما الشيعة الامامية فيبرأون من تلك الفرق براءة التحريم على أن تلك الفرق لا تقول بمقالة النصارى بل خلاصة مقالتهم بل ضلالتهم : ان الامام هو الله سبحانه ظهوراً واتحاداً أو نحو ذلك مما يقول به كثير من متصوفة الاسلام

-١- الخطط ج ٦ ص ٢٥١ - ٢٥٦ .

ومشاهير مشائخ الطرق . وقد ينقل عن الحلاج والكيلاني والرفاعي والبدوي وأمثالهم من الكلمات ـ وان شئت فسمها كما يقولون شطحات ـ ما يدل بظاهره على ان لهم منزلة فوق الربوبية ، وان لهم مقاما زائداً عن الالوهية (لو كان ثمة موضع لمزيد) وقريب من ذلك ما يقول به أرباب وحدة الوجود أو الموجود . أما الشيعة الامامية وأعني بهم جمهرة العراق وايران وملايين المسلمين في الهند ومئات الالوف فى سوريا والافغان فان جميع تلك الطائفة من حيث كونها شيعة يبرؤن من تلك المقالات ويعدونها من أبشع الكفر والضلالات وليس دينهم إلا التوحيد المحض وتنزيه الخالق عن كل مشابهة للمخلوق أو ملابسة لهم فى صفة من صفات النقص والامكان والتغيير والحدوث وما ينافي وجوب الوجود والقدم والأزلية الى غير ذلك من التنزيه والتقديس المشحونة به مؤلفاتهم فى الحكمة والكلام من مختصرة أو مطولة .

ولا حاجة بنا الى اطالة البحث عن فرق الغلاة وبراءة أهل البيت منهم وحكم الشيعة بتكفيرهم وبهذا القدر كفاية .

واستطيع الجزم بان هذه الامور لم تخف على اولئك القوم الذين أصبحوا يتهجمون على الشيعة بالطعن فى عقائدهم ، إذ نسبوا هذه المقالات الفاسدة التي يقول بها الغلاة اليهم . نعم انهم يعرفون الامر ولكن الحق مر لا يمكن ان تتقبله أذواقهم ، ولقد أعجزهم الأمر عن مؤاخذة الشيعة والطعن في عقائدهم عندما وجدوا طرق المؤاخذات امامهم مغلقة فلا يستطيعون منها النفوذ الى مقاصدهم فالتجأوا الى هذه الخرافات والأباطيل التي لا تثبت أمام التدقيق والتحقيق كيف يستطيعون مؤاخذة الشيعة ومنهم صحابة الرسول والتابعين لهم باحسان كابي ذر الغفاري وعمار بن ياسر ، وجارية بن قدامه ، وجابر بن عبد الله الأنصاري ،

وحذيفة بن اليمان ، وسلمان الفارسي ، وصعصعة بن صوحان ، والمقداد الكندي . وغيرهم .

ولعمري انهم ارادوا الطعن على اصحاب محمد (ص) فسلكوا لذلك طريق الطعن على التشيع . واليك عبارة أحد كتاب العصر عند ذكره لعبد الله ابن سبأ ونسبة ظهور التشيع اليه ، يقول : ان هذا الشيطان هو عبد الله بن سبأ من يهود صنعاء ، وكان يبث دعوته بخبث وتدرج ودهاء ، واستكثر اتباعه بآخرين من البلهاء الصالحين المتشددين في الدين المتنطعين في العبادة الى أن يقول : وعنا بالتأثير على أبناء الزعماء من قادة القبائل وأعيان المدن الذين اشترك آباؤهم في الجهاد والفتح فاستجاب له من بلهاء الصالحين وأهل الغلو من المتنطعين جماعات كان على رأسهم في الفسطاط الغافقي بن حرب العكي وعبد الرحمن بن عديس البلوي ، وكنانة بن بشر بن عتاب وعبد الله بن زيد بن ورقاء الخزاعي وعمر بن الحمق الخزاعي ، وعروة بن النباع الليثي وقتير السكوني . وكان على رأس من استغواهم ابن سبأ في الكوفة عمرو بن الأصم وزيد بن صوحان العبدي والاشتر بن مالك بن الحارث النخعي وزياد بن النضر الحارثي وعبدالله بن الأصم.

ومن البصرة حرقوص بن زهير السعدي وحكيم بن جبلة العبدي وذريح بن عبادالعبدي وبشر بن شريح الحطم بن ضبيعة القيسي وابن المحرش .

اما المدينة فلم يندفع في هذا الأمر من أهلها إلا ثلاثة نفر . محمد بن ابي بكر ومحمد بن حذيفة وعمار بن ياسر -١-

هكذا يقول ونبرأ الى الله مما يقول ليت شعري أي جرأة أعظم من هذه الجرأة على أصحاب محمد صلى الله عليه وآله ووصفهم بهذه الصفة بأنهم

-١- انظر كتاب حملة رسالة الاسلام لمحب الدين الخطيب ص ٢٣

مخدوعين بدعوة ذلك الشيطان واستجابوا لما جاء به هـذا اليهودي وهم خريجوا مدرسة محمد (ص) واتباع الحق ولـكن الشيطان استغوى هذا الـكاتب فجاء بهذا الافك العظيم إذ نسب أصحاب محمد (ص) الى اتباع ابن سبأ في أضاليله وأخذهم بأباطيله وما هو باول من افترى على الامة ، وأمثاله كثير من دعاة الفرقة ومحبي الفتنة .

« ومن الناس من يجادل بغير علم ويتبع كل شيطان مريد
كتب عليه انه من تولاه فانه يضله ويهديه الى عذاب السعير »

من فقه المذاهب

يقول المقدسي فى أحسن التقاسيم : اعلم ان الناس قد عدلوا عن مذهب أبي حنيفة في أربع ، صلاة العيدين إلا بزبيد ، وصدقة النخيل، وتوجيه الميت عند الموت ،والتزام الاضحية .

وعدلوا عن مذهب مالك في اربع ، الصلاة قدام الامام إلا بالمغرب ويوم الجمعة بمصر ، وفي أكل لحوم الكلاب إلا بمدينتين بالمغرب تباع جهراً وتطرح في عرائس مصر ويترب سراً، وفي الخروج من الصلاة بتسليمة واحدة .

وعدلوا عن مذهب الشافعي فى أربع: الجهر بالبسملة إلا بالمشرق في مساجد أصحابه وكذلك القنوت بالفجر وفى احضار النية فى تكبيرة الافتتاح وفى ترك القنوت فى الوتر .

وعدلوا عن مذهب داود في أربع تزويج ما فوق الاربع واعطاء الاثنين النصف، ولا صلاة لجار المسجد إلا فى المسجد ، وفي مسألة العول .

وعدلوا عن أصحاب الحديث في أربع المتعة في الحج والمسح على العمامة وترك التيمم في الرمل وانتفاء الوضوء في القهقهة .

وعدلوا عن مذهب الشيعة في أربع ، المتعة ووقوع طلاق الثلاث واحدة والمسح على الرجلين والحيعلة في الأذان .

وتلك المسائل التي عدلوا فيها عن المذاهب موجودة فى كتب الفقه ، ولا حاجة بنا الى التعرض لذكرها لأنا قد أفردنا بحثاً خاصاً بالفقه وسيأتي ،

نعم الشيء المهم هو النظر في هذه المسائل التي يقول بعدول الناس عنها في المذهب الجعفري فهل هي بدعـــة فتركها الناس أم انها من المسائل المقررة في أحكام الاسلام ؟

١ – المتعة

اما عدولهم عن متعة النساء فانما هو عدول عما شرعه الله ورسوله للمسلمين وعمل به أصحابه من بعده مدة خلافة ابي بكر وشطراً من خلافة عمر وهم مستمرون على العمل بها حتى نهى عنها بقوله « متعتان كانتا على عهـد رسول الله (ص) وانا انهى عنهما وأعاقب عليهما : متعة الحج ومتعة النساء » فاباحة المتعة مقطوع به على عهد النبي (ص) وادعاء النسخ لذلك الحكم لا يثبت .

وكان ابن عباس حبر الأمة يأمر الناس بالمتعـة وكان ابن الزبير ينهى عنها فذكر ذلك لجابر فقال : على يدي دار الحديث تمتعنا مع رسول الله (ص) فلما قام عمر قال : ان الله كان يحل لرسوله ما شاء بما شاء فاتموا الحج والعمرة وابقوا نـكاح هـــذه النساء فلن اؤتى برجل نـكح امرأة الى أجل إلا رجمته بالحجارة .

أخرج مسلم في باب نكاح المتعة من صحيحه عن ابي نضرة قال : كنت عند جابر بن عبد الله فاتاه آت فقال : إن ابن عباس وابن الزبير اختلفا في المتعتين فقال جابر : فعلناهما مع رسول الله ، ثم نهانا عنهما عمر فلم نعد لهما .

وقد ذهب الى القول بها جماعة من أصحاب النبي (ص) كأمير المؤمنين علي عليه السلام كما روي عنه انه قال : لولا ان عمر نهى عن المتعة ما زنى إلا شقي .
ومنهم عبد الله بن عباس وكان يقول ما كانت المتعة إلا رحمـة رحم الله

بها امة محمد (ص) لولا نهيه (يعني عمر) عنها ما احتاج الى الزنا إلا شقي .

ومنهم عبد الله بن عمر ، أخرج الامام أحمد في مسنده من حديث عبد الله بن عمر قال : سأل رجل ابن عمر عن متعة النساء فقال : والله ما كنا على عهد رسول الله (ص) زانين ولا مسافحين .

ومنهم عبد الله بن مسعود قال : كنا نغزوا مع رسول الله (ص) وليس لنا شيء فقلنا الا نستخصي ؟ فنهانا عن ذلك ثم رخص لنا ان تنكح المرأة بالثوب الى أجل . ثم قرأ عبد الله « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » -١-

وأخرج البخاري عن جابر بن عبد الله وسلمة بن الاكوع انه قال كنا في جيش فاتانا رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: انه قد أذن لكم ان تستمتعوا فاستمتعوا -٢- .

وعلى أي حال فان تشريع زواج المتعة بشروطه المعتبرة فيه قد اتفق عليه السنة والشيعة ودل عليه القرآن الكريم « فما استمتعتم به منهن فآتوهن اجورهن فريضة » .

وعلى هذا الاتفاق ساروا على القول بها فى عهد النبي صلى الله عليه وآله وأيام ابي بكر وشطراً من عهد عمر الى ان نهى عنها كما مر فافترقوا عند هذا الحد فالشيعة أخذوا بحليتها ولم يتركوا قول رسول الله لقول عمر .

وقد ذهب لتحليل المتعة جماعة من الصحابة ، غير ابن عباس ، منهم جابر ابن عبد الله ، ومعاوية ، وعمرو بن حريث ، واسماء بنت ابي بكر ، وابو سعيد

-١- صحيح مسلم ج ٤ س ١٢٩ .
-٢- أخرجه البخاري ج ٣ س ١٥٠

وسلمة ابنا امية بن خلف وغيرهم .

وقال بها من التابعين ، طاووس ، وعطاء ، وسعيد بن جبر ، وسائر فقهاء مكة -١-

٢ - الطلاق

اتفقت الامامية على أن طلاق الثلاث واحدة ، فلو طلقها ثلاثا بدون مراجعة لم تحرم عليه ، ويجوز له مراجعتها ولا تحتاج الى محلل ، نعم الطلاق المحرم الذي لا تحل المطلقة بعده لمطلقها إلا بالمحلل الشرعي ، إنما هو لو طلقها ثم راجعها ، وهكذا ثلاثا حرمت عليه في الطلاق الثالث وهو المسبوق برجعتين مسبوقتين بطلاقين وحينئذ لا تحل المطلقة بعد لمطلقها حتى تنكح زوجاً غيره ، وبه جاء التنزيل « الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان » الى قوله عز وجل « فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره » الآية .

وقد خالف الاكثر من علماء السنة ، فجعلوا قول الزوج لزوجته : أنت طالق ثلاثا يوجب تحريمها ولا تحل إلا بالمحلل ، وقد كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله يعد طلاق الثلاث واحدة ، وكذلك فى أيام ابي بكر وشطراً من عهد عمر بن الخطاب .

أخرج مسلم فى صحيحه بسند عن ابن عباس انه كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ، وابي بكر وسنتين من عهد عمر طلاق الثلاث واحدة ، فقال عمر بن الخطاب : ان الناس قد استعجلوا فى أمر قد كانت لهم

-١- نيل الاوطار للشوكانى ج ٦ ص ١٣٣ وذكر ذلك ابن حزم فى المحلى فراجع

فيه اناة : فلو أمضيناه عليهم ، فامضاه . ـ١ـ

وأخرج عن ابي الصهباء انه قال لابن عباس : أتعلم انما كانت الثلاث تجعل واحدة على عهد النبي صلى الله عليه وآله وابي بكر وثلاث من امارة عمر فقال ابن عباس : نعم ـ٢ـ

واخبر رسول الله (ص) عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً فقام صلى الله عليه وآله غضبان ثم قال : أيلعب في كتاب الله وانا بين أظهركم ـ٣ـ

وعن ابن عباس ان ركانة طلق زوجته ثلاثاً في مجلس واحد فحزن عليها حزناً شديداً فسأله رسول الله (ص) : كيف طلقتها ؟ قال : ثلاثاً . قال (ص) : في مجلس واحد ؟ قال : نعم قال (ص) : انما تلك واحدة فارجعها ان شئت . ـ٤ـ

قال الشوكاني : وقع الخلاف في الثلاث اذا وقعت في وقت واحد ، هل يقع جميعها ويتبع الطلاق أم لا ؟ ثم ذكر القائلين بالوقوع : وهم أئمة المذاهب الأربعة وغيرهم ثم قال : وذهب بعض من أهل العلم : لا يتبع بل يقع واحدة فقط ، وحكى ذلك عن ابي موسى ، ورواية عن علي (ع) ، وابن عباس ، وطاووس ، وعطاء ، ورجاء ، والهادي والقاسم ، والباقر . الى آخره .

والحاصل انه لا خلاف عند المسلمين بوقوع الطلاق الثلاث واحدة ، في عهد النبي وابي بكر وشطراً من امارة عمر وبعد ذلك الزم عمر الناس بوقوع مثل هذا الطلاق اجتهاداً منه ، وعند هذه النقطة تفترق الشيعة عن السنة ، والشيعة

ـ١ـ صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٣

ـ٢ـ نفس المصدر .

ـ٣ـ نيل الأوطار للشوكاني ج ٤ ص ٢٢٦

ـ٤ـ نفس المصدر .

يأخذون بقول النبي ويتبعون ما شرعه ولا يلتزمون بتنفيذ اجتهاد عمر وتركه تلك النصوص الدينية المقدسة من الكتاب والسنة فقد دعته مصلحة رآها ولكن المصلحة عندنا هي اتباع الرسول امتثالا لقوله تعالى وما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا .

٣ – المسح على الرجلين

لقد كان المسح على الرجلين مشروعاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله كما رواه الجمهور عن معلى بن عطاء عن أبيه عن ادريس بن ابي اويس الثقفي انه رأى رسول الله (ص) توضأ ومسح على قدميه . وأخرج مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن عمر انه قال : تخلف عنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فادركنا وقد حضرت الصلاة، فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادى : « ويل للاعقاب من النار » .

قال القرطبي : وهذا الأثر وإن كانت العادة قد جرت بالاحتجاج به في منع المسح فهو أدل على جوازه منه فى منعه ، لأن الوعيد إنما تعلق فيه بترك التعميم لا بنوع الطهارة بل سكت عن نوعها ، وذلك دليل على جوازه ، ووجوب المسح هو أيضاً مروي عن بعض الصحابة والتابعين .

والغرض أن أهل السنة اختلفوا فى فرض الرجلين، فقال قوم: فرضهما المسح ، وقال آخرون: فرضهما الغسل وذهب بعضهم الى التخيير بين المسح والغسل، كما هو مذهب ابن جرير وداود الظاهري وغيرهما .

أما الشيعة فاتفقوا على وجوب المسح لدلالة الآية الكريمة وهو قوله تعالى : « وامسحوا برؤسكم وارجلكم » بالنصب عطفاً على موضع برؤسكم كما هو

المعروف باللغة العربية وهو كالعطف على المحل ، وقرأ غيرهم بالخفض على المجاورة ، وهو شاذ في اللغــة ورد في مواضع لا يلحق بها غيرها ولا يقاس عليها سواها ، ولا يجوز حمل كتاب الله على الشذوذ الذي ليس بمعهود ولا مألوف ، والأعراب بالمجاورة إنما يكون عند من اجازه ، عندفقدان حرف العطف .

وقدصح في صفة وضوء النبي (ص) من طريق أهل البيت انه غسل وجهه وذراعيه ثم مسح رأسه وقدميــه ، وصح عن ابن عباس انه قال : ما أجد في كتاب الله إلا غسلتين ومسحتين .

٤ – الاذان

إن كلمة « حي على خير العمل » – كانت على عهد النبي (ص) – جزء من الأذان ومن الاقامة ، ولـكنهم ادعوا نسخها بعدذلك ، والصحيح انها كانت على عهد النبي (ص) وابي بكر وشطراً من عهد عمر ولـكنه نهى عنها كما نهى عن متعة النساء ، ـ١ـ ولقد ابدلوا مكانها كلمة الصلاة خير من النوم ، كما يروي مالك بن أنس في موطأه : ان المؤذن جاء الى عمر بن الخطاب يؤذنه بصلاة الصبح فوجده نائماً فقال : الصلاة خير من النوم ، فامره عمر أن يجعلها في نداء الصبح ، قال الزرقاني في شرح الموطأ : هذا البلاغ أخرجه الداقطني في السنن من طريق وكيع في مصنفه عن العمري عن نافع عن ابن عمر عن عمر انه قال لمؤذنه : اذا بلغت حي على الفلاح في الفجر فقل : الصلاة خير من النوم الصلاة خير من النوم.

ولا وزن لما جاء عن محمد بن خالد بن عبد الله الواسطي أن النبي (ص) استشار الناس لما ينبههم الى الصلاة ، فذكروا البوق فـكرهه من أجل اليهود ،

ـ١ـ انظر الفصول المهمة لسيدنا الحجة شرف الدين .

ثم ذكروا الناقوس فكرهه من أجل النصارى فأري النداء تلك الليلة رجل من الأنصار يقال له عبد الله بن زيد وعمر بن الخطاب فطرق الأنصاري رسول الله ليلا ، فأمر رسول الله (ص) بلالاً فأذن به .

أما رجل هذه الرواية وهو محمد بن خالد بن عبد الله الواسطي كذاب لا يصح أخذ الأحاديث عنه وقد نص على ذلك يحيى بن معين ، وضعفه ابو زرعة ، وانكر عليه ابن عدي أحاديثه ، وقال يحيى: هو رجل سوء فلا يلتفت الى مايرويه في تشريع الأذان على الرؤيا ، وقد ذكر الناس رؤيا عبد الله بن زيد في تشريع الأذان فلما سمع الحسين بن علي (ع) غضب وقال : الوحي ينزل على الرسول ويزعمون أنه أخذ الأذان عن عبد الله بن زيد والأذان وجه دينكم ، ولقد سمعت ابي علي بن ابي طالب عليه السلام يقول : أهبط الله ملكاً عرج برسول الله (ص) الى السماء الى ان قال : وبعث الله ملكاً لم ير في السماء قبل ذلك الوقت فاذن وأقام وذكر كيفية الأذان ثم قال جبرئيل للنبي (ص) : يا محمد هكذا أذّن للصلاة .

وقد أجمعت الامامية على كون الأذان من الأحكام التي نزل بها الوحي من الله لا يرجع ذلك الى رؤيا كما يقولون وكلمة « حي على خير العمل » جزؤ من الأذان وقول : « الصلاة خير من النوم » إنما هو من اجتهادات الخليفة عمر ، وقد صح عن ابنه عبد الله انه كان يقول فى اذانه : « حي على خير العمل » وكذلك امامة بن سهل بن حنيف كما ذكره فى المحلى وكان أهل البيت يأتون بها لثبوتها وعدم دليل على نسخها وأذّن بها الحسين بن علي صاحب « فخ » (١)

---

(١) ظهر الحسين بن علي بن الحسن السبط بالمدينة المنورة وكان معه جماعة من الطالبيين وحاربه عامل العباسيين فهزمه الحسين وبايعه الناس على كتاب الله وسنة رسوله للمرتضى من آل محمد [ص] وأرسل له العباسيون جيشاً فقتل يوم التروية بفخ وماهو جدرب

وعلى ذلك استمرت الشيعة في اتباع أهل البيت عليهم السلام وعدم الرجوع لغيرهم وكان ذلك شعارهم فى جميع الأدوار .

والغرض أن هذه الامور التي يقول عنها المقدسي بعدول الناس فيها عن مذهب أهل البيت لم تكن من الأمور المبتدعة بل هي مقررة في الاسلام .

والواقع الذي لا يمكن انكاره أن اكثر الناس يعرفون مذهب أهل البيت وما فيه من مميزات ومؤهلات .

وقد أوضحنا الأسباب التي اقتضت صرف الناس عنه ومع هذا فقد انتشر المذهب فى الاقطار الاسلامية بصورة واسعة وسيمضي مذهب أهل البيت في طريق النشور والتقدم كلما اتسعت دائرة الفكر وازدهر العلم وتجلت الحقيقة .

وقد انتشر فى القرون الاولى في مصر والمغرب والجزيرة العربية وايران والسند وغيرها -١- .

- بالذكر ان موسى بن عيسى العباسي أرسل رجلا الى عسكر الحسين حتى يراه ويخبره عنه فمضى الرجل ورجع وقال له ما أظن القوم إلا منصورون فقال وكيف ذاك يا بن الفاعلة ؟ قال الرجل لأني ما رأيت فيهم إلا مصلياً أو مبتهلا أو ناظراً فى مصحف أو معداً للسلاح ، فضرب موسى يداً على يد وبكى ثم قال : هم والله اكرم خلق الله ، وأحق بما فى أيدينا منا ، ولكن الملك عقيم . لو ان صاحب هذا القبر يعني النبي [ص] نازعنا الملك ضربنا خيشومه بالسيف.

-١- انظر أحسن التقاسيم للمقدسي .

انتشار المذهب الجعفري

الحجاز

لا ريب ان أول ظهور الشيعة كان في بلد الحجاز وهو أول أرض بذرت فيه بذرة التشيع . وفي المدينة المنورة في القرن الرابع انتشر بصورة ظاهرة وقد عظم ذلك على ابن حزم وأمثاله الذين يسوؤهم انتشار مذهب أهل البيت فوصف المدينة المنورة بما لا يليق بها لوجود الشيعة فيها -١-

الشام

ظهر مذهب التشيع في القرن الأول وكان أبو ذر الغفاري هو الذي نشر المذهب هناك ولا يزال في قرية الصرفند بين صيدا وصور مقام معروف باسم أبي ذر اتخذ مسجداً معموراً .

وهم اليوم عدد كثير اشتركوا في ادارة البلاد وشغلوا مناصب مهمة في حكومة سوريا ومنهم التجار والأطباء ولهم مركز مهم هناك وتقام عندهم مآتم عزاء على الحسين (ع) علناً في عاصمة الأمويين ويحضرها كثير من أهل السنة، والخطيب يفضح بمخازي معاوية ويزيد وبني اميـــة مستنبطاً ذلك من التاريخ الصحيح .

ويقول ابن جبير في رحلته في وصف المذاهب المتغلبة على الشام في

-١- انظر النبذ في اصول الفقه الظاهري لابن حزم

القرن السادس: ان الشيعة اكثر من السنيين وقد عموا البلاد بمذهبهم .

ويقول كرد علي : وفي دمشق يرجع عهدهم « أي الشيعة » الى القرن الأول للهجرة وفي اكناف حوران وهم مهاجرة جبل عامل وفى شمال لبنان والمتن والبترون وهم مهاجرة بعلبك ولا يقل عدد الشيعة في الشام من الامامية عن مئتي الف نسمة .

جبل عامل

وهو البلد الواقع بين صفد جنوبا ونهر الادلى شمالا وغور الحوله وماوالاها الى ارض البقاع شرقا والبحر المتوسط غربا -١- وكان بدء التشيع فى جبل عامل بفضل الجهود التي بذلها المجاهد في الله أبوذر الغفاري رضي الله عنه وانتشر بسبب دعوته وكانت حركة العلم واسعـــة حتى اليوم فالتشيع فى لبنان منتشر بكثرة ويسير بكل نظام وهدوء ، محفوظ الحقوق مرعي الجانب ولهم جامعـة فى النجف الأشرف تخرج منها عدد كثير من أبطال العلم وحملة دعوة الاصلاح ومنهم المجتهدون والمجاهدون في نصرة الدين وجمع كلمة المسلمين .

حمص

يقول الاستاذ كرد علي : ان فيها قرى للشيعة خاصة وفي نفس المدينة جماعات ظاهرة ومستترة وفى أعمال اذلب قرى الفوعة ونبل وغيرهما وكلها شيعة وفيهما الى اليوم السادة بنو زهرة نقباء الأشراف فى مدينة حلب وكل هؤلاء من

-١- انظر خطط الشام لكرد علي ج ٦ ص ٢٥٢

بقايا زمن الحمدانيين ومن فلول شيعة حلب يوم تشتت شملهم (١)

حلب

غلب مذهب التشيع في حلب بصورة ظاهرة ولهم قوة استطاعوا أن يمنعوا سليمان بن عبد الجبار صاحب حلب عن بناء المدرسة الزجاجية وذلك في سنة ٥١٧ ﻫ .

افريقيا

سرى التشيع فى افريقيا بانتشار عظيم ، الى ان قاومته السلطة ، يوم كان امير افريقيا المعز بن باديس ، فانه فتك في الشيعة فتكا ذريعاً وذلك في عام ٤٠٧ فقد أوقع بهم وقيعة عظيمة ، ونسبوا ذلك الى سب الشيخين وهي المادة التي يطبقها الولاة على من يريدون الفتك به من أي الفرق كان ، وذلك ان المعز بن باديس (٢) مر على جماعة من الشيعة في القيروان وقد سأل عنهم ، فلما أحس الناس من المعز الميل عنهم انصرفت العامة من فورها الى مجتمعات الشيعة فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وتوجه العسكر للنهب ، وشجعهم عامل القيروان فقتل منهم خلق كثير واحرقوا بالنار ونهبت دورهم وتتبعوهم فى جميع افريقيا ، واجتمع جماعة منهم الى قصر المنصور قريب القيروان فتحصنوا به فحصرهم العامة وضيقوا عليهم ، فاشتد عليهم الجوع فاقبلوا يخرجون والناس يقتلونهم حتى قتلوا عن آخرهم ،

(١) يشير بذلك الى الكارثة التي أصابت الشيعة عندما أفتى الشيخ نوح الحنفي كفر الشيعة واستباحة دمائهم تابوا أو لم يتوبوا فقتل بسبب هذه الفتوى أربعون ألفاً من الشيعة وانتهبت أموالهم وأخرج الباقون الى القرى انظر الفصول المهمة للحجة المجاهد شرف الدين تجد الفتوى نصاً

٢ـ تقدم بيان انتصار المعز باديس الى مذهب مالك وحمل الناس عليه قهراً

ولجأ منهم بالمدينة الى الجامع فقتلوا كلهم -١- ، وهذه أحدى النكبات القظيعة التي لا قاها التشيع فى حياته وما اكثرها ومع ذلك فان التشيع اليوم منتشر فى افريقيا ويقدر عددهم بملبون ونصف .

جاوة

وفيها عدد كثير من الشيعة يقدر بمليون نسمة وللعلويين هناك اليد الطولى في نشر المذهب وكان منهم العلامة السيد محمد السيد عقيل صاحب المؤلفات القيمة كالنصائح الكافية والعتب الجميل وتقوية الايمان والقول الفصل وكان يقيم في سنغافورا من توابع الهند وكانت لهم أندية ادبية تربط أواصر بعضهم مع بعض.

مصر

لقد انتشر التشيع فى مصر عند انتشار الاسلام هناك وذلك بواسطة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله الذين شهدوا فتح مصر وهم المقداد بن الأسود الكندي وأبو ذر الغفاري وأبو رافع وابو ايوب الانصاري فهؤلاء هم دعاة التشيع وانصاره ولما دخلها عمار بن ياسر أيام عثمان دعا الى التشيع ونمت روحه حتى اصبحت البلاد كلها الى جانب علي وأجمعوا على مقاومة عثمان .

ثم دخلها بعد ذلك قيس بن سعد واليا فركز دعائم التشيع هناك وخنق لواؤه وكثرت جنوده لكن بدخول عمر بن العاص تأخر سير تلك الحركة الى ان زال ملك الامويين فاظهر المصريون ما انطوت عليه قلوبهم من الولاء لعلي (ع) ولا زال التشيع يظهر في مصر ويخفى حسب العوامل التي تدعو الى خفائه وظهوره وهو اليوم منتشر هناك وفيه فئة كثيرة .

-١- انظر الكامل لابن الأثير ج ٩ ص ١٢٢ ط ١

الهند

ظهر التشيع هناك وانتشر بسبب الروابط المتصلة بين العرب والهنود وقد اعتنق مذهب التشيع جماعة كبيرة من الوثنيين بمساعي المرشدين الذين دخلوا بلاد الهند من الشيعة ومنهم جماعة كثيرة باقون الى اليوم ولهم امارات في جميع الأقطار الهندية ولا يخلو بلد منهم وهناك بلد تختص بهم وأخرى يكونون الاكثرية بها واليك أسماء البعض منها لكنهور وهي المركز الوحيد للشيعة في الهند وعاصمة مملكة اوده الفانية ومنبع علمائها قديماً وتعد اليوم من اكبر البلاد العلمية وفيها مدارس عربية أهمها الجامعة السلطانية ومنها مدرسة الواعظين وهي تختص بالتبليغ والمدرسة الناظمية وقد أسسها العلامة السيد أبو الحسن كما أسس الجامعة السلطانية وفي لكنهور الشيء الكثير من آثار الشيعة كالمساجد والحسينيات . ومن البلدان جانبور، بتن آباد، مظفر آباد ، لاهور، بنجاب ، انظر ص ٢٥٨ من تاريخ الشيعة وان عدد الشيعة في الهند اليوم خمس وثلاثون مليونا أو اكثر

القطيف والاحساء وقطر

أما القطيف وقراها فهم شيعة خالصة . وأما الاحساء ، وقاعدتها هفوف فالشيعة فيها يشاطرون غيرهم كما ان في قطر يوجد كثير من الشيعة ولا يزال من هذه البلاد في النجف الأشرف مهاجرون لتحصيل علم أهل البيت انظر ص ٣٦٤ منه .

الافغان

انتشر التشيع في الافغان من زمن بعيد ويقدر عددهم اليوم بعشر ملايين

اميركا

هاجر كثير من الشيعة الى اميركا من السوريين وجبل عامل للتجارة والزراعة من قبل نصف قرن وينوف عددهم اليوم على خمسين الفا وهم ذوو شأن وعزة هناك يقيمون شعائر الاسلام علناً وقد بنوا مسجداً فخماً فى الولايات المتحدة وفي اميركا من الشيعة قوم من الفرس والهنود وقليل من العراقيين .

الصين

دخل مذهب التشيع الى الصين منذ القرن الرابع ويقدر عددهم اليوم باحد عشر مليونا .

روسيا

كان للشيعة في البلاد الروسية حرية واسعة في الشعائر الدينية كبلاد بخارى والقوقاس وكانوا قبل الحرب العالمية عام ١٣٣٢ يتواردون بكثرة لزيارة المشاهد المقدسة ويفدون مهاجرين لطلب العلم والى اليوم منهم جماعة فى النجف حالت دون وصولهم لأوطانهم ودون الصلات لهم في بلادهم هـذه السلطة الحاضرة ويقدر عددهم بعشرة ملايين (١)

---

(١) اعتمدنا فى هذا البحث على المصادر التالية : مجالس المؤمنين للقاضي نور الله التستري وأحسن التقاسيم للمقدسي وخطط الشام الاستاذ كرد علي ومع الشيعة الإمامية للشيخ محمد جواد مغنية وتاريخ الشيعة للعلامة الجليل شيخنا الشيخ محمد حسين المظفر وهو كتاب فريد فى بيان أدوار الشيعة فى التاريخ لا يستغنى الباحث عنه

العراق

اما العراق فقد انتشر به مذهب أهل البيت فى الصدر الأول وقام بذلك أصحاب الرسول في الكوفة والمدائن والبصرة وعرفت الكوفة بانها علوية النزعة وقام رجال الدعوة في الدفاع عن أهل البيت وتحملوا فى عهد معاوية ما تحملوا كما مر بيان ذلك وفي المدائن كان سلمان الفارسي وحذيفة اليمان قد نشرا دعوة التشيع هناك و كذلك البصرة وغيرها من مدن العراق من الشمال الى الجنوب وانتشر التشيع فيها بصورة ظاهرة والعراق اليوم معروف بتشيعه لأهل البيت وولائهم للعترة الطاهرة .

ايران

كانت قم وحدها فى القرن الأول شيعية وكان سير التشيع في ايران ثقيل الخطا وهم شيعة بني العباس وفيهم من يذهب الى تقديس الامويين ومناصرتهم كما أن فى خراسان نواصب وغلاة فى معاوية يدعون نبوته ولكن مذهب أهل البيت انتشر فى بلاد ايران بصورة تدريجية على مر الأدوار حتى أصبحت ايران اليوم كلها شيعة حكومة وشعباً وقامت بخدمة المذهب ونشر مآثر أهل البيت وعمارة مراقدهم .

تصفية الحساب

— ١ —

يطالعنا التاريخ بحوادث مؤلمة ونزاع بين طوائف المسلمين عامة وبين الشيعة والسنة بصورة خاصة ، فاذا أردنا ان نبحث عن الأسباب التي أدت الى حدوث تلك المنازعات نجدها سياسية قبل أن تكون دينية ، وقد اتضح لنا في الابحاث السابقة أن تدخل اولي النفوذ والسلطة هو الذي جر الامة الى تلك المنازعات وأوقعهم فى ورطة الاختلاف ونشوء تلك المعارك التي اضطرمت نارها وتنوعت أسبابها بصورة ظاهرية ، ويعود ذلك الى سبب رئيسي واحد وهو عامل السياسة .

فذهبت آلاف من النفوس ، واتسعت بذلك شقة الخلاف ، وفتحت باب الظنون والاتهامات، ولا يتعلق لنا غرض لذكر الخلاف بين جميع طوائف المسلمين بعضهم بعضا ، فتلك امور جرت لأسباب كونتها الظروف بدون التفات الى ماوراء ذلك من خطر يهدد كيان الأمة ، ويقضي على وحدتها التي هي أقوى جهاز تستطيع به الانتصار على خصمهم الذي وقف لهم يتحين فرص الوثبة للتشفي منهم ، وقد مرت الاشارة الى ذلك .

وحيث كان مبحثنا عن المذهب الجعفري وعوامل انتشاره ، فنحن لانتعرض إلا الى الاشارة لأسباب الخلاف المتكوّن بين السنة والشيعة ، وقد

مرت عليه قرون وقرون ولم تسعد الامة يوماً ما برفع سوء التفاهم وازالة تلك الحواجز التي تقف بينها وبين وحدتها التي أمرالله سبحانه وتعالى المسلمين بالمحافظة عليها ، وعالج الدين الاسلامي مشاكل الخلاف بينها بادق صورة .

فنحن نرى أن هذا الخلاف القائم بين الطائفتين يتكون من عاملين رئيسيين هما :

١ — الخلاف في الخلافة الاسلامية ومن هو المتأهل لهذه المنزلة ؟ وهي الولاية العامة والرئاسة المطلقة وهي لا تحصل إلا لمن خصه الله بالكمال ، وخلصه من شوائب النقص في الأقوال والأفعال ، ونزهه عن الظلم للرعية ، حتى يقيم الحدود و (الله أعلم حيث يجعل رسالته) والشيعة لا يرون تحقيق تلك الشروط وحصول هاتيك الصفات إلا في من اختاره الله وأمر نبيه بالنص عليه .

٢ — عوامل السلطة فان الطبقة التي سيطرت على نظام الحكم رأت من نفسها عدم انطباق تلك الشروط عليها والشيعة لا يرون قيمة لسلطان لا يلتزم بالشرع ولا يتنزه عن الظلم ولا يتورع عن المحارم ، وليس له قابلية تحمل أعباء الخلافة الاسلامية وإن هؤلاء الذين تربعوا على دست الحكم يريدون أن يكسبوا ثقة الامة ويركزون أنفسهم للاستناد بالسلطتين الروحية والزمنية فينالوا الثقة التامة ويصبحوا امراء المسلمين بحق مع عدم انطباق ما يؤهلهم لذلك فهم اذاً يرون الشيعة حزبا معارضاً ، وعقيدتهم لا تتمشى مع أغراضهم فكانوا لا يعارضون العقائد مادامت لا تعارض سياستهم وأغراضهم الخاصة. والناس في ذلك العصر يسيرون في حرية العقيدة وحرية العبادة بامن تحت ظلال السلطة وأمام القانون، اما اذا كانت العقيدة مخالفة لرأيهم أو أن لها دخل فى سياسة الدولة ، فلا يسمح القانون باظهارها ولا تقعد السلطة عن مقاومتها ، ومن الواضح ان عقائد

الشيعة تخالف دستور الحكومة في أغلب الأشياء ومن هذا التجأ القانون الى عدم المساواة في العقائد من جهة والى مساواتها من جهة أخرى ، فلذا ترى مواقف الحكومة مختلفة اختلافاً كلياً ، وتقف في أكثر حالاتها موقف الحيرة خوفاً من انتشار العقائد التي لها أثرها عند المفكرين فتصبح الأقلية أكثرية ، ولا يمكنها الوقوف أمام جارف الانكار ، فهي تلتجيء أبداً الى خلق مشكلات تفرق بها كلمة الامة لتثير الشحناء وتشغل الأفكار وعلى هذا الأساس حاولوا ابراز الشيعة في ذلك المجتمع بصورة تدعو الى مقاومتهم من كل الجهات وفصلهم عن المجتمع الاسلامي بالطعن في عقائدهم مرة وبالخروج على الجماعة مرة أخرى .

فوجهوا اليهم التهم ، وتقولوا الأقاويل التي لا ربط لها بالواقع ولا علاقة بينها وبين الحق وانما هي اتهامات كاذبة وافتراء محض ، تمكنت من قلوب السذج فاصبحت كالأمر الواقع لكثرة العوامل التي دعت الى تركيز تلك المفتريات فى أذهان الناس ، وأنت اذا نظرت بعين البصيرة تجد تلك المؤاخذات والاتهامات التي رميت بها الشيعة غير محدودة بحد ، بل هي تتسع باتساع غرض السلطة الحاكمة التي لعبت دورها فى مقابلة الشيعة على ممر أدوار التاريخ .

— ٢ —

سارت الأمور على ذلك الشكل الذي قضى على حرية التفكير في فهم الامور ، وأن لا يكون إلا ما تراه السلطة لا غير .

يدخل الامام مالك بن أنس على أبي جعفر المنصور ، فيوجه اليه سؤالا : من أفضل الناس بعد رسول الله (ص) ؟ وهنا يقف مالك موقف الحيرة عندما يريد أن يعبر عن رأيه الصحيح ، فربما يخالف رأي المنصور فيكون عرضة

للنقمة ، كما انتقم منه من قبل لمخالفته فى فتوى طلاق المكره .

ولكنه درس نفسية المنصور وعرف نواياه ، فاجابه : أبو بكر ، وعمر ، فقال المنصور : أصبت وذلك رأي أمير المؤمنين . وبالطبع ان رأيه محترم والرعية تابعة له فلا يمكن لأحد مخالفته ومن ذهب الى غير هذا فانما يعرض نفسه للسخط ويصبح فى قائمة المتهمين لمعارضة الدولة وناهيك ما وراء ذلك من بلاء ومحن ويمكننا ان نعتبر مسألة التفضيل بين الخلفاء انما كانت بهذا الشكل الحتمي لا من حيث الواقع وإلا لو ترك الأمر بدون تدخل للسلطة فيه لما كانت المسألة من المسائل المشكلة التي ابتليت بها الامة حتى أصبح القائل بافضلية علي على الشيخين: مبتدعاً ، زائغاً عن الحق سيء المذهب ، رافضي خبيث ، الى ما هنالك من التعابير التي اتخذها المتزلفون لرضا السلطة .

واذا رجعنا للواقع من حيث الواقع بدون مغالطة ولا تعصب بل نستكشف الأمر على ضوء التفكير الحر والدراسات الصحيحة الخالية من نزعة الأهواء والتعصب لكان هذا القول بعيداً عن الصواب وانما هي تقليد أعمى وجمود على اتباع السلف الذين عرفت نزعاتهم وأهواؤهم وميلهم للسلطة التي أصبحت ترغم الناس على ربط العقائد بدستور الدولة فترى المأمون يخلق مشكلة القول بخلق القرآن ويحمل الناس عليه بالقهر ، ولا يجعل للتفكير في الأمر مجالا ، فيقع ما يقع من قتل وتكفير الى غير ذلك ، ويأتي من بعده المتوكل فيخالف رأيه ويقضي على ما أمر به المأمون ويحمل الناس على القول بقدم القرآن بالقهر والقوة .

ويأتي القادر العباسي سنة ٤٢٢ فيحمل الناس على الاعتقاد بما يراه فى فضل الصحابة وتكفير المعتزلة القائلين بخلق القرآن ويؤلف بذلك كتابا يتلى على الناس في كل جمعه كما أنه حملهم بالقهر على الاعتقاد بالسنة ، واستتاب من خالفه من

المعتزلة والشيعة ، وأخذ خطوطهم بالتوبة ، وبعث الى السلطان محمود ، يأمره ببث السنة فى خراسان ، ففعل ذلك ، وبالغ وقتل جماعة ونفى جماعة آخرين من المعتزلة والشيعة وغيرهم ، وأمر بلعنهم على المنابر وذلك في سنة ٤٠٨ ـ١ـ وفي سنة ٤٠٣ يصدر مرسوم من البلاط العباسي يتضمن القدح فى نسب العلويين خلفاء مصر وانهم ليسوا من ابناء علي ـ٢ـ .

ونشر هذا المرسوم ووزعت نسخه والزم علماء العاصمة بتوقيعه الى غير ذلك مما يطول شرحه من الامور التي تدخلت بها الدولة لغاياتهم الخاصة ، ولا يريدون بذلك إلا فتح باب المناقشات ، لا بصورتها الواقعية ولكن بالصورة التي يريدون من ورائها الشغب والاختلاف بين الامة للنفوذ لمصالحهم الخاصة ، وإلا فيلزمهم اعطاء الحرية الكاملة فى المناقشات العلمية التي تختلف فيها الامة من حيث فهم الواقع ، ولا يوجد عندهم ذلك ، لأن الحذر يحوط بهم من اتساع دائرة الفكر ، فيؤدي الى مؤاخذتهم على ما ارتكبوه من الشذوذ وسوء السيرة .

ونرى في جميع أدوار التاريخ ان الامة لم تأخذ حريتها الكاملة فى امور الدين وبذلك قطعوا الصلاة الاجتماعية بين أفراد الامة بعضهم بعضا .

فنرى انهم بهذا التدخل وبهذا الشكل من المعاملة القاسية المفكرين قد اساؤا الى المجتمع الاسلامي وتركوهم يخوضون غمرات المعارك المذهبية والعقائد الدينية .

والغرض ان نظر الدولة لموقف الشيعة فى جنب آل محمد يعتبرونه موقفاً

ـ١ـ شذرات الذهب ج ٣ ص ١٨٦

ـ٢ـ تاريخ ابن الفداء ج ٢ ص ١٥٠

معارضاً لسياستهم ومحاولة ظاهرة للقضاء على كيان الملك ، فهم يحذرونهم أشد الحذر ويدفعون الناس الى التبري منهم بشتى الوسائل حتى أصبحت تهمة التشيع يفرون منها ويرون انها أعظم من تهمة الزندقة .

قال الزمخشري في كيفية الصلاة على محمد (ص) : وأما اذا أفرد غيره من أهل البيت بالصلاة كما يفرد ، فمكروه لأن ذلك صار شعاراً لذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأنه يؤدي الى الاتهام بالرفض وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم ، وأمثال هذه الفتاوى كثيرة جداً . وقد تركوا القول باشياء على صحتها و ثبوت تشريعها ، وليس لهم في تركها إلا لأن الشيعة تقول به ومتابعتهم يؤدي الى الرفض كما سيأتي

ومن هذا نعرف دليل حراجة الوقف والى أي حد انتهى الأمر في الابتعاد عن شيعة أهل البيت في عصر تأصلت به روح العداء في قلوب الناس وساروا مع الدولة جنباً لجنب وهل الرفض إلا حب أهل البيت كما يوضح لنا الشافعي بقوله :

اذا في مجلس ذكروا علياً ... وسبطيه وفاطمة الزكية
يقال تجاوزاً يا قوم هذا ... فهذا من حديث الرافضية
برئت الى المهيمن من اناس ... يرون الرفض حب الفاطمية

ويقول :

قالوا ترفضت قلت كلا ... ما الرفض ديني ولا اعتقادي
لكن توليت غير شك ... خير امام وخير هادي
إن كان حب الوصي رفضاً ... فانني أرفض العباد

وأظرف شيء ما يحدثنا به الخطيب عن الفتح بن شخرف حملتني عيني فنمت فبينا أنا نائم اذا انا بشخصين فقلت للذي يقرب مني :

من أنت يا هذا ؟ فقال من ولد آدم ، قلت كلنا من ولد آدم ، فما الذي وراءك ؟ قال لي علي بن ابي طالب ، قلت له أنت قريب منه ولا تسأله ، قال أخشى ان يقول الناس أني رافضي -١-

وكان الفضل بن دكين يتشيع فجاءه ولده يوماً يبكي فقال له : مالك فقال: ان الناس يقولون انك تتشيع فانشأ يقول :

وما زال بي حبيك حتى كأنني   برجع جواب السائلي عنك اعجم

ولا سلم من قول الوشاة وتسلمي   سلمت وهل حي على الناس يسلم -٢-

وان أمراً يدعو الولد الى هذا الحذر ويحمله على البكاء لعظيم جداً ، ولا غرابة من ذلك فانه يخشى على أبيه القتل ، وعلى داره الهدم ، وماله النهب ، طبقاً لقانون الدولة المقرر تنفيذه في حق الشيعة لأنهم كانوا ينفذون هذا القانون في حق من اتهم بالميل للعلويين .

كان ابراهيم بن هرثمة شاعراً مجيداً مدح آل البيت بابيات منها :

ومهما أُلام على حبهم   فاني أحب بني فاطمه

بني بنت من جاء بالمحكما   ت وبالدين والسنة القائمه

فلست ابالي بحبي لهم   سواهم من النعم السائمه

ولما دخل على المنصور قال : لا مرحباً ولا أهلا ، يا ابراهيم قد بلغني عنك أشياء لولا ذلك لفضلتك على نظرائك فاقر لي بذنوبك فاستعفاه فعفى عنه حفظاً لدمه وقال لئن بلغني عنك امراً أكرهه لاقتلنك ، ولما دخل ابراهيم المدينة

-١- الخطيب ج ١٢ ص ٢٥١ .
-٢- تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٣٨٦ .

أتاه رجل من العلويين فسلم عليه فقال له ابراهيم تنح عني لا تشط بدمي ـ١ـ

وهذا منصور النميري أنشأ أبياتا منها :

آل النبي ومن يحبهم يتطامنون مخافة القتل

أمن النصارى واليهود ومن في أمة التوحيد في ازل

فغضب الرشيد وأرسل اليه من يقتله فوجدوه ميتاً فقال : لقد هممت ان أخرج لسانه من قفاه وأراد أن ينبش عظامه فيحرقها ولم يفعل . ـ٢ـ

وقطعوا لسان ابن قرايا لأنه كان يمدح آل محمد (ص) وينشد الأشعار فيهم فثارت العامة فى بغداد ، وقدم للقاضي ، فحكم عليه بقطع لسانه ويده ، استناداً الى مادة الحط من كرامة الصحابة ، بمدحه علياً وتفضيله عليهم ، وليت الامر ينتهي عند هـــذا الحد ، ولكنهم تبعوه عندما أخذ للمارستان ، ورموه بالحجارة ، فالقى نفسه فى دجله فغرق وأخرجوه ميتاً ، وأحرقوا جسده ، ووقعت بذلك معركة بين السنة والشيعة وذلك فى سنة ٥٧٤ ـ٣ـ

وقامت البينة على الحسن بن محمد بن ابي بكر الشيمي ، بانه سب الصحابة عند القاضي شرف الدين المالكي ، فحكم بضرب عنقه بسوق الخيل بدمشق في جمادى الاولى سنة ٧٤٤ ـ٤ـ .

وامثال هذه الفضائع كثيرة لا يسعنا عرضها ، ولكنا أوردناها لنأخذ صورة عن أعمال الدولة وسياستها مع الشيعة وهنا أمر مهم يلزمنا ان نتساءل عنه .

وهوان الاقدام على سفك دم المسلم باسم الشريعة لجرأة عظيمة ، وان دولة

ـ١ـ تاريخ بغداد ج ٦ ص ١٢٧
ـ٢ـ زهر الآداب ج ٣ ص ٧٠
ـ٣ـ شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٤٦
ـ٤ـ شذرات الذهب ج ٦ ص ١٤٠

تدعي السير على نظام الشرع كان يلزمها أن تتخذ طريقاً للخلاص من الانكار والمؤاخذة ، كما اتخذت ذلك في كثير من القضايا بارتكاب المحرمات من تفسخ في الأخلاق وتجاهر بالمنكر ، ولكنهم وضعوا أحاديث وفتاوى تدفع عنهم مؤاخذة المنكرين من الأمة ، اذاً ماذا اتخذوا تجاه هذه الفضائع وهذه المنكرات في معاملة الشيعة ؟ أليس في الامة علماء ينبهون الحكومة والعامة على هذا الخطأ عند مخالفتهم نصوص الكتاب والسنة باراقة الدماء في جرم لا يستوجب ذلك ؟ فكيف تغفل الحكومة عن هذه المهمة ؟ وكيف سكت العلماء عن هذا الفعل الشنيع ؟ نعم انهم لم يغفلوا عن ذلك وأخذوا التدابير اللازمة في رد المنكرين بتخصيص ما ورد في الكتاب والسنة في تحريم قتل المسلم بامور .

١ — لقد رفعوا مقام الصحابة على الاطلاق ، ومنعوا الناس عن الخوض في أحاديثهم وحوادثهم ، وجعلوا لهم منزلة العصمة الادعائية ، وقرنوهم بالرسول الأعظم (ص) وجعلوا مؤاخذتهم بشيء انما هو مؤاخذة للرسول (ص) .

ذكر عند الرشيد حديث ابي هريرة ، ان موسى لقي آدم فقال : أنت آدم الذي أخرجتنا من الجنة ؟ فقال القرشي ابن لقي ام موسى ؟ فغضب الرشيد ، وقال : النطع والسيف زنديق يطعن في حديث رسول الله -١- .

وبهذا الجت الامة ليحرموهم حرية التفكير ، والزموا بالنزول لارادتهم فمن خرج عن ذلك عد زنديقاً والزنديق يقتل ، وبالطبع ان الشيعة لا تقيم لهذا الحكم وزناً فهم في نظر القانون يحل قتلهم من هذه الجهة ، ومع ذلك فقد وضعت أحاديث كاذبة على صاحب الرسالة في تكريم الصحابة وبمقتضى ذلك لا يشملهم نظام الاسلام وأحكامه .

-١- تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٧

٢ — إن مبدأ الشيعة وعقائدهم لا يستطيع أحد ان يؤاخذهم بشيء فيها ، لأنها مستقاة من ينبوع أهل البيت عليهم السلام ، وهم يرونهم نصب أعينهم يقيمون الصلاة ، ويحتفظون بشعائر الدين ، اذاً كيف يحكم عليهم بالكفر ؟ ولكنهم سلكوا طريقاً نجحوا فيه ، وذلك في تركيز فكرة الغلو عند الشيعة في أذهان العامة ، ولأن الشيعة يدعون لآل البيت الربوبية ، ودسوا في صفوفهم من غلوا منهم التفاني فى بث روح التخاصم بين المسلمين ، وقام بنشر هذه الفكرة بين العامة اولئك الدجالون الذين يفترون على الله الكذب ، من قصاص ووعاظ وزهاد ، يتصنون بالتدين وهم جزارون لا يتورعون عن المحارم .

وأول من قام بهذه الفكرة هم الأمويون فى قضية عبد الله بن سبأ كما مر ذكره وسار الناس على ذلك تقليداً واتباعاً لقانون الدولة .

٣ — ان الشيعة لما عرفوا بموالاة أهل البيت ومحبتهم لهم ، وأخذ الأحكام عنهم ، أصبح ولاة الأمر يحذرون الانكار من رجال الفكر الذين لا يخدعون باقوال الدجالين من وعاظ وقصاص لكيلا تتسع عليهم دائرة المؤاخذة ، وربما يطالبون بشيء أوضح مما مر في تكفير الشيعة والطعن في عقائدهم وهم يأخذونها من أهل البيت (ع) .

مع ان هناك أحاديث صحيحة وردت فى محبي أهل البيت وشيعتهم لا مجال لانكارها اذاً كيف يصنعون وليس فى امكانهم انكار تلك الاحاديث التي أخذت مكانتها فى المجتمع الاسلامي ؟ ولم تستطع الارهابات محوها من الاذهان ، وليس في قدرة السلطة أن تفرض طاعتها على الشيعة قهراً ، فهم قد قهروها فى أغلب المواقف ، فلنعرف إذاً كيف استطاعوا ان يفهموا أتباعهم انحراف الشيعة عن الدين ؟ مع وجود تلك الأحاديث الصحيحة . أيكفي أن يستندوا الى المادتين

الأوليتين، أم ان الأمر يحتاج الى اكثر من ذلك ؟ نعم الامر أهم من أن يتهاون فيه ويلزمهم أن يتخذوا شيئاً يستطيعون تغيير تلك الأحاديث ووضع زيادة يصلون من ورائها لغايتهم المقصودة ، فرجعوا حينئذ الى لجنة الوضع التي اتخذوها ملجأً لهم في ضرب الأحاديث عن صاحب الرسالة (ص) ، عندما يهمهم أمر ، فكانت النتيجة ان توضع زيادة تلحق ببعض الاحاديث ليبطل الاستدلال بها . واليك بعض الاحاديث الواردة فى محبة أهل البيت .

كقوله صلى الله عليه وآله : يا علي لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق -١-

وقوله (ص) : يا علي انك ستقدم على الله وشيعتك راضين مرضيين ويقدم عدوك غضابا مقمحين -٢- .

وقوله (ص) : وقد أخذ بيد حسن وحسين فقال من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة -٣-

وقوله (ص) : حب علي براءة من النار حب علي براءة من النفاق شيعة علي هم الفائزون -٤-

وقوله (ص) : من يريد ان يحيي حياتي ويموت موتي ويسكن جنة الخلد التي وعدني ربي فليتول علي بن ابي طالب فانه ان يخرجكم من هدى ولن يدخلكم

-١- صحيح مسلم ج ١ . والترمذى ج ٢ ص ٢٩٨ وأحمد فى مسنده ج ٢ ص ١٠٢ ط ٢ .

-٢- أخرجه الطبرانى انظر الصواعق المحرقة لابن حجر ص ٩٣

-٣- أخرجه الحاكم ج ٢ ص ١٤٩ . وأحمد فى مسنده ج ٢ ص ٢٥ ط ٢

-٤- أخرجه الديلمى انظر كنوز الحقائق .

في ضلاله -١- .

وقوله (ص) : علي وشيعته هم الفائزون يوم القيامة -٢- .

ولما نزلت « قل لا اسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » قالوا يارسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم قال صلى الله عليه وآله : علي وفاطمة وابناهما -٣-

وقوله (ص) : ياعلي أنت وشيعتك في الجنة .

وقوله (ص) : يا أبا الحسن أنت وشيعتك في الجنة .

وقوله (ص) : ياعلي أنت وشيعتك تردون علي الحوض رواء .

ولما نزلت « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك خير البرية » قال هو أنت ياعلي هو أنت وشيعتك تأتون يوم القيامة راضين مرضيين -٤-

وأخرج الخطيب بسنده عن الفضل بن غانم عن سوار بن مصعب عن عطية العوفي عن ابي سعيد الخدري عن أم سلمة قالت : كانت ليلتي من رسول الله صلى الله عليه وآله فاتته فاطمة ومعها علي فقال له النبي (ص) : أنت وأصحابك في الجنة أنت وشيعتك في الجنة .

هـذه بعض الأحاديث الصحيحة الواردة عن صاحب الرسالة (ص) في فضل علي وأهل بيته والزام الناس باتباعهم ، وكثير غيرها كحديث الثقلين وغيره .

-١- أخرجه الحاكم في المستدرك ج ٢ ص ١٢٦

-٢- انظر كنوز الحقائق

-٣- أخرجه الطبري في ذخائر العقبى ص ٥٢

-٤- أخرجه الخطيب من طريق أم سلمة ج ١٢ ص ٣٥٨

والى هنا تأتي يد الوضع فتعمل عملها بالحاق زيادة لهذه الأحاديث ، ولكنها زيادة تدل بنفسها على نفسها ، واليك أنموذجاً من تلك الموضوعات على صاحب الرسالة . إن النبي صلى الله عليه وآله يقول : يا علي أنت وأصحابك في الجنة ، أنت وشيعتك في الجنة ، فيأتي الفضل بن غانم بوضع زيادة والحاقها بهذا الحديث ، ألا إن ممن يحبك قوماً يضفزون الاسلام بالسنتهم يقرأون القرآن لا يتجاوز تراقيهم، لهم نبز يسمون الرافضة فاذا لقيتهم فجاهدهم فانهم مشركون -١-

ويأتي يحيى الحماني الكذاب الشهير بزيادة عن علي انه قال قلت يارسول الله ما العلامة فيهم قال: يقرضونك بما ليس فيك ويطعنون على أصحابي ويشتمونهم.

وبصورة أخرى يا علي ينتحلون حبك يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم وعلامتهم انهم يسبون ابا بكر وعمر .

وبصورة أخرى وسيأتي قوم لهم نبز يقال لهم الرافضة فاذا لقيتموهم فاقتلوهم فانهم مشركون -٢-

هكذا تجرأ اولئك المتقربون لاسيادهم بالكذب على الله ورسوله بوضع تلك الزيادة فى الأحاديث الواردة عن صاحب الرسالة بمدح شيعة أهل البيت ، فاصبحت تلك الاكذوبة مقررة بصورة رسمية كقانون تسير عليه السلطة التنفيذية ، وتلقاها السذج بكل قبول وأخذت مكانتها من ذوي العقول القاصرة ، اما العلماء فقابلوها بالانكار وصرحوا بوضعها بكل صراحة ، ولا بد لنا من الاشارة لبعض رجالها ، أو أعضاء لجنة الوضع ليتضح الأمر .

(منهم) الفضل بن غانم المروزي القاضي ، وقد كان مشهوراً بفساد

-١- تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٣٥٨ .
-٢- انظر الاشاعة فى اشتراط الساعة .

الأخلاق ومتهماً في دينـه وكان غير مقبول الرواية وترك الحفاظ أحاديثه وطعنوا فيه ، قال الدارقطني : الفضل بن غانم ليس بالقوي ، وقال يحيى بن معين : ضعيف ليس بشيء ، وغير ذلك من أقوال رجال العلم . وكيف يؤمن على حديث رسول الله (ص) من عُرف عنه حب الغلمان وفساد الأخلاق كما جاء ذلك في ترجمته -١- وان فضيلة القاضي واضع هـذه الاكذوبة على رسول الله (ص) دعاه طمعه وحبه للدنيا عندما يتقرب بها لولاة الجور ، لانهم كانوا يقربون من عُرف بذلك ويرفعون منزلته .

و (منهم) سوار بن مصعب الهمداني الكوفي الأعمى ، روى عن عطية العوفي وجماعـة قال فيه يحيى بن معين : سوار بن مصعب ليس بشيء ، وقال البخاري : منكر الحديث ، وقال النسائي وغيره : متروك ، وقال ابو داود : ليس بثقة ، وقال احمد وابو حاتم : متروك الحديث ، وقال النسائي : ليس بثقة ، ولا يكتب حديثه ، وقال الحاكم : روى عن الأعمش وابن خالد المناكير ، وعن عطية العوفي الموضوعات -٢- ولا نطيل الكلام بذكر الآخرين من رجال هذه الزيادة كأبي جناب الكلبي وسويد بن سعيد وابو يحيى الحماني المرجىء الكذاب ، فقد نص الحفاظ على كذبهم وعدم قبول روايتهم كما انهم نصوا على هذه الزيادة بالوضع ، وصرح بذلك علي بن محمد الشوكاني وابن حجر وابن تيمية والخطيب البغدادي وغيرهم .

والغريب ان هذه الحقيقة يقرها الكثير من العلماء وينصون على كذب هذه الزيادة ، ولكن هناك حثالة من المتعصبين الذين لا يروق لهم إلا ايقاع

-١- انظر ترجمته في لسان الميزان ج ٤ ص ٤٤٥ وتاريخ بغداد ج ١٢ ص ٣٥٧
-٢- انظر ترجمته في لسان الميزان ج ٣ ص ١٢٨

الفرقة بين صفوف المسلمين جعلوا هذه الاكذوبة وسيلة للوقيعة بشيعة أهل البيت، وتقربوا الى ولاة الجور بنشرها وادخالها فى قالب الاعتبار ولكنها محاولة فاشلة « فجولة الباطل ساعة ، وجولة الحق الى الساعة » .

والغرض أن ولاة الجور اتخذوا هـــذه الامور كقانون يحكمون به على المعارضين لاحكامهم ، فيقتلونه بسيف الشرع ، فكان من الخطر البالغ ان يجهر الانسان بأي رأي حر، أو يذهب الى خلاف ماتراه السلطة الحاكمة ، ومن سوء حظ الرجل ان يكون له خصوم يسعون به للسلطان، فتنطبق بحقه هذه المادة فيكون نصيبه القتل أو السجن .

لذلك نرى أن الكثير من غير الشيعة حكم عليهم بهذه المادة وليس لهم ذنب إلا التحرر عن الجمود الفكري ، والصراحة بشيء يخالف غرض الدولة .

فهذا المولى ظهير الدين الاردبيلي ، حكم عليه بالأعدام واتهم بالتشيع ، وذلك لأنه ذهب الى عدم وجوب مدح الصحابة على المنبر وانه ليس بفرض ، فقبض عليه ، وقدم للمحاكمة فحكم عليه القاضي بالاعدام ونفذ الحكم في حقه فقطعوا رأسه وعلقوه على باب زويلة بالقاهرة -١-.

وامتنع أحد القضاة من المبايعة للخليفة المقتدر ، وقال : هو صبي لا تصح مبايعته ، فحكموا عليه وذبح أمام الملأ بدمشق .

وهذا سليمان بن عبد القوي المعروف بابي العباس الحنبلي المتولد سنة ٦٥٧ والمتوفى سنة ٧١٦ كان من علماء الحنابلة ، ومن المبرزين في عصره ، ودرس في اكثر مدارس الحنابلة فى مصر ، نسب الى الرفض ، وقامت عليه الشهود في ذلك حتى تعجب هو من هذه النسبة واستغربها فقال :

-١- شذرات الذهب ج ٧ ص ١٧٣

حنبلي رافضي ظاهري   اشعري انها احدى الكبر

وقد عزر في القاهرة لمدحه علياً بابيات منها :

كم بين من شك في خلافته   وبين من قيل انه الله

ونسب الى هجاء الشيخين ، والحط من مقام عمر بن الخطاب لقوله في شرح الأربعين : إن أسباب الخلاف الواقع بين العلماء تعارض الروايات والنصوص ، وبعض الناس يزعم أن السبب في ذلك هو عمر بن الخطاب ، لأن الصحابة استأذنوه فى تدوين السنة فمنعهم مع علمه بقول النبي (ص) : « اكتبوا لأبي شاه » وقوله : « قيدوا العلم بالكتابة » فلو ترك الصحابة يدوّن كل واحد منهم ماسمع من النبي (ص) لانضبطت السنة ، فلم يبق بين آخر الامة وبين النبي (ص) إلا الصحابي الذي دونت روايته ، لأن تلك الدواوين كانت تتواتر عنهم كما تواتر البخاري ومسلم انتهى .

وبهذه الصراحة مع ما فيها من الغموض نسب هذا الحنبلي الى الرفض ، ونال الضرب والسجن والتبعيد عن وطنه وفصل عن وظيفة التدريس -١- .

ومن أغرب الاشياء مايحدثنا المقدسي عند دخوله الى اصفهان بقوله : وفيهم بله وغلو فى معاوية ، ووصف لي رجل بالزهد والتعبد ، فقصدته وتركت القافلة خلفي ، فبتُّ عنده تلك الليلة ، وجعلت أسأله الى أن قلت : ماقولك في الصاحب؟ فجعل يلعنه ، قلت: ولم؟ قال انه أتى بمذهب لا نعرفه ، قلت : وما هو؟ قال : انه يقول ان معاوية لم يكن مرسلا ، قلت : وما تقول أنت ؟ قال أقول كما قال الله عز وجل : لا نفرق بين أحد من رسله ، ابو بكر كان مرسلا ، وعمر كان مرسلا ، ثم عدّ الأربعة ، ثم قال : ومعاوية كان مرسلا ، قلت لا تفعل ،

-١- انظر تاريخ علماء بغداد للسلامي ص ٥٩ والدرر الكامنة لابن حجر .

أما الأربعـــة فكانوا خلفاء ، ومعاوية كان ملـكا ، وقال النبي (ص) : الخلافـة بعدي الى ثلاثين سنة ثم تكون ملـكا فجعل يشنع علي وأصبح يقول للناس : هـــذا رجل رافضي قال المقدسي : فلولم أهرب وأدركت القافلة لبطشوا بي -١- .

* * *

وعلى هذا سار الناس على غير هدى يزدحمون في دائرة ضيقـة ، وقد سلبوا حرية الرأي وحرية التفكير . فلذلك تراهم لا يعرفون معنى الطعن ، ولا يهتدون لطرق المؤاخذة ، ولا يتورعون في أمر ، ولا يقفون عند حد ، وانما هي فوضى الاتهام والتقول لذلك تراهم يحكمون على اناس بشيء وهم لا يتصفون ببعضه .

حكموا على الحاكم أبي عبد الله النيسابوري صاحب المستدرك بانه شيعي لذكره في كتابه حديث الطائر المشوي ، وحديث من كنت مولاه فعلي مولاه ، وبالطبع ان ثبوت هذين الحديثين الصحيحين يخالفان سياسة الدولة، وهل يستطيع أحد أن يتفوه بشيء منها ؟ وقد عقدت الالسن وكمت الأفواه ، فمن يستطيع الخروج على نظام الدولة إذ لا قيمة لنظم الاسلام ومقاييس العقل ، ومهما يكن من أمر فالشيء المهم الذي نريد التنبيه عليـه ان تلك الخلافات التي وقعت بين المسلمين إنما هي من الامور التي اتخذتها السلطة لاغراضها الخاصة .

وان تلك الاتهامات التي اتهمت بها رجال الامة فاريقت بها دماؤهم ، انما كانت بسبب حرية الرأي وقوة التفكير المخالف للسياسة في ذلك العصر ، فانهم يريدون أن يجعلوا رجال الفكر وحملة العلم من الأمة كقطيع غنم يوجهونهم الى

-١- احسن التقاسيم ج ٢ ص ٢٩٦

أي جهة أرادوا بدون تفكير منهم أو اختيار في الأمر .

* * *

ومما تقدم نستنتج ما لتلك النظم الموضوعة رغبة ورهبة من التأثير العميق في روح الجماعات من تحمل العداء للشيعة ، فلا نستغرب إذاً تعبيرهم عن التشيع بكونه بدعة كما هو في كثير من عبارات أهل الحديث ، فالبدعة هنا في مقابلة سنة السياسة لا سنة الشريعة المقدسة . واذا أردنا اجراء الحساب معهم عما ارتكبوه في حق الشيعة فلا يستطيعون الجواب بشيء ، لأنهم ساروا مع التقاليد ، والا فما هي بدعة التشيع وهم مجمعون على ان الشيعة هم الذين شايعوا علياً وتابعوه ، اتكون متابعة علي والأخذ عنه ومحبة أهل بيته بدعة ؟ « ما جاءنا بهذا من سلطان » .

ومع ذلك كله فانهم لم يظفروا يوماً ما بالذي حاولوا تحقيقه من وراء اتخاذ تلك الوسائل في تحويل الشيعة عن عقيدتهم الراسخة ، وقد أحاط الفشل بتلك العوامل ، ولم تنجح النجاح المأمول في عرقلة سير انتشار مذهب أهل البيت ، ولم تؤثر تلك الدعايات لانها أسباب بعيدة عن الأثر ، لذلك وقف تيارها ، وأخذ المذهب في الانتشار ، فاصبح فى أقطار العالم عدد من الامامية لا يقل عن تسعين مليون . وبذلك يصح لنا ان نحاسب الكتاب الذين تولعوا بذم الشيعة ، والتهجم عليهم خضوعاً لمؤثرات العاطفة ، واستجابة لدواعي الفرقة بين طوائف المسلمين ، ولا أدري بماذا استساغوا هذا النقد وتولعوا بالذم .

واذا أردنا أن نحاسب الناقمين على الشيعة طبقاً للمنطق الصحيح ، فان الأرقام تقف عن مسايرتنا ، وربما تقصر عن الاحصاء ، ولا نريد ذلك .

ولكننا نريد الاعتدال في الحكم وترك المغالطات والتقولات ، فان ذلك نقص بمن يدعي العلم والثقافة ، فقد مرت العصور الذي تقتضي اثارة تلك العواطف ، وايقاد نار البغضاء بين المسلمين فما لهم يضربون على وتر الطائفية بين آونة وأخرى ، كأنهم يجهلون مبادىء الشيعة . والغرض أن تلك العوامل التي اتخذها خصوم آل البيت وحسبوا كل حساب لنجاحها قد باءت بالفشل ولم تنجح النجاح المطلوب .

ولا بد لنا من عرض صورة موجزة عن لجنة الوضع وأعمالها اتماماً للغرض .

لجنة الوضع

اتسع نطاق الكذب على الله وعلى رسوله ، وتلاطمت امواج الافتراء ، وتصدر قوم لا أمانة لهم ، ولا دين يردعهم ، ولا عهد لهم بالصدق ، فحدثوا الناس بالأكاذيب ، ونمقوا وزوروا ، ووضعوا من الأحاديث انى شاءت رغباتهم ، ارضاء لسلطان لا يرعى للصدق حرمة ، ولا يرى للدين قيمة ، فدرج الناس على ذلك وتلقنوا تلك الاحاديث بلا تمحيص ولا تتبع ، ولا اريد أن أتعرض لعهد الصحابة وما احدثوا فيه من أحاديث ، ولعل يد الوضاعين انتخبت سلسلة تتصل بهم فى الحديث ، فان اصحاب محمد (ص) أجلّ قدراً وأعلى منزلة من تعمد الكذب عليه ، إلا من صارعته الدنيا فصرعته ، وباع آخرته بدنياه فكان نصيبه الخسران ، وماهو من مصداق الصحبة في شيء كسمرة بن جندب وغيره الذي كان يساومه معاوية في وضع الأحاديث أو تحريف ما ازل الله بمئات الآلاف من الدنانير .

ولكن نريد ان نتعرض لعصر اشتداد الفوضى فى العقيدة . والخروج على حدود الأمانة في النقل يوم دار الزمان دورته . ودبّ داء الحسد والتنافس على حب الرئاسة والتقرب الى السلطان . عندما اشتدت حاجته الى مرتزقة يجعلهم قنطرة الى غايته ، ليبرر مواقفه المخالفة لاحكام الدين . فكان ما كان من تشجيعه للكذابين والوضاعين ، فكانت هناك سلسلة أحاديث موضوعة

رغبة فى نواله ، وطلباً لاستصفاء وده ، وقد فتحت باب التقرب الى السلطان بمفاتيح الاكاذيب ، فدخل الكثير منهم .

يدخل غياث بن ابراهيم على المهدي ، وكان يحب الحمام ، فطلب منه المهدي ان يحدثه فيأتي بحديث عن ابي هريرة لا سبق إلا في حافر أو نصل وأزاد فيه أو جناح ، فامر له المهدي بعشرة آلاف درهم ، فلما قام غياث قال المهدي : أشهد انه قفا كذاب على رسول الله (ص) ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله جناح ولكنه أراد أن يتقرب إلي -١-

ويدخل ابو البختري وهب بن وهب قاضي بغداد على هارون الرشيد ، وهارون يطير في الحمام فقال هل تحفظ فى هذا شيء ؟ فقال نعم : حدثني هشام عن عروة عن أبيه عن عائشة ان النبي (ص) كان يطير الحمام ، فنرى فضيلة القاضي سريع الارتجال بوضع الأحاديث رغبة لنوال السلطان وتحبباً اليه ، بدون التفات الى مؤاخذة أو خوف من الله تعالى .

وكان شاه بن بشر بن ماميان معروفا بالوضع في الدولة العباسية . ومن أحاديثه عن جابر بن عبد الله مرفوعاً : اتاني جبرئيل وعليه قباء أسود ومنطقة وخنجر ، فقلت ما هذا ؟ فقال : يأتي زمان يكون لباسهم كهذا قلت : ياجبرئيل من يكون رئيسهم ؟ قال من ولد العباس .

واستجلب الرشيد اسحق المعروف (بابي حذيفة) المتوفى سنة ٢٠٠ ، وهو معرف بالكذب ومشهور بالوضع ، فامره الرشيد أن يجلس في مسجد ابن رغبان ويحدث الناس ، فاخذ اسحق يحدث بالاكاذيب ، ويروي عن خلق من

-١- تاريخ بغداد ج ١٢ ص ١٩٣

الثقات اكثرهم ماتوا قبل أن يولد -١-

واستقدم المهدي ابا معشر السندي ، واشخصه الى بغداد ، وقال : تكون بحضرتنا تفقه من حولنا . وكان ابو معشر ماهراً بوضع الأحاديث والقصص . قال ابن جزره : ابو معشر اكذب من تحت السماء -٢- وصنف كتاب المغازي، وروى عنه الواقدي وابن سعد ، وقد نعم في بغداد برضا كثير من رجال البلاط العباسي ، وقد استمد منه الطبري معلومات عن التاريخ الانجيلي ومن تاريخ النبي (ص) ، كما استمد منه بنوع خاص معلومات تاريخيـــة تنتهي الى عام وفاته .

وناهيك ما ابتدعه هؤلاء من الأحاديث حباً للدنيا بما يقربهم عندالسلطان زلفى ، لمخالفتهم الشرع وخروجهم عن سلطان العقل .

وهناك عناصر فى الوضع من طراز آخر ، وهم الذين قاموا بنصر مبادئهم في وضع الأحاديث على صاحب الرسالة ، بدون مبالاة فى تعمد الكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله .

فهذا نعيم بن حماد بن معاوية المتوفى سنة ٢٢٧ كان ماهراً فيوضع الحديث متجرئاً على مقام صاحب الرسالة . قال الذهبي : وكان يضع الحديث فى تقوية السنة ، وحكايات فى ثلب ابي حنيفة وكان صلباً في السنة . ومنهم أحمد بن عمرو ابن مصعب بن بشر كان من الوضاعين ومن أهل السنة المجودين ووضع بذلك كتباً فى تقوية السنة كلها موضوعة منتشرة عند الخراسانيين فى عصره وكان معروفا

-١- تاريخ بغداد ج ٦ ص ٣٤٦

-٢- تاريخ بغداد ج ٤ ص ٤٣١ .

فى نصرة السنة بوضع الأحاديث الكاذبة عن الثقاة -١-

ومنهم علي بن أحمد بن الحسين بن محمد ، كان شديد العصبية في السنة يضع الأحاديث في نصرتها -١- .

ومنهم أحمد بن عبد الله الانصاري كان من الوضاعين لنصرة السنة ، وهو واضع الحديث عن ابن عمر مرفوعاً في قوله تعالى : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » قال : فاما الذين ابيضت وجوههم - أهل السنة - واما الذين اسودت وجوههم - أهل البدعة -٢- .

لقد كان خطر اولئك الدجالين عظيما جداً ، فانهم تزلفوا لولاة الأمر بوضع الاحاديث ، فاتخذوا منهم اعوانا على حل مشاكل يعجزهم حلها بالقوة ، ولكنهم جعلوا ما يضعونه وسيلة فى تعزيز مركزهم أولا ، ومقابلة خصومهم ثانياً ، واشغال الرأي العام ثالثاً ، وكان الأمر الذي يهمهم قبل كل شيء ، هو أمر الشيعة الذين آثروا تضحية النفس على الاذعان للخصم ، ولم تربطهم معهم رابطة ، ولم يعترفوا بصحة تلك الولاية الجائرة ، فلا يصح لهم السكوت عن معارضتها وهم طالمون لهذا المنصب ، لذلك اتخذت السلطة معهم طرق المكر والخداع والتمويه على الناس ، حتى بلغ بهم الأمر الى وضع الأحاديث بخروج الشيعة عن الاسلام كما مر بيانه ، وهي تدل بمنطوقها على تحليل دمائهم ومعاملتهم معاملة الكفرة ، مع العلم بان ذلك لا ينطبق مع الواقع ، ورجال الامة لم يكونوا بتلك الدرجة من الانحطاط وعدم المعرفة بحيث يجهلون الشيعة وما لهم من الأثر فى المجتمع الاسلامي ، فقبول مثل تلك المنكرات أمر شاق يصعب تحقيقه . ويبعد نجاحه ولكن السلطة

-١- تاريخ بغداد ج ٥ س ٧٣
-٢- شذرات الذهب ج ٣ س ٢٢٦

بذرت تلك البذرة في أذهان السواد وجعلت تعاهدها ورعايتها بيد علماء السوء الذين اتخذوهم أعوانا فى ساعة هم أحوج اليهم من السيف والجند ، فقوة فتكهم فوق ذلك حتى اثمرت الشحناء بين أفراد المجتمع الاسلامي ، وتركوها قرحة دامية في جسم الامة عجز رجال الاصلاح من علاجها .

وقد كان اولئك الدجالون على انواع في الوضع ، واختلاف في الغاية .

فمنهم من يضع الحديث طمعاً فى الدنيا وتزلفاً لولاة الأمر وهم الذين نعبر عنهم باجنة الوضع ، أول من اتخذ ذلك معاوية بن ابي سفيان -١-

ومنهم من كان يتعصب لمبدئه فيضع الحديث تقوية له ، ومقابلة لخصمه ويعدون ذلك تديناً ، وسينالون الجزاء عليه يوم الجزاء .

ومنهم من يضع الحديث في نصرة مذهبه ، وهؤلاء يرون الانتصار لمذهبهم انتصاراً للحق ومقاومة للباطل ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فراحوا يضربون الأحاديث بمهارة فى الضرب ، ويخلقون الحكايات والقصص ، ويطول بنا الحديث اذا أردنا التوسع فى البحث عن الوضاعين والكذابين ، ولعل لنا في الوقت متسعاً فننشر اسماءهم بالتفصيل ، وقد أحصى شيخنا الأميني منهم عدداً بلغ ستمائة وعشرين ومجموع ماوضعوه من الاحاديث وماقلبوا أسانيده على اختلاف الاهواء والنزعات فكان ٤٠٨٣٢٤ حديثاً -٢-

وقد أخرجنا من تلك الموضوعات مايقارب الاربعمائة في فضائل ابي بكر وعمر وعثمان وفي بعضها أساطير لا أحاديث ، وحكايات يصنعها القصاصون ذكرناها في الجزء الثالث من هذا الكتاب .

-١- شرح النهج ج ١ ص ٢٥٨

-٢- الغدير ج ٥ ص ٢٤٥

ولعمري إنها محنة ولكن كيف المخرج ؟ وهل يتسنى لنا تصفية الحساب لنعالج هذه المشاكل ؟ كيف وقد سرى داؤها في المجتمع ، وأخذها المرجون مأخذ القبول وجعلوها بمحل الاعتبار ، وراحوا يؤيدون تلك الموضوعات إن وافقت أغراضهم ، وجعلوها في لغة الاحتجاج ، ولم يلتفتوا لحالها وحال رواتها لذلك نرى من أعماه التعصب فضعفت مواهب إدراكه ، ولم يستطع تمييز الحق من الباطل وقد خانه الاتزان والتعقل . فهوّس وهرج . وموه وافترى . وحاول اخفاء حقيقة لا يمكن اخفاءها .

ولا بد لنا من الاشارة الى بعض أعمال القصاص وما لهم من الأثر فى توجيه الرأي العام لقبول تلك المنكرات عند العامة . فانهم قاموا فى المساجد والجوامع والطرقات والاندية يبثون تلك المنكرات نصرة للسلطة . وتأييداً للمبادىء ولقد اتخذت السياسة منهم سلاحاً فاتكاً . فكانوا يتخذون القصاصين في ساحات الحرب . يشجعون الجند على التضحية حتى تطورت الحالة الى اختراع الاحاديث والقصص لوقوع الفتن بين طوائف المسلمين . ولقد خضعت العامة لتصديقهم وقبول مفتعلاتهم حتى أصبح من العسير الانكار عليهم .

يحدثنا الشعبي : أنه انكر على قاص حدث عن النبي صلى الله عليه وآله أن الله خلق صورين له فى كل صور نفختان . فقال الشعبي : اتق الله ياشيخ ولا تحدث بالخطأ إن الله لم يخلق إلا صوراً واحداً . فقال القصاص : يا فاجر انما حدثني فلان عن فلان وترد علي ، ثم رفع نعله فضربه ، وتتابع القوم عليه بالضرب فما خلص نفسه حتى حلف ان الله خلق ثلاثين صوراً فى كل صور نفخة . -١-

وحدث أحدهم بحديث عن النبي (ص) ان من بلغ لسانه أرنبة أنفه

-١- تحذير الخواص للسيوطي

لم يدخل النار فلم يبق أحد منهم إلا وأخرج لسانه يؤمي به الى أرنبة أنفه . -١-

ويحكى عن الطبري : انه انكر على قاص ببغداد مايحدث به من الاكاذيب فرمى العامة باب دار الطبري بالحجارة حتى سدوه وصعب الخروج منه .

ونزل القصاص الى غمار العامة يقصون لهم القصص الدينية ، والأساطير والنوادر في المساجد والطرق ، وينالون منهم مالا كثيراً وكان يجتمع اليهم الرجال والنساء، قال ابن الجوزي فى المنتظم : وكان القصاص في أواخر القرن الرابع اكبر مثيري الفتن بين السنة والشيعة .

ولو حاولت - أن أصف هذا عظيم الاثر الذي أثرته تلك الأوهام ، والاكاذيب التي وضعها الدجالون وكان القصاصون يلقنون بها العامة ، وبالاخص بغض الشيعة وعداء أهل البيت - لطال بنا الحديث ، وعظمت قائمة الحساب ، ولكننا نقتصر على هذا القدر ولا نلم بجميع العوامل التي دفعت الناس الى التهجم على الشيعة ، فذلك يحتاج الى وقت طويل ، وصفحات تزيد على صفحات هذا الكتاب ، ولهذا نقتصر على نتيجة واحدة في تصفية الحساب وهي الفات نظر أبناء العصر الحاضر الى رعاية حقوق الامة ، وان يستعرضوا تاريخ الشيعة بدون تحيز واغراض ، ويلاحظوا تطور المذهب الجعفري وسيره فى طريق التقدم بما لديه من القوى الحيوية والقدرة على مقاومة الطوارىء ، وتخطي تلك الحواجز التي وقفت فى طريقه ، مالو وقف بعضها في طريق غيره من المذاهب لما استطاع ان يخطو خطوة واحدة ، لأنها عوامل جبارة على أن المذهب الجعفري ليس باستطاعة أي أحد مؤاخذته بشيء في ذاته ، فهو موافق للحس والوجدان ، ولكتاب الله العزيز ، والسنة المستقيمة ، وقد وجد العقل السليم فيه بغيته ، كما أن باب الاجتهاد

-١- الاغاني ج ١٢ ص ٥

مفتوح على مصراعيه وقد برهن بغزارة مادته ، ومرونة أحكامه ، ودقة بحوثه على انه أقوى مصدر للتشريع الاسلامي ، ويتطور مع تطور الزمن وكثرة الحوادث ومع هذا فمن المؤسف ان نرى الكثير ممن كتبوا عن التشريع الاسلامي قد اقتصروا على ذكر المذاهب الأربعة فحسب ، واذا انجر الحديث الى ذكر اختلاف الآراء وتعدد الأقوال فى مسألة فقهية ذكروا آراء رؤساء المذاهب البائدة ولم يذكروا أقوال أهل البيت وآراءهم ، عذرنا اولئك القوم الذين دونوا الفقه في العصور الغابرة لأن الخشية من ذكر مذهب أهل البيت قد أرغمتهم على الاعراض عن ذكره ، فان التعرض لذلك انما هو تعرض للخطر ، ولكنا نعجب من بعض المتأخرين الذين ساروا على تلك السيرة الملتوية ، ولم يعطوا مذهب أهل البيت حقه من العناية فى البحث ولا يستبعد أن التقليد من حيث هو قد دعاهم لمخالفة الواقع وإلا فما المانع من التعرض لذكر مذهب أهل البيت عندما يكتبون عن التشريع الاسلامي ؟ وقد انتشر فى أقطار الأرض وعبر الى ما وراء البحار ، وأصبح مقنعوه يتجاوز عددهم التسعين مليونا ، ولكن العصبية قاتلها الله حالت بينهم وبين التعرف على مذهب أهل البيت ، وليس عليهم كلفة في معرفته إلا أن يقرأوا الكتب المدونة في ذلك ليقفوا على الحقيقة وعليهم أن يتقبلوا الحق وان كان مراً .

ولعل تلك الدعايات المارة الذكر قد خامرت الادمغة ، وتوارثتها الاجيال ، وهي التي أدت الى ابتعادهم عن الحق . ولذلك قد عجز المصلحون فى مسألة التوفيق بين المسلمين ، ورفع سوء التفاهم ، مع ما بذلوه من النصح ، وأجهدوا أنفسهم لتحقيق هذه الغاية ، ومن الغريب ذلك ، فانه لم يكن هنالك شيء من الامور المتضادة التي لا يمكن اجتماعها في محل واحد حتى أصبح التوفيق بين المسلمين لا يدخل دائرة الامكان .

المذاهب الاسلامية

المذهب الجعفرى

ينسب للامام أبي عبدالله الصادق جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن الحسين الشهيد سبط رسول الله (ص) وريحانته ابن الامام علي بن أبي طالب عليه السلام ولد في المدينة المنورة سنة ٨٣ وتوفي فيها سنة ١٤٨ مسموماً وقد أشرنا في الابحاث السابقة الى بعض النواحي المتعلقة بتاريخ حياته وسنأتي له بترجمة مفصلة في الجزء القادم ان شاء الله.

المذهب الحنفى

ينسب الى الامام أبي حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي، من أهل كابل أو من أهل نسا أو قابل وكان أسمه عتيك بن زوطره، وكان ابوه عبداً مملوكاً لرجل من ربيعة من بني تيم الله بن ثعلبة من فخذ يقال لهم بني قفل، ولد سنة ٨٠ في نسا وتوفي سنة ١٥٠ في بغداد.

المذهب المالكى

ينسب الى الامام مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الاصبحي ولد سنة ٩٣ بالمدينة وحملت به امه سنتين وقيل اكثر وتوفي سنة ١٧٩

المذهب الشافعي

وينسب الى الامام محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطاب ، وقيل ان شافعاً كان مولى لأبي لهب فطاب من عمر أن يجعله من موالي قريش ، فامتنع فطلب من عثمان ذلك ففعل ، ولد سنة ١٥٠ وتوفي سنة ١٩٨ .

المذهب الحنبلي

ينسب الى الامام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن ادريس ابن حيان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن ذهل بن شيبان ولد سنة ١٦٤ في بغداد وتوفي سنة ٢٤١ فيها .

الامام ابو حنيفة

— ١ —

ذكرنا في الابحاث السابقة أسباب نشأة المذاهب الاسلامية وانتشارها بكثرة، وتعرضنا لذكر المذاهب التي عرض لها الخمول والتأخر فكان نصيبها الفناء والابادة بعد مدة، ولم يبق منها لاخواننا أبناء السنة إلا المذاهب الأربعه، الحنفي . المالكي . الشافعي . الحنبلي .

وقد سارت هذه المذاهب في طريق الانتشار والشهرة، ولم يعرض لها فيه أي عارض ولم ينشأ لها خطر يعرقل حركة السير مع قوة المقومات وكثرة العوامل، فكتب لها الخلود فاصبح المعول عليها اليوم .

والآن وقد انتهى بنا السير فى البحث الى التعرف على أئمة المذاهب الأربعة لنأخذ صورة واقعية عن كل واحدمنهم بدون تعصب لهم أوعليهم، وليكن ابتداء التعرف على الامام أبي حنيفة أولاً من حيث الرتبة الزمنية لا رتبة الافضلية والاولوية فذاك أمر يعود لغيرنا .

— ٢ —

اذا أردنا أن نتعرف على شخصية ابي حنيفة لنعرف مكانته في ذلك العصر وأهميته في مجتمعه، يلزمنا مناشدة الرجال الذين عاصروه، ونستنتج ذلك من بقايا السلف الذين تعرفوا عليه، ولا ننظر اليه من زاويتي الغلو أو التعصب، لأنا نطلب الحقيقة ونتبع الحق بلا تعصب له وعليه، فان رجلا قد أصبح مرجعاً للفتيا لكثير من المسلمين يقتدون باقواله، ويتمذهبون بمذهبه، فهو من الأهمية بمكان فلنبحث عن شخصيته ومؤهلاته، وندرس تلك الظروف التي اكتسب بها عبقريته والعصر الذي عاش فيه إذاً :

من هو ابو حنيفة ؟

هوالنعمان بن ثابت بن زوطي من أهل كابل، مات جده على غير الاسلام ويقال ان أباه أسلم ، فكان مولى لبني تيم الله ، وولد ابو حنيفة على الاسلام ولن يتحقق لنا تاريخ وروده العراق ، لاختلاف الروايات في ذلك ، فبعض يقول : انه ولد في نسا ، وبعض يقول : انه ولد فى العراق كما ان الاختلاف واقع فى نسبه ، فمن قائل : انه ابن ثابت بن طاوس بن هرمز ملك شيبان ، وذهب بعضهم الى انه من الانصار ، وهو النعمان بن ثابت بن زوطيا بن يحيى بن راشد الأنصاري ، وقيل من أبناء افريدون من نسل ملوك العجم ، الى آخر ما هنالك من الاقوال الشاذة .

والصحيح الذي عليـــه الاجماع انه النعمان بن ثابت بن زوطي كما تقدم وليس لنا غرض بذكر الخلاف واستقصائه .

أما امه فلم يتعرض التاريخ لذكرها بالتفصيل ، وقد ذكر لها أخبار معـه من حيث طاعته ومعاشرته لها . وقد وافانا الاستاذ السيد عفيفي المحامي الشرعي بمصر ، ومحرر مجلة المحاماة الشرعية ، بقصة من دون سند يتكفل تعيين ام الامام وشخصيتها واليك نصها :

يقول الاستاذ السيدعفيفي عند ذكره لوالد أبي حنيفة : هو ثابت بن النعمان ابن المرزبان ، وكان ثابت هذا يرجع الى دين وعقل ومروءة ، تصدر عن جد ، فقد روي انه كان فى شبابه ورعاً زاهداً ، وكان يوماً يتوضأ من جدول فجاءت

تفاحة فى الماء فامسكها واكلها بعد الفراغ من الوضوء ، ثم بصق فرأى بصاقه دماً فقال فى نفسه : لعل ما أكلته حرام ، وإلا لما تغير بصاقي ، فتبع رأس الجدول فوجد شجرة تفاحها مثل ما أكل ، فطلب صاحبها وقص عليه القصة وأعطاه درهما وقال: اجعلها فى حل ، فلما رأى صاحب التفاحة ورعه وصلابته فى دينه أحبه ، وقال لا أرضى بدرهم ولا بألف درهم ولا باكثر، فقال ثابت : فبم ترضى؟ قال إن لي ابنة لا ترى ولا تنطق ولا تسمع ولا تمشي فان تزوجتها اجعلها فى حل وإلا اخاصمك يوم السؤال والحساب ، فلبث ثابت في التفكر ساعة ثم قال في نفسه عذاب الدنيا أسهل وينقضي ، وعذاب الآخرة أشد وأبقى، وتزوج بها فلما دخل عليها تقبلته بقبول حسن فاشتبه على ثابت الأمر لأنه وجدها حسناء سميعة بصيرة ناطقة ، فقالت له أنا زوجتك بنت فلان قال : وجدتك على خلاف ما وصفك أبوك، قالت: نعم فاني كنت من سنين لم أطأ خارج البيت ولم أنظر الأجانب ولم أسمع كلامهم ولم يسمعوا كلامي ، فعرف ثابت الحال وقال: (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور) .

يقص علينا الاستاذ المحامي هذه القصة غير ملتفت الى المؤاخذات التي يؤاخذ بها بصفته مثقفاً من أبناء القرن العشرين ويتولى مهنة المحاماة الشرعية .

فيعلق عليها بقوله : هيهات لا يأتي الزمان بمثل ثابت ، ولا بمثل صاحبته فلا عجب ان يتولد منها ولد فى صورة الانسان وسيرة الملك ، ويحيي الله به دينه القويم ويشيع مذهبه في الأقطار ، وعلمه فى الامصار ، ويستنتج من ذلك بقوله : من هذا الوالد الورع الزاهد وهذه الام الطاهرة ولد الامام الأعظم ابو حنيفة النعمان في مدينة الكوفة فى سنة ٨٠ من الهجرة النبوية في عصر الدولة الأموية في خلافة عبد الملك بن مروان .

ويقول بعـد ذلك ان اسمه النعمان وهو منقول من اسم جنس وقيل انه الدم وقيل انه الروح ، فيكون اتفاقا حسناً لأن ابا حنيفة روح الفقه وقوامه ومنه منشأه ونظامه .

ونحن نسائل الاستاذ المحامي عن الأسباب التي دعته لنقل هذه الاسطورة فى مقدمة كتابه ـ حياة الامام ابي حنيفـة ـ أ كان انتصاراً للامام ليعلن بفضله وفضل أبيـه وامـه ؟ وهل ضاقت عليه المسالك في مناقب أبي حنيفـة فالتجأ الى أساطير العجائز في ليالي الشتاء؟ كيف؟ وقدملأ الموفق الخوارزمي تلك الصحائف في مناقب ابي حنيفة بما شاءت له رغبتـه ، ولعل تلك المناقب لم تصح عنده والحق معـه وياليته ترك هذه الاسطورة ، وهو المثقف الذي يحمل شهادة المحاماة ، وبالطبع ان المحامي يحمل عقلية جبارة وفكراً واسعاً يستطيع به مقابلة القانون ، ونسائله أيضاً لو قدر للشيخ عفيفي حضور تشاجر الفلاح مع ثابت وطلب كل منهما حكمه فى الأمر أ كان يحكم على ثابت بانه مجرم ويلزمه بارضاء الفلاح بكل صورة ؟ وهل في وسع الشيخ ان يحكم بصحة ماذهب اليه ثابت من أن التفاحة كانت حراماً لذلك تحولت الى دم ؟ وكيف يكون ذلك من الوجهة الطبية؟ أنا لا أدري ولعل الاستاذ محب الدين الخطيب يدري ، لأنه قـدم الكتاب وعرفه وكان اللازم عليه أن يلتفت الى قبح وجود هـذه الاسطورة وهو يدعي منزلة المعرفـة ، لذلك أصبح ينقد بقلمه شيعة أهل البيت وأئمتهم ويريد أن يجعل الاسلام له وحده، وكان من خدمة الاسلام ان ينزه كتاب حياة ابي حنيفة عن أمثال هذه الاسطورة ، ولعله ذهب الى صحتها لأن جدته حدثته بذلك ، وان اكثر أحاديث الاستاذ الخطيب وآرائه في نقده من أحاديث العجائز وآراء الاطفال .

المناقب

لعل من أهم المشاكل التي تقف أمامنا ونحن في طريق البحث عن حياة ابي حنيفة هي مشكلة المناقب ، فانها متضخمة الى أبعد حد ، ولا نستطيع ان ندرس حياة ابي حنيفة دراسة صحيحة الى بعد الفراغ من مشكلة المناقب لأنها أهم شيء في الباب .

فقد قال اصحاب المناقب ينبغي لكل مقلد امام ان يعرف حال امامه الذي قلده ، ولا يحصل ذلك إلا بمعرفة مناقبه وشمائله ، وفضائله ، وسيرته فى أحواله ، وصحة أقواله ، ثم لابد من معرفة اسمه وكنيته ونسبه وعصره وبلده ، ثم معرفة أصحابه وتلامذته وقد الف كل من علماء المذاهب كتباً في مناقب امامه ، فالف الحنفية كتباً في مناقب ابي حنيفة : منها عقود المرجان في مناقب ابي حنيفة النعمان ، ومختصره (قلائد عقود الدرر والعقيان) لأبي جعفر الطحاوي و (مناقب أبي حنيفة) لموفق الدين بن أحمد المكي الخوارزمي المتوفى سنة ٥٦٨ رتبه على أربعين باباً ، و (البستان في مناقب النعمان) للشيخ محي الدين عبدالقادر بن ابي الوفاء ، و (شقائق النعمان في مناقب النعمان) للزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ ، و (مناقب أبي حنيفة) لحمد بن محمد الكردري المعروف بالزازي المتوفى سنة ٧٨٢ وقد ترجم الى اللغة التركية وغيرها وتوجد مناقب كثيرة في بطون الكتب على اختلاف نزعة المؤلفين وأهوائهم ، يقول الدكتور أحمد أمين : كان العصبية المذهبية حملت بعض الاتباع لكل مذهب أن يضعوا الأخبار لاعلاء شأن امامهم ،

ومن هذا الباب ما رووا من الأحاديث بتبشير النبي صلى الله عليه وآله لكل امام من مثل ما روي ان النبي (ص) قال في أهل العراق : « ان الله وضع خزائن علمه فيهم » ومثل : « يكون في امتي رجل يقال له النعمان بن ثابت ، ويكنى بابي حنيفة يحيي الله على يديه سنتي في الاسلام » الخ ، حتى لقد زعموا ان ابا حنيفة بشرت به التوراة ، وكذلك فعل بعض الشافعية في الشافعي ، والمالكية في مالك ، وما كان اغناهم عن ذلك . ومن اجل ذلك صعب على الباحث معرفة التاريخ الصحيح لكل امام ، فقد كان كلما اتى جيل زاد في فضائل امامه .

لذلك نرى من اللازم البحث عن بعض المناقب التي أصبح التسليم بصحتها أمراً مفروغاً عنه ، وترسل في معرض المدح والثناء ارسال المسلمات .

وها نحن نضع بين يدي القراء أهم المناقب في ابي حنيفة ونعطيه عنها صورة صادقة من حيث الصحة والبطلان ، فالعلم هو الكاشف لذلك ، والتحقيق في البحث يرفع تلك المشاكل ، ولا غرض لنا بهذا إلا تجريد شخصية أبي حنيفة من اراد الغلو لنأخذله صورة طبق الأصل .

البشائر في ابي حنيفة

أورد الحنفية في كتبهم احاديث عن صاحب الرسالة (ص) تنص على البشارة بابي حنيفة وتصرح باسمه ، وكنيته ، منها :

١ — يكون في امتي رجل يقال له ابو حنيفة هو سراج امتي .

٢ — يكون في امتي رجل اسمه النعمان وكنيته ابو حنيفة .

٣ — يكون في امتي رجل يقال له النعمان بن ثابت يكنى بابي حنيفة يحيي الله به سنتي .

بهذا اللسان والتعبير أوردوا هـذه الأحاديث عن صاحب الرسالة ونحن نقف هنا موقف الحيرة أنترك هذه الأحاديث بدون فحص ونسدل عليها ستار الاعراض ـ فالعقل السليم أجل من ان يحتاج الى ايضاح مثل هـذه الامور التي تدل بنفسها على بعدها عن الواقع أم ـ نبحث عنها فنصرف زمناً فى البحث لطالب الحقيقة فقط ؟ نعم البحث عنها أولى ، لأ نا وجدناها فى كتب الحنفية المعتبرة ، ويستدل بها اكثر علمائهم في صحة اتباع مذهب ابي حنيفة دون غيره ، على ان المبرزين منهم يكذبون ذلك وينصون على كذبها كما سيأتي بيانه ، إذاً لا بد لنا من البحث عن مصدر هذه الأحاديث والنظر في سلسلة الرواة .

حديث السراج

وهذا الحديث استشهد به كثيرمن الحنفية في تفضيل ابي حنيفة على غيره ذاهبين الى صحته فلننظر الى سلسلة الحديث ، ونكتفي بالبعض منها ولا نتتبع حلقاتها أجمع ، فسلسلة الحديث تبتدأ من محمد بن سعيد البورقي ، وتنتهي لأبي هريرة ، اما محمد بن سعيد فاليك حاله ومنزلته فى الرواية لتعرف أهليته لحمل الحديث ، قال ابن حجر : محمد بن سعيد البورقي أحدالوضاعين قد وضع المناكير على الثقاة وأوحشها روايته عن بعض مشايخه عن الفضل بن موسى عن محمد بن عمرو عن ابي سلمة عن ابي هريرة مرفوعاً يكون في امتي رجل يقال له ابو حنيفة هو سراج امتي ، وزاد رواية أخرى ، وسيكون في امتي رجل يقال له محمد بن ادريس (يعني الشافعي) فتنته على امتي أضر من فتنة ابليس ـ١ـ

وقال حمزة السهمي : محمد بن سعيد كذاب حدث ببلاد خراسان (سيكون

ـ١ـ لسان الميزان ج ٥ ص ١٧٩

في امتي رجل يقال له النعمان هو سراج امتي) ثم حدث فى العراق باسناده وزاد (سيكون فى امتي رجل يقال له محمد بن ادريس فتنته على امتي أضر من فتنة ابليس) وقال الحاكم : (محمد بن سعيد حديثه ليس بشيء) .

ويقول ملا علي القارىء وهو أكبر علماء الحنفيـة وله كتاب في مناقب أبي حنيفة : وقـد أورد بعضهم فى مدح ابي حنيفة وذكر حديث السراج وهو حديث موضوع .

محي الدين ومجدده

وهـذا الحديث بهذا اللفظ أورده مرفوعاً (سيكون رجل يقال له النعمان ابن ثابت ويكنى بابي حنيفة يحيي دين الله وسنتي)

وقد أجهد الموفق نفسه فى تصحيح هذا الحديث ولم يوفق ، وراوي هذا الحديث يحيي بن سليمان عن ابراهيم بن أحمد الخزاعي عن ابي هدبة ابراهيم بن هدبة عن أنس بن مالك مرفوعاً ولا حاجة بالتعرض لرجالها أجمع ونكتفي بذكر من رواها عن أنس وهو ابراهيم بن هدبة ، قال الخطيب في تاريخه : ابراهيم بن هدبة حدث عن انس بالاباطيل . وقال ابو حاتم وغيره : انه كذاب خبيث وقال ابن حبان رجال من الدجاجلة كان لا يعرف بالحديث -١-

وقال بشر بن عمر كان فى جوارنا عرس ، فدعى له ابو هدبة فاكل وشرب ، وسكر فجعل يغني :

أخـــذ القمل ثيابي　　فرقصت　　لهنـــه -٢-

وقال علي بن ثابت : ابو هدبة اكذب من حماري - الى آخر الأقوال

-١- لسان الميزان ج ١ ص ١٢٠
-٢- تاريخ ابن عساكر

فيه وفى فسقه ، وانه كان يسأل الناس فى الأسواق مع انه كان من أهل القرن الثالث . فكيف سمع من انس ؟ فلاشك في كذبه إذاً فالحديث موضوع على صاحب الرسالة وقد اختلفت الفاظ هذه الموضوعات لاختلاف الغرض فى وضعها ، وذلك انها اشارة في أول الأمر الى الكنية فقط ، وبهذا وقعوا فى حذر عظيم ، لأن الذي يكنى بابي حنيفة من العلماء كثير ، فذهبوا الى الصراحة بالاسم ، فقالوا : اسمه النعمان بن ثابت ويكنى بابي حنيفة ، ليخرجوا بذلك جملة من العلماء الذين اشتهروا بهذه الكنية فمنهم :

ابو حنيفة محمد بن ماهان صاحب القضيب الواسطي .

ابو حنيفة الكوفي والد عبد الكريم -١-

ابو حنيفة الصوفي -٢-

ابو حنيفة الفارسي عبد الوهاب بن علي البغدادي من أهل الجانب الشرقي -٣-

ابو حنيفة نخزم - بالفاء والحاء المهملة - بن عبدالله بن نخزم الشافعي وكان من العلماء الذين تصدروا للفتيا .

ابو حنيفة عبد الرحمن بن الحسن بن احمد الزوزني -٤-

ابو حنيفة الاصفهاني من الفقهاء المبرزين عند الحنفية -٥-

ابو حنيفة الدينوري صاحب المؤلفات المشهورة .

-١- انظر ترجمته فى خلاصة الأثر ص ٣٧٧

-٢- انظر لسان الميزان ج ٤ ص ٢٢٢

-٣- تاريخ بغداد ج ١١ ص ٣٣ .

-٤- انظر معجم البلدان ج ٤ ص ٤١٦

-٥- انظر طبقات الحنفية ج ٢ ص ٥٧١

ابو حنيفة النعمان بن ابي عبدالله محمد بن منصور بن حبون كان أحد الأئمة اليهم تشد الرحال ، وكان من أوعيـــة العلم والفقه والدين والنبل على مالا مزيد عليه -١- كان مالـكيا وتحول اماميا .

فهؤلاء العلماء يشاركون ابا حنيفة بالـكنية ، ويشملهم عموم تلك الأحاديث ، فدفعوا هذا الشمول بذكر اسمه واسم ابيه ليسلم الامام ابو حنيفة من المشاركة بهذه البشائر النبوية ، وقد كان لهذه الموضوعات أثر في طريق الاحتجاج لتأييد مذهب ابي حنيفة في عصر اشتدت فيـه العصبية المذاهب ، وكلما طال الزمن كثرت سلسلة الرواة ، وتطورت الاسانيد واختلفت الالفاظ ، حتى رويت بطرق متعددة ، ومخارج متفرقة ، وقد نص الحفاظ على وضعها .

قال السيوطي عند ذكر هذه الأحاديث : إن الذي وضع حديث ابوحنيفة سراج امتي هو مأمون بن أحمد السلمي ، وأحمد بن محمد الجويباري ، وكلاهما من الوضاعين -٢-

وهذه الأحاديث تروى من طرق متعددة ، والمحور الذي تدور عليه ، هم سعيد البورقي ، ومأمون بن احمد الهروي ، وأحمد بن محمد الجويباري ، ومحمد ابن يزيد الطرسوسي ، وابان بن عياش وهو الراوي عن أنس وابراهيم بن هدبة راوي حديث محيي السنة وكل هؤلاء عرفوا بالـكذب والوضع .

اما مأمون بن أحمد السلمي الهروي ، وهو راوي حديث يكون في امتي رجل يقال له النعمان الى آخره .قال ابو نعيم في مقدمة المستخرج على صحيح مسلم: مأمون السلمي من أهل هرات خبيث وضاع يأتي عن الثقات ، مثل هشام بن عمار ،

-١- انظر ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ ط ١

-٢- اللئالئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ج ١ ص ٢٣٧

ودجيم بالموضوعات ، وفيما حدث عن أحمد الجويباري الكذاب عن عبد الله بن معدان الازدي عن أنس مرفوعاً : سيكون فى امتي رجل يقال له النعمان. الحديث قال ابو نعيم : مثله يستحق من الله تعالى ومن الرسول ومن المسلمين اللعنة . وقال الحاكم بعد ذكر الحديث من طريق مأمون : ومثل هذه الأحاديث يشهد من رزقه الله أدنى معرفة بانها موضوعة على رسول الله (ص) . وأما محمد بن يزيد فقد كان من الوضاعين.وقد روي هذا الحديث عن سليمان بن قيس عن ابي المعلى ابن مهاجر عن ابان عن أنس قال ابن حجر: وسليمان بن قيس والمعلى مجهولان لا يعرفان -٢- واما ابان بن ابي عياش البصري مولى عبد القيس وهو الراوي عن أنس ، فقد كان يحيي بن معين ، وعبد الرحمن بن المهدي لا يحدثان عنه . وقال الفلاس : هو متروك الحديث ، وقال احمد بن حنبل : لا يكتب عنه ترك الناس حديثه. وقال ابو عوانة : لاأستحل ان اروي عنه شيئاً ، الى آخر ماهنالك من الأقوال في ذمه ، وقد نص بعضهم على كذبه ، قال ابن حبان : ان ابان سمع من انس احاديث وجالس الحسن فكان يسمع من كلامه : فاذا حدث جعل كلام الحسن البصري عن أنس أحاديث عن النبي (ص) ولعله حدث عن انس با كثر من ١٥٠٠ حديث . قال الجوزجاني: ابان ساقط ، وقال شعبة: لئن اشرب من بول حماري أحب إلي من ان اقول حدثني ابان ، وقال مرة : لئن يزني الزاني خير من أن يروي عن ابان. وقال أيضاً لا يحل الكف عن ابان انه يكذب على رسول الله -١- وقد مر ذكر ابراهيم والبورقي .

واما الجويباري فقد نص على كذبه الذهبي في الميزان ، وابن حجر في

-١- لسان الميزان ج ٥ ص ٧

-٢- تهذيب التهذيب ج ١ ص ٩٨

لسانه والسيوطي والخطيب البغدادي وغيرهم ونحن لا نتعرض لجميع تلك الأقوال الادعائية في البشائر النبوية التي التجأ اليها المعجبون بأبي حنيفة ، والمغالون بشخصيته ، ونكتفي بهذا القدر من التوهين لها ، وعلم الله أني لم ابحث عنها متحاملا عليه ، ولو وجدت طريقاً لتصحيحها لكان واجباً علي إثباتها بطرق الصحة فليست لي معه غاية ، وانما انا باحث والباحث يجب ان يتبع الحقيقة ، وصدقني إن قلت ان تلك الأحاديث التي رواها الخوارزمي ، والبزاز ، وغيرهما في مناقب ابي حنيفة انما أوردها بطرق مظلمة هي ما بين كذاب ومجهول ، على ان اكثر من كتب في مناقب ابي حنيفة لم يذكر هذه الأحاديث لعدم الاعتماد عليها كالسيوطي فى تبييض الصحيفة وابن حجر في الخيرات الحسان -١- وملا علي القارى، والذهبي فى مناقب ابي حنيفة ، وقد سلك السيوطي طريقاً آخر لاثبات تبشير النبي (ص) بابي حنيفة .

قال : وقد بشر النبي (ص) بابي حنيفة في الحديث الذي أخرجه ابونعيم فى الحلية من طريق ابي هريرة لو كان العلم بالثريا لتناولته رجال من ابناء فارس ، وهذا لا يمكن وفي ابناء فارس من حملة العلم من الصدر الأول الى اليوم من العلماء ماينطبق هذا العموم عليهم فكيف يخصص بابى حنيفة وحده ! هذا من التخمين والظنون وهو من باب أريه السهى ويريني القمر .

-١- قال ابن حجر فى الخيرات الحسان ص ٥ عند ذكر الحديث : قد أطبق المحدثون على وضعه .

غياث لكل مهموم

روى الموفق بسنده عن محمد الحارثي باسناده الى ابي البختري قال : دخل ابو حنيفة على جعفر بن محمد الصادق ، فلما نظر اليه قال : كأني انظر اليك وأنت تحيي سنة جـــدي بعدما اندرست ، وتكون مفزعاً لكل ملهوف ، وغياثاً لكل مهموم .

هكذا نقل الموفق بهذا السند يوصله الى ابي البختري ، ونحن في سعة عن مناقشة رجال السند أجمع ، بل يلزمنا ان نتعرف على شخصية ابي البختري الذي يدعي سماع هذه الكلمات من الامام الصادق ، فاذا كان محله الصدق والثقة فنحن نأخذ هذه الرواية بعين الاعتبار ، إذ ليس لنا عداء مع الحق ، إذاً

من هو البختري ؟

هو وهب بن وهب القرشي ابو البختري قاضي بغداد ، الذي يقول فيه المعافي :

ويل وعول لأبي البختري	اذا ثوى للناس فى المحشر
من قوله الزور واعلانه	بالكذب فى الناس على جعفر

وقال ابن العماد الحنبلي في الشذرات في حوادث سنة ٢٠٠ : وفيها مات وهب بن وهب ابو البختري الى ان قال : روى عن هشام بن عروة وطائفة واتهم بالكذب .

وقال ابن قتيبة فى المعارف : كان ضعيفاً في الحديث كذبه فى المغني ،

وقال يحيى بن معين : ابو البختري كان يأخذ فلساً فيذكر عامه ليلة يضع الحديث ، وقال أيضاً : ابو البختري القاضي كان يكذب على رسول الله (ص) . وقال أيضاً : ابو البختري كذاب عدو الله خبيث .

وقال عثمان بن ابي شيبة : وهب بن وهب ذاك دجال أرى انه يبعث يوم القيامة دجالا ، ولما بلغ عبد الرحمن بن مهدي موته قال : الحمد لله الذي أراح المسلمين منه ، وقال ابن خلكان : ابو البختري كان متروك الحديث ، مشهوراً بوضعه ، ونص أحمد على كذبه ، وروى الخطيب ان ابا البختري دخل على الرشيد وهو قاض يوم ذاك ، وهرون يطير الحمام فقال : هل تحفظ فى هذا شيء ؟ فقال : حدثني هشام عن عروة عن أبيه عن عائشة ان النبي كان يطير الحمام ـ١ـ

وساق ابن عدي لأبي البختري أحاديثاً موضوعة قال : وابو البختري من الكذابين الوضاعين ، وكان يجمع في كل حديث يرويه اسانيد من جسارته على الكذب ووضعه على الثقات ـ٢ـ

هذا هو ابو البخترى راوي هذه المنقبة التي ذكرها الخوارزمي فى مناقب ابي حنيفة .

ونسوق اليك قضية من قضايا قاضي القضاة فضيلة ابى البخترى لتعرف أهليته لهذه المنزلة ، كان الرشيد قد أعطى ليحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن علي بن ابى طالب كتاب الأمان ثم أراد ابطاله فسأل محمد بن الحسن الشيبانى صاحب ابى حنيفة ، فقال هذا أمان صحيح ودمه حرام ، فدفع الكتاب الى الحسن بن زياد فقال بصوت ضعيف : امان ، فدخل ابو البختري وهب بن وهب

ـ١ـ تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٤٥٣ ووفيات الأعيان ج ٢ ص ١٨٢ و ١٨١

ـ٢ـ لسان الميزان ج ٦ ص ٢٣١

القاضي ، وأخرج من خفه سكيناً فقطع الكتاب من غير ان يسأل عنه ، وقال : هذا أمان مفسوخ وكتاب فاسد ودمه في عنقي -١- وبارتكابه لهذه الجريمة واراقته دم رسول الله (ص) نال درجة الرقي في مناصب الدولة ، وخطا خطوات واسعة إذ قال له الرشيد عند صدور هذه الفتيا أنت قاضي القضاة وأنت أعلم بذلك. واجازه الرشيد بالف الف وستمائة الف درهم فها هو قد أصبح بعد ان كان واحداً من القضاة واذا به رئيسهم الأول ، ومرجعهم الأعلى تناط به امورهم ، ومن سوء حظ الامة ان تكون سلطتها التشريعية بيد قضاة لا يخافون الله ولا يرجون معاداً .

وسيمر عليك ذكره انشاء الله عندما يمر موكب القضاة ، في معرض حديثنا عنهم لتعرف تلك الشخصيات التي اتخذتها السلطة الجائرة اعواناً يذبحون بايديهم ضحايا الاسلام ، وفي طليعتهم قاضي القضاة ابو البختري ذلك الرجل الجرىء الذي أراق الدماء وسلب الاموال وأتعب نفسه في الكذب على الله وعلى رسوله فاغضب الله عليه وأرضى أسياده لينال رغبات نفسه الشريرة تحت ظل سلطانهم الجائر ، هـــذا هو واسطة الحديث عن جعفر بن محمد في الرواية السابقة وهذا نصيبها من الصحة .

يقول سويد بن عمرو بن الزبير في أبيات له :

انا وجدنا ابن وهب حين حدثنا — عن النبي أضاع الدين والورعا

يروي أحاديث من افك مجمعة — اف لوهب وما يروي وما جمعا -٢-

-١- انظر مفتاح السعادة لاحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى زاده ج ٢ ص ١١٠ ، ولسان الميزان ج ٢ ص ٢٣٤ .

-٢- انظر ترجمة قاضي القضاة ابو البختري في لسان الميزان ج ٦ ص ٢٣٢ ، وميزان الاعتدال ج ٣ ص ٢٧٨ وتاريخ بغداد ج ١٣ ص ٤٥٤ وغيرها تجد عجباً .

بين المد والجزر

لقد غالى بعض الحنفية فى ابى حنيفة غلواً أخرجهم عن الاعتدال في القول والتثبت في النقل ، فتقولوا وافتعلوا ، وذهبوا الى أبعد حدٍ من المدح والثناء ، وجاءوا بأمور متنوعة في مناقبه وفضائله حتى وضع بعضهم كتابا موضوعاً في مناقبه . وللبيان نعطي صورة عن تلك الادعاءآت الكاذبة بذكر البعض ، وللتفصيل محل آخر .

انهم ذكروا ان ثابتاً والد ابى حنيفة ذهب به الى علي بن ابي طالب عليه السلام فدعى بالبركة فيه وفى ذريته ، وهذا أمر بين خطأه وظاهر كذبه ، لأن الامام علي عليه السلام توفي سنة ٤٠ وولادة ابى حنيفة كانت سنة ٨٠ وعلى هذا فيقتضي ان ابا حنيفة عمره فى ابتداء الدولة العباسية كان قد تجاوز المائة .

ومن أظرف ما ينقل من كرامات ابى حنيفة قضية الدهرى الذى ورد بغداد ليناظر علماء الاسلام أيام الدولة العباسية ، وانهم عجزوا عن جوابه ولم يبق إلا حماد بن سليمان ومعه تلميذه ابو حنيفة ، ولهذه الاسطورة صورٌ في النقل : (منها) ان دهريا من الروم ناظر علماء الاسلام فافحمهم إلا حماداً . ولم يأت أحد بما فيه مقنع . والامام إذ ذاك كان صبياً فخاف حماد لأجل انه لو الزمه يهون أمر الاسلام . فرأى رؤيا لا حاجة لنا بنقلها ـ١ـ

فذهب ابو حنيفة مع استاذه الى الجامع . وصعد الدهرى المنبر . وطلب

ـ١ـ مفتاح السعادة ج ٢ ص ٢٠١

الخصم ، فحضر ابوحنيفة وهو صبي ، فاستحقره الدهري ، قال ابوحنيفة : دع هذا وهات كلامك ، فتعجب الدهري من جرأته فسأله الدهري باسئلة فاجاب عنها فقال ابو حنيفة : هذه الاسئلة وأنت على المنبر وأنا أجبت عنها ، والآن انزل الى الأرض وانا أصعد المنبر ، فنزل وصعد ابو حنيفة وقال : اذا كان على المنبر مشبه مثلك انزله ، واذا كان على الأرض موحد مثلي رفعه ، (كل يوم هو في شان) فبهت الدهري وقتلوه ، هكذا دوّن أصحاب المناقب هذه الاسطورة ولم يلتفتوا الى المؤاخذات فانهم ذكروا ان هذه القصة قد وقعت في بغداد ، ولا يتأتى ذلك فان بغداد مصرت في زمن المنصور سنة ١٤٥ فيكون عمر ابي حنيفة فى هذه القصة ٧٥ سنة فكيف يكون عمره سبع سنين؟ وان وفاة استاذه حماد بن سليمان سنة ١٢٠ بالاتفاق أي قبل تمصير بغداد بخمس وعشرين سنة . مع ان ابا حنيفة تلمذ على يد حماد ، بعد ان قضى شطراً من عمره فى عمل الخز ، واشتغل مدة بعلم الكلام ، وبعد ذلك أرشده الشعبي الى علم الفقه فالتحق بحلقة حماد ، وقد ذكرت هذه الاسطورة في عدة كتب وعلق بعضهم عليها بقوله : هذا حال الامام فى صغره فكيف فى كبره -١- وهل معنى ذلك إلا الحط من كرامة علماء المسلمين أجمع ليرتفع أبو حنيفة وحده ؟

اما الصورة التي ينقلها الموفق الخوارزمي فهي :

ان ملك الروم بعث مالا عظيما بيد أمين الى بغداد ، وقال سلهم عن ثلاث مسائل ، فان هم أجابوا فادفع اليهم المال ، وإلا فارجع به ، فلما قدم بغداد جمع العلماء وصعد الرومي المنبر ، وقال : ان اجبتم عن اسئلتي اعطيتكم المال ،

-١- مفتاح السعادة ج ٢ ص ٢٠١ ، وشرح وصية ابي حنيفة المخطوط بمكتبة الإمام كاشف الغطاء .

وإلا رجعت به ، فسألهم وسكت القوم وفيهم ابو حنيفة ، وهو يومئذ صبي ، فقال لأبيه : يا ابتا انا أجيبه ، فاسكته ابوه ، وقام ابوحنيفة واستأذن الخليفة فى الجواب وصعد ابوحنيفة المنبر . الخ . هكذا أوردوا هذه الاسطورة واختلفوا بطرق نقلها .

ومن أطرف ما نقلوه مايرويه صاحب مفتاح السعادة ان ثابتاً توفي ، وتزوج ام الامام ابي حنيفة الامام جعفر الصادق ، وكان ابو حنيفة رحمه الله صغيراً وتربي فى حجر الامام جعفر الصادق وأخذ علومه منه . قال مؤلفه : وهذه ان ثبتت فهي منقبة عظيمة لأبي حنيفة .

وكيف يتأتى ذلك ويتجه ان ابا حنيفة كان صغيراً وتربي في حجر الامام الصادق وقد كانت ولادة ابي حنيفة سنة ٨٠ وولادة الصادق سنة ٨٣ ؟ فلا يصح هذا وان ابوا إلا تصحيح هذه المناقب فالله قادر على كل شيء ، ولا يستبعد ان يكون المد والجزر فى الأعمار كما هو فى البحار .

ولنكتف بما ذكرناه ، ولا نتعرض لتلك الادعاءآت الكاذبة فقد ادعوا ان التورات بشرت به ، وان صفته مكتوبة فيها ، وان الله ناداه يا ابا حنيفة اني قد غفرت لك ولمن هو على مذهبك الى يوم القيامة ، وأن النبي غبط داود لأن في امته لقمان فبشره جبرئيل بابي حنيفة ، وان حكمته اعظم من حكمة لقمان ، وأن الخضر درس عليه خمسة سنين في حياته واكمل دراسته عليه وهو في قبره الى كثير من تلك السفاسف وهو من الامور التي لا تحتاج الى مناقشة ، وانما هي وليدة عصر احتدام التعصب للمذاهب ، فذهب كل الى تكوين شخصية امامه طبقاً لاهدافها ، وقد الفوا كتباً طافحة بالثناء الأجوف والمدح الكاذب .

وقد ألف أحمد بن محمد بن الصلت الحماني المتوفى سنة ٣٠٢ كتابا في مناقب أبي حنيفة . وضع فيه أخباراً كلها موضوعة ، وقد استمد منها اكثر أهل

المناقب معلوماتهم ، (وكان أحمد هذا من الوضاعين لم يكن في الكاذبين أقل حياءً منه -١-

وكذلك أسد بن عمر البجلي القاضي المتوفى سنة ١٩٠ كان يضع الأحاديث لنصرة مذهب ابي حنيفة ، ومثله اباه بن جعفر الكذاب المعروف وقد حرفه بعضهم عند نقله عنه بابان ليخفى حاله ، واباه قد خرّج في ابي حنيفة أحاديث لا أصل لها -٢- وقد وضع عليه اكثر من ثلثمائة حديث ، وذكر اكثرها الحارثي في مسند ابي حنيفة ، وغير هؤلاء كثير لا يسع الوقت لذكرهم ممن دعتهم عصبيتهم الى تكوين شخصية ابي حنيفة طبقاً لرغباتهم ومعاكسةً للوجدان ، ومخالفةً للحق ، وبذلك صعب الوصول الى معرفة شخصية ابي حنيفة .

فلنترك مناقشة تلك المناقب ولا نتعرض إلا لما له أهمية في الموضوع .
فمن ذلك قولهم : إن أبا حنيفة سمع جماعة من الصحابة ودونوا له أحاديث ذكرت في مسانيده فلننظر لصحة هذه الدعوى من كذبها .

-١- تذكرة الحفاظ ج ٢ ص ٥٦ ، والخطيب ج ٤ ص ٢٠٧
-٢- تهذيب التهذيب ج ١ ص ٤٤٩

سماعه من الصحابة

ذكرت كتب المناقب لأبي حنيفة أنه رأى جماعة من الصحابة وروى عنهم ليصبح بذلك تابعياً ، وهذا الادعاء يختص به الحنفية ، وقد نفى ذلك علماء الحديث والتاريخ -١-

كما ان اصحابه الذين دونوا مذهبه لم يثبتوه ولم يعرفوا من روايته عن الصحابة شيئاً ، وانما هو من إيحاءآت العصبية ونزعة الغلو وللبيان نذكر اولئك الصحابة رضي الله عنهم وتاريخ وفياتهم ، فيتضح الأمر ببطلان هذه الدعوى ، واليك البيان :

١ — عبد الله بن انيس ابو يحيي الجهني حليف الأنصار شهد العقبة الثانية واحد ، ورحل الى مصر وتوفي في الشام سنة ٨٠ أي سنة ولادة ابي حنيفة ، وقال بعضهم : توفي في خلافة معاوية سنة ٥٤ فما يروى عن ابي حنيفة انه قال ولدت سنة ثمانين ، وقدم عبد الله بن انيس الجهني صاحب رسول الله (ص) سنة ٩٤ ورأيته وسمعت منه عن رسول الله (ص) « حبك الشيء يعمي ويصم » لا أصل له .

٢ — عبد الله بن الحرث بن جزء الزبيدي ابو الحرث شهد فتح مصر

-١- وفيات الأعيان ج ٢ س ١٦٢ ومرآة الجنان ج ١ س ٣١٠ وشذرات الذهب ج ١ س ٢٢٨ وتهذيب التهذيب

واختط بها داراً له ومات سنة ٨٦ وهو آخر من مات بها من الصحابة ، فما روي عن ابي حنيفة انه قال : حججت مع ابي سنة ٩٦ ، ورأيت عبد الله بن الحرث يدرس فى المسجد الحرام ، وسمعت منه انه يقول سمعت رسول الله (ص) يقول : من تفقه فى دين الله كفاه الله ما أهمه ، ورزقه من حيث لا يحتسب فهذا لا يصح لأن وفاة هذا الصحابي سنة ٨٦ وولادة ابي حنيفة سنة ٨٠ وأول حج حجه ابو حنيفة سنة ٩٦ هجرية فكيف يصح ملاقاته وسماعه منه ؟.

قال : الشيخ قاسم الحنفي وهو من مشايخ الحنفية ان سند ذلك الحديث فيه قلب وتحريف ، وفيه كذاب اتفاقا ، وبان عبد الله مات بمصر ولابي حنيفة ست سنين وعبد الله لم يدخل الكوفة في تلك المدة .

٣ — جابر بن عبد الله الأنصاري صحابي جليل شهد العقبة ، وغزا تسع عشرة غزوة مات بالمدينة سنة ٧٨ أي قبل ولادة ابي حنيفة بسنتين فما يروى عن أبي حنيفة عن جابر عن النبي (ص) انه أمر من لم يرزق ولداً بكثرة الاستغفار والصدقة ، فولد لجابر تسعة ذكور ، فهذا حديث موضوع لا أصل له -١-

٤ — عبد الله بن ابي أوفى الاسلمي ، صحابي ابن صحابي شهد بيعة الرضوان ، مات سنة ٨٥ وسماع ابي حنيفة منه حديث رسول الله (ص) « من بنى لله مسجداً كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة » فسماعه غير صحيح لأنه طفل صغير ليس له أهلية السماع ، مع ان ابا حنيفة لم يشتغل بطلب العلم إلا بعد مدة من الزمن .

٥ — معقل بن يسار المزني بايع بيعة الشجرة ، وتوفي في خلافة معاوية

-١- انظر الخيرات الحسان ص ٢٤

سنة ٦٠ فرواية ابي حنيفة عنه حيث يقول : سمعت معقلا يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : علامات المنافق ثلاث اذا قال كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا ائتمن خان، « غير صحيح لتقدم وفاة معقل على ولادة ابي حنيفة بعشرين سنة » .

٦ — واثلة بن الاسقف بن كعب بن عامر من بني ليث بن عبدمناف ، ويكنى أبا الأسقع أسلم قبل تبوك ، وشهدها مع النبي (ص) نزل الشام ومات في خلافة عبد الملك سنة ٨٣ وهو ابن ١٦٥ سنة وكان آخر من مات بدمشق من الصحابة روى عنه ابو حنيفة حديثين: (الأول) « لا تظهر الشماتة باخيك فيعافيه الله ويبتليك » (الثاني) « دع ما يريبك الى مالا يريبك » . والحديثان رواهما الترمذي من وجه آخر عن جمع من الصحابة ، ورواية ابي حنيفة لهما عن واثلة لا تصح لأنه مات بالشام وعمر ابي حنيفة ثلاث سنين ؛

٧ — عائشة بنت عجرد مجهولة لا تكاد تعرف ، قال الذهبي وشيخ الاسلام ابن حجر : أن عائشة لاصحبة لها وانها لا تكاد تعرف ، وبذلك رد ماروي ان ابا حنيفة روى هـــذا الحديث الصحيح اكثر جند الله الجراد لا آكله ولا أحرمه .

٨ — سهل بن سعـد الساعدي كان اسمه حزن فسماه رسول الله سهلا توفي سنة ٨٨ وهو آخر من مات من الصحابة بالمدينة ولم يخرج منها الى الكوفة فلا يصح سماع ابي حنيفة منه وروايته عنه لأن ابا حنيفة لم يحج إلا فى سنة ٩٦ أي بعد وفاة سهل بثمان سنوات . ذكر ذلك البزاز فى مناقب ابي حنيفة .

٩ — أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام الأنصاري شهد بدراً مات سنة ٩٠ وقـــد جاوز المائة وهو آخر من مات بالبصرة

من الصحابة -١- .

والغرض ان رواية ابي حنيفة عن الصحابة لا تصح قال محمد بن شهاب البزاز: ان جماعة من المحدثين انكروا ملاقاة ابي حنيفة للصحابة ، وأصحابه اثبتوها وبلغ مجموع مارواه ابو حنيفة عن الصحابة خمسين حديثاً .

وبدون شك إن ذلك غير صحيح ، ولو كان لها أثر من الصحة لأثبتها أصحابه كابي يوسف ومحمد بن الحسن ، والحسن بن زياد ، وزفر بن الهذيل ، وغيرهم عند نقلهم لاحاديثه ، فهي بلا شك أصح أحاديث عنده ، فتركهم لها دليل على عدم صحتها .

-١- انظر الخيرات الحسان ، وخلاصة تهذيب الكمال ، ومناقب ابي حنيفة للبزاز .

ابو حنيفة

بين أنصاره وخصومه

لقد تعصب المعجبون بابى حنيفة ، فاعطوه منزلة فوق منزلته ، ونسبوا له أشياء بعيدة كل البعد عن الواقع ولا يكاد الباحث عن حياته يصل الى نتيجة إلا بعد جهد ومشقة فى البحث ، وقد تقدم الكلام حول الادعاء ببشارة النبي صلى الله عليه وآله به ، وتصريحه باسمه ، وأضافوا الى ذلك بشارة الامام علي (ع) لأهل الكوفة بوجوده فيها ، وذهبوا الى انتحال كلمات المدح من أهل البيت عليهم السلام في مدحه ، والثناء عليه ، وإني لأعترف بما اعترانى من دهشة اثناء بحثي عن حياة ابي حنيفة ألتمس الطريق الموصل الى معرفته عندما رأيت اموراً اثبتها رجال منهم بدون خجل واستحياء ، فهم يمنحونه وسام الامتياز على جميع العلماء ، وطاروا فيه باجنحة الغلو فجعلوه فى منزلة الأنبياء ، وقالوا : إنه معجزة النبي بعد القرآن ، وأنه وضع فقهاً لولاه لما اهتدى الناس ، وأقبح كل شيء وأفضعه تلك الأساطير التي يخترعها القصاصون ، فيلقونها على مسامع السذج من الناس ، كتعليمه الخضر في حياته وبعد وفاته -١-

---

-١- قالوا : إن الله خص ابا حنيفة بالشريعة والكرامة ، ومن كراماته أن الخضر عليه السلام كان يجيء اليه كل يوم وقت الصبح ويتعلم منه أحكام الشريعة الى خمس سنين فلما مات ابو حنيفة ناجى الخضر ربه وقال : إلهى إن كان لي عندك منزلة فاذن لأبى حنيفة حتى يعلمني من القبر على حسب عادته حتى اتعلم شرع محمد على الكمال ، فاحياه الله وتعلم منه -

وصفوه بصفات فوق الطبيعة البشرية كقراءة القرآن سبعين الف مرة ، في محل واحد ، وصلاته في كل ليلة ركعتين يختم القرآن في كل ركعة ، وصلاته الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة ، وامتناعه من أكل اللحم عشر سنين لأن شاة ضاعت فسئل كم تعيش فقيل عشر سنين الى غير ذلك من الامور التي أساء المغالون لأبي حنيفة فيها ، هذا هو ابو حنيفة في نظر المعجبين به وأنصاره المغالين في تكوين شخصيته . اما الطرف الآخر من معاصريه وغيرهم ، فقد رموه بالزندقة ، والخروج عن الجادة ، ووصفوه بفساد العقيدة ، والخروج على نظام الدين ومخالفة الكتاب والسنة ، وطعنوا في دينه وجردوه من الايمان ـ١ـ واليك بعض الاقوال في ذلك تمهيداً للبحث :

اجتمع سفيان الثوري ، وشريك ، والحسن بن صالح ، وابن ابي ليلى ، فبعثوا الى ابي حنيفة ، فقالوا : ماتقول في رجل قتل أباه ونكح امه وشرب الخمر في رأس أبيه ؟ فقال : مؤمن فقال ابن ابي ليلى : لاقبلت لك شهادة أبداً . وقال له سفيان الثوري : لا كلمتك أبداً ـ٢ـ

وحكي عن ابي يوسف قيل له : أكان ابو حنيفة مرجئاً ؟ قال نعم : قيل :

ـ العلم الى خمس وعشرين سنة ، وبعد أن أكمل دراسته أمره الله ان يذهب الى القشيري ويعلمه ما تعلم من ابي حنيفة ، وصنف القشيرى الف كتاب من ذلك العلم ، وهى لا تزال وديعة في نهر جيحون الى رجوع المسيح فيحكم بتلك الكتب لأنه يأتي في زمان ليس فيه من كتب شرع محمد فيتسلم المسيح امانة نهر جيحون ، وهى كتب القشيرى ، وعلى هذا بنوا القول بأن عيسى حنفي المذهب وكذلك المهدى انظر الاشاعة في اشراط الساعة ص ٢٠ ، وكتاب الياقوتة لابن الجوزى ص ٤٨ تجد القصة مفصلة وتعرف مقدار انتشار تلك السخافة .

ـ١ـ انظر ابو حنيفة محمد ابو زهرة ص ٥

ـ٢ـ الخطيب ج ٣ ص ٣٧٤

كان جهمياً ؟ قال : نعم قيل أين أنت منه ؟ قال : انما كان ابو حنيفة مدرساً ، فما كان من قوله حسناً قبلناه ، وما كان قبيحاً تركناه عليه -١-

وحدث ابراهيم بن بشار عن سفيان بن عيينة انه قال : مارأيت أحداً أجرأ على الله من أبي حنيفة ، وعنه أيضاً : كان ابو حنيفة يضرب لحديث رسول الله الأمثال فيرده بعلمه -٢-

وعن الوليد بن مسلم قال : قال لي مالك بن أنس : أيذكر ابو حنيفة في بلادكم ؟ قلت نعم قال لا ينبغي لبلادكم ان تسكن -٣- .

وعن الأوزاعي يقول : اننا لا ننقم على ابي حنيفة انه رأى كلنا يرى ، ولكننا ننقم عليه إنه يجيئه الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله فيخالفه الى غيره -٤- .

قال ابن عبدالبر : وممن طعن عليه وجرحه محمد بن اسماعيل البخاري ، فقال فى كتابه الضعفاء والمتروكين : ابو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي ، قال نعيم بن حماد : حدثنا يحيى بن سعيد ومعاذ بن معاذ سمعنا سفيان الثوري يقول : استتيب ابو حنيفة من الكفر مرتين . وقال نعيم الفزاري : كنت عند سفيان بن عيينة ، فجاء نعي ابي حنيفة ، فقال : لعنه الله كان يهدم الاسلام عروة عروة ، وما ولد فى الاسلام مولود أشر منه . هذا ماذكره البخاري -٥-

وقال ابن الجارود فى كتابه في الضعفاء والمتركين : النعمان بن ثابت جلّ

-١- الخطيب ج ٣ ص ٣٧٤ .
-٢- الانتقاء ص ١٤٨ .
-٣- ميزان الشعراني ج ١ ص ٥٩ .
-٤- تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٦٣ .
-٥- الانتقاء لابن عمر ص ١٥٠

حديثه وهم وقد اختلف في اسلامه .

وقد روي عن مالك رحمه الله انه قال في ابي حنيفة نحو ما ذكره سفيان : انه شر مولود ولد في الاسلام ، وانه لو خرج على هذه الامة بالسيف كان أهون . وروي عنه أنه سئل عن قول عمر بن الخطاب : بالعراق الداء العضال فقال مالك ابو حنيفة وروى ذلك عن مالك كله أهل الحديث .

وعن وكيع بن الجراح انه قال : وجدت ابا حنيفة خالف مائتي حديث عن رسول الله (ص) . وقيل لابن المبارك : كان الناس يقولون انك تذهب الى قول ابي حنيفة ، قال : ليس كل ما يقول الناس يصيبون فيه ، كنا نأتيه زماناً ، ونحن لا نعرفه ، فلما عرفناه تركناه -١-

وقد اكثر الخطيب البغدادي في ترجمة ابي حنيفة في ج ١٣ من كتابه ذكر الأقوال التي تحط بمقامه ، وقد طعن الحنفية في الخطيب ونسبوه الى التعصب الأعمى والتحامل على ابي حنيفة ، بما ذكره ولعله لم يقصد إلا جمع ما قيل في الرجل على عادة المؤرخين ، ولم يقصد بذلك انتقاصه ، ولا الحط من مقامه تقولا وتعصباً ، فانه ذكر أولا كلام المادحين ، واكثر منه ومن نقل مآثره -٢- وأعطى عنه صورة طبق ما عرف عنه ، ثم عقب ذلك بذكر كلام القادحين على ان اكثر تلك الأقوال والطعون وجدت في غير كتابه ورويت من غير طريقه فهو مؤرخ كأحد المؤرخين الذين يثبتون ما علموا ويروون ماسمعوا فهو لم يفتعلها ولا يؤاخذ بها وإنما المؤاخذة على الرواة والناقلين والقائلين في ابي حنيفة تلك الأقوال ونحن نعرض عن ذكر ما ورد في كتاب الخطيب ولكننا

-١- الانتقاء لابن عمر ص ١٥٠

-٢- الخيرات الحسان ص ٧٦

نقل عنه بعض المؤاخذات على ابي حنيفة والتي رواها غيره لنأخذ صورة عن ذلك واليك منها :

١ — ان ابا حنيفة قال : لو أن رجلا عبد هذه النعل يتقرب بها الى الله لم أر بذلك بأساً .

٢ — عن شريك قال : كفر ابو حنيفة بآيتين من كتاب الله قال تعالى « ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وذلك دين القيمة » وقال تعالى : « ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم » وزعم ابو حنيفة ان الايمان لا يزيد ولا ينقص ، وزعم ان الصلاة ليست من دين الله .

٣ — وعن الفزاري قال : قال ابو حنيفة : ايمان آدم وايمان ابليس واحد ، قال ابليس « ربي بما اغويتني فانظرني الى يوم يبعثون » وقال آدم « ربنا ظلمنا أنفسنا » .

٤ — قيل لشريك استتيب ابو حنيفة ؟ قال قد علم ذلك العواتق في خدورهن .

٥ — قال سفيان الثوري : قال : قال لي حماد بن ابي سليمان : ابلغ عني ابا حنيفة المشرك اني بريء منه حتى يرجع عن قوله في القرآن .

٦ — وعن سفيان الثوري يقول ان اباحنيفة استتيب من الزندقة مرتين.

٧ — عن ابي مطيع البلخي سمعت ابا حنيفة يقول : ان كانت الجنة والنار خلقتا فانهما تفنيان قال ابو مطيع : كذب والله .

٨ — عن يوسف بن اسباط يقول قال ابو حنيفة : لو أدركني النبي وأدركته لأخذ بكثير من قولي .

٩ — ابو اسحاق الفزاري قال : كنت آتى ابا حنيفـة أسأله عن الشيء من أمر الغزو فسألته عن مسألة فاجاب فيها ، فقلت انه يروى عن النبي (ص) فيها كذا وكذا ، قال حك هذا بذنب خنزير .

١٠ — عن عبد الصمد عن أبيه قال : ذكر لابى حنيفة قول النبي (ص) أفطر الحاجم والمحجوم قال هذا سجع .

هذه بعض المؤاخذات على ابي حنيفة ، وأعرضنا عن ذكر غيرها وقـد ذكر ذلك الخطيب وابن قتيبة فى تأويل مختلف الحديث وابن عبد البر وغيرهم .

وقد أجاب الحنفيـة على هذه المؤاخذات وألفوا بذلك كتباً منها السهم المصيب الى كبد الخطيب ومنها تأنيب الخطيب للبحاثة الـكبير محمد بن الحسن الـكوثري .

ابو حنيفة

نشأته ونبوغه ، شيوخه وتلامذته

— ١ —

ولد ابو حنيفة سنة ٨٠ في خلافة عبد الملك بن مروان الاموي ، وعاش الى سنة ١٥٠ فقد أدرك من العصر الاموي اثنتين وخمسين سنة ، ومن العصر العباسي ثماني عشرة سنة .

وقد نشأ في الكوفة في عهد الحجاج بن يوسف ، فرأى قسوة الحجاج واستبداده وسيرته السيئة ، وحكمه القاسي ، ومعاملته للناس بما لا يمكن تحمله ، ومات الحجاج وعمره خمسة عشر عاماً ، وشاهد ولاة الامويين يسيرون بالامة ، وقد جاروا فى الحكم ، وخالفوا نظم الاسلام ، اتباعاً لملوكهم ، وطبقاً لرغباتهم ، من غير رادع من دين ، ولا مراعاة لحرمة ، ولم تمنعهم حواجز عن ايقاع الأذى برجال المسلمين وأعيانهم ، ومع هذا يرى العصبية العنصرية فيهم تتجلى بدون خفاء وتكتم ، وبالطبع ان ذلك يثير فى نفسه نزعة البغض والكراهة لتلك السلطة ، لذلك نراه يساهم فى حركة الانقلاب ، وينظم لجانب العباسيين في دعوتهم .

كان ابو حنيفة منصرفا للعمل فهو يتعاطى بيع الخز ، وله محل لصنعه وصناع تحت يده ، وبهذا كان يعيش برفاهية ، ويصل اخوانه ، وأصحابه ،

ولا نعرف بالضبط مدة بقائه تحت رعاية أبيه فالتاريخ لم يتعرض لذلك .

ولقد كان عصر ابي حنيفة الذي أظله ، والبيئة الفكرية التي عاش بها ، وترعرعت مواهبه تحت سلطانها اكبر عامل على نبوغه ، وتوجيهه ، وقد كانت الكوفة إحدى مدن العراق العظيمة التي نشأت بها حلقات العلم ، وكان يومئذ فى العراق الأهواء المتضادة ، والآراء المتضاربة في السياسة ، واصول العقائد ، وتطورت الحركة الفكرية واتجه الناس فى آخر الدولة الأموية إلى امور لم يكن في وسعهم الاتجاه اليها في ابان عظمة الدولة التي حرمت المفكرين ورجال العلم من التمتع بحرية الرأي .

وكانت في الكوفة حلقات العلم يجلس طلابه الى شيوخ عرفوا بذلك ، فكانت حلقات للمتكلمين بجانب حلقات الفقه وحلقات الشعر والأدب يتكلمون فيها بالقضاء والقدر ، والكفر والايمان ، ويستعرضون أعمال الصحابة فى الحروب وغيرها ، وقد اختار ابو حنيفة حلقة المتكلمين ـ١ـ .

ونبغ في علم الكلام والجدل وناظر فيه ، واتسعت دائرة تفكيره ، واذا رجعنا الى حديثه عن ذلك فيكون ملازمته لحلقة المتكلمين اكثر من حلقة الفقه التي انتقل اليها بعد هجر علم الكلام ، فاختص بالفقه وحده ، فان ذهابه للبصرة ، ومناظرته الفرق هناك اكثر من عشرين مرة ، وفي كل مرة يمكث سنة أوأ كثر أو أقل ، فلابد انه قضى الشطر الاكبر من عمره ، فى ذلك وان كانت تلك الرواية لا تخلو من مبالغة ان سلمت من الخدشة فى السند ـ٢ـ .

ومهما يكن فانه نشأ فى أول أمره عاملا يتعاطى التجارة وصنعة الخز وبيعه

ـ١ـ ضحى الاسلام ج ٢ ص ١٧٨ .

ـ٢ـ مناقب أبى حنيفة المكى ج ١ ص ٥٩ .

فى الأسواق . وقضى شطراً من حياته في ذلك حتى أرشده الشعبي لطلب العلم فاتجه للكلام ثم اتصل بحلقة حماد بن سليمان المتوفى سنة ١٢٠ وكان هو المبرز من بعده ، وقد ساعدته الظروف على اخضاع الحواجز التي تقف امامه ، كما ان العصر الذي هو فيه قد هيأ له أسباب الرقي ، ومهد له طرق التقدم ، فقد حدثت تطورات وسنحت فرص استغلها ابو حنيفة ، لما كان يتصف به من ذكاء وفطنة وطموح في نفسه ، ومن حسن طالعه أن يقع فى عصره الخلاف بين أهل الحديث وأهل الرأي أو بين العرب والموالي وتشتد الخصومة ، ويكثر بينهم التهاجي ، وهو يترأس حلقة استاذه حماد وهي إحدى حلقات العلم بالكوفة ، وبالطبع ان الملتفين حوله والمنظمين اليه هم الموالي واكثرهم كان يحقد على العرب الذين نظروا اليهم نظر السيد الى المسود والشريف الى الوضيع وتلك نزعة غذتها بنو امية وعاملوا الموالي معاملة سيئة فلم يعدلوا معهم في الحكم وقد كانت تلك النزعة تبعث فى نفوس المفكرين من الموالي حقداً يأكل قلوبهم .

— ٢ —

زخرت الكوفة برجال العلم ، واتسع نطاق الحركة الفكرية واتجه الناس للبحث ووقع الخلاف بين أهل الرأي وأهل الحديث ، وأخذت السلطة في تشجيع أهل الرأي واندفع الموالي (١) الى التزاحم فى طلب الشهرة والنبوغ في المجتمع ، عندما اصبحوا ولهم قوة على ايجاد كتلة متماسكة الأجزاء ، فكثر عددهم في الكوفة وقوى جمعهم ، وأصبح منهم رجال أشغلوا مناصب الدولة فمنهم قواد جيش وامراء بلد ، وعلماء يشار اليهم بالأصابع ومنهم الأدباء ورواة حديث

(١) هو الاسم الذي أطلقه المؤرخون على غير العرب .

وقد اجتازوا مراحل العنف والشدة ، وانتقلوا من عهد الاستبداد والقسوة وعدم المساواة في الحكم بينهم وبين العرب ، وقد كان الامويون يتعصبون لعنصرهم ويحتقرون الموالي مهما كانت ميزاتهم وكفاءتهم ، وتابعهم بعض المتعصبين من العرب ونهج هذا المنهج ، خلافا لما شرعه الله وسار عليه الرسول الأعظم فكانوا يضعون من قيمة الموالي ويحتقرونهم .

يقول الاصفهاني : كانت العرب الى أن جاءت الدولة العباسية ، اذا أقبل العربي من السوق ومعه شيء فرأى مولىً دفعه اليه ليحمله عنه فلا يمتنع !

وتزوج رجل من الموالي بنتاً من أعراب بني سليم ، فركب محمد بن بشير الخارجي الى المدينة ، وواليها يومئذ ابراهيم بن هشام بن اسماعيل ، فشكا اليه فارسل الوالي الى المولى ففرق بينه وبين زوجته ، وضربه مائتي سوط ، وحلق رأسه ، وحاجبه ولحيته .

فقال محمد بن بشير :

قضيت بسنة وحكمت عدلا ولم ترث الحكومة من بعيد

وقد نفذ الأمويون هذه السياسة بشدة ، وغذوا هذه النزعة باعمالهم التي عاملوا بها الموالي ، وقد شرعها لهم معاوية بن ابي سفيان لأنه عرف عدل الامام علي بن ابي طالب ومساواته في الرعية الامر الذي ادى الى تقاعد من تحكمت به هذه النزعة الشريرة عن نصرته ، فاراد معاوية استمالتهم وتحويلهم اليه

روى المدائني أن طائفة من اصحاب علي عليه السلام مشوا اليه فقالوا : يا امير المؤمنين اعط هذه الاموال ، وفضل هؤلاء الاشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم ، واستمل من تخاف خلافه من الناس — وانما قالوا له ذلك لما كان معاوية يصنع في المال — فقال لهم : اتأمروني ان اطلب

النصر بالجور ؟ ! (١)

وحوادث التاريخ مملوءة بالشواهد على ذلك من الامور التى بعثت المفكرين من الموالي الى الحقد على العرب .

وبين هذه الأمور وفي ذلك العصر كانت نشأة ابي حنيفة وهو من اولئك القوم الذين نالهم الاذى فى تلك المدة ، وكان يشعر بما يشعر به ابناء جنسه ، ويعظم عليه اهانتهم وتعذيبهم ، وقد شاهد في الكوفه وغيرها تلك الاوضاع الشاذة ، والسيرة المخالفة للاسلام ، وبالطبع ان نفسه تتأثر من ذلك وشاهد الحجاج وشدته فى سياسته مما يغذي تلك النزعة الخبيثة وهو احد اركان الدولة الأموية فانه امر ان لا يؤم الكوفه إلا عربي ، ووسم ايدي النبط بالمشراط ولما نزل واسطاً نفى النبط منه ، وكتب الى عامله بالبصرة ـ وهو الحكم بن ايوب ـ يقول : اذا اتاك كتابي ، فانف من قبلك من النبط ، فانهم مفسدة للدين والدنيا فكتب اليه : قد نفيت النبط ، إلا من قرأ منهم القرآن ، وتفقه فى الدين فكتب اليه الحجاج : إذا قرأت كتابي فادع من قبلك من الاطباء ونم بين ايديهم ، ليفقوا عروقك فان وجدوا فيك عرقا نبطيا فاقطعه والسلام ، فكان الموالي يتلقون هذه الأمور بصبر ولا يستطيعون التظاهر باي شيء في العهد الأموي خشية العقاب لقلة العدد وعدم القوة وقد اكل الحقد قلوبهم وأثر في نفوسهم

وبعد ان تحول الحكم من الامويين الى العباسيين ، وهم الذين شاطروا في هذا الانقلاب بل كان العباسيون يعدونهم من خلص انصارهم ، ورجال دعوتهم فاتجهوا اليهم ونصروهم ، فكان النشاط الذي احرزه الموالي يسترعي الانظار ، ويبعث على العجب ، وبالطبع أنهم يلتفون حول الامام ابي حنيفة ويعتزون بشخصيته

ـ١ـ شرح النهج

عندما اصبح يترأس حلقة علمية خلفها له استاذه حماد ، وهو من الموالي .

وابو حنيفة هو ذلك الرجل الذى عرف بقوة النفس ، وعلو الهمة و كان ذا فطنة ولباقة ، وله سيرة خاصة في معالجة مشاكل الحياة ، بل يعرف من أين تؤكل الكتف ، فتراه يقتحم مواقع الخطر ويزج نفسه فيها ، فتحدث الناس عنه واشتهر اسمه و كان مع ذلك على جانب عظيم من المداراة لخصومه وحسن المعاشرة لاصحابه يصلهم برفده ويساعدهم بمعروفه وله ثروة تساعده على ذلك وتمهد له الطريق . ولما هجاه مساور بقوله :

كنا من الدين قبل اليوم في سعة ... حتى بلينا باصحاب المقاييس

قاموا من السوق اذقامت مكاسبهم ... فاستعملوا الرأى بعدالجهدوالبؤس

فلقيه ابو حنيفة فقال : هجوتنا يا مساور ، نحن نرضيك فوصله بدراهم فقال مساور :

اذا ما الناس يوماً قايسونا ... بآبدة من الفتيا طريفه

اتيناهم بمقياس صحيح ... تلاد من طراز ابي حنفيه

اذا سمع الفقيه بها وعاها ... واثبتها بحبر من صحيفه

فاجابه اصحاب الحديث :

اذا ذو الرأي خاصم عن قياس ... وجاء ببدعة هنه سخيفه

اتيناهم بقول الله فيها ... وآثار مبرزة شريفه

الى آخر الابيات التي ذكرها ابن قتيبة -١- وابن عبدربه -٢- ولا يسع المجال لذكر ما نتج من وراء ذلك الخلاف بين اهل الحديث واهل الرأى من هجاء ومناوشات

-١- المعارف ص ٢١٦

-٢- العقد الفريد ص ٤٠٨

وكانت السلطة تشجع تلك الحركة وتضاعف أسباب الخلاف من وراء الستار لغاية في نفوسهم .

— ٣ —

اتجه ابو حنيفة الى الفقه بعد ان قضى مدة من حياته في التجارة ثم قرأ الكلام، ودرس على مشايخ عصره، وحضر على عطاء بن رباح في مكة وهو من الموالي وعلى نافع مولى ابن عمر في المدينة ، واخذ عن عاصم بن ابي النجود وعطية العوفي وعبد الرحمن بن هرمز ، مولى ربيعة بن الحارث ، وزياد بن علاقة ، وهشام بن عروة وآخرين ، ولكنه لزم واحداً منهم ملازمة تامة وتخرج عليه وهو حماد بن سليمان الاشعرى ، مولاهم صاحب ابراهيم النخعي روى عن انس بن مالك ، وسعيد بن المسيب ، وابي وائل ، واستاذه ابراهيم النخعي ، وهو الذي اختص به ابو حنيفة وحضر درسه وتخرج عليه الى ان مات حماد سنة ١٢٠ وعمر ابى حنيفة أربعون سنة ومن بعده استقل بتدريس حلقته ، و يحدث ابو حنيفة عن صلته بشيخه حماد قال صحبته عشر سنين، ثم نازعتني نفسي الطلب للرياسة، فاردت ان اعتزله واجلس في حلقة لنفسي ، فخرجت يوماً بالعشى وعزمي ان افعل ، فلما دخلت المسجد ورأيته لم تطب نفسي ان اعتزله ، ويقول : قدمت البصرة فظننت اني لا اسأل عن شيء الا اجبت عنه فسألوني عن اشياء لم يكن عندي فيها جواب ، فجعلت على نفسى ان لا افارق حمادا حتى يموت ، فصحبته ثماني عشرة سنة ، ولم تكن ملازمته لحماد بحيث لم ينقطع عنه ولم يأخذ عن غيره لأنه كان كثير الرحلة الى بيت الله الحرام حاجاً كما يقولون انه حج اكثر من خمسين مرة ، والتقى هناك بكثير من التابعين وسمع منهم واجتمع بأئمة اهل البيت وروى عنهم كزيد بن علي والامام

محمد الباقر وابنه الصادق وعبد الله بن حسن بن حسن .

— ٤ —

لم يعرف فقه ابي حنيفة إلا من طريق اصحابه الذين اختصوا به ، فهو لم يكتب فقهه بنفسه ولم يدون شيئاً من آرائه ، ولكن التدوين انما اخذ من قبل اصحابه وكان لابي حنيفة تلاميذ ، منهم من كان يرحل اليه ، ويستمع منه ، ومنهم من لازمه ملازمة تامة ، وفيهم يقول : هؤلاء ستة وثلاثون رجلاً منهم ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء ، وستة يصلحون للفتوى ، واثنان ابو يوسف وزفر يصلحون لتأديب القضاة وارباب الفتوى ! ـ ولكن الذين خدموا مذهب ابي حنيفه ونشروه هم ابو يوسف ، وزفر ، ومحمد بن الحسن الشيباني ، والحسن ابن زياد اللؤلؤي ،

١ ـ اما ابو يوسف وهو يعقوب بن ابراهيم الانصاري نسباً والكوفي منشأً فهو عربي وليس من الموالي ولد سنة ١١٣ وقد نشأ فقيرا واتصل بابي حنيفة بعد ان جلس الى ابن ابي ليلى ، ثم انقطع لابي حنيفة و اتصل به ، وقد قام ابو حنيفة بنفقته ونفقة عياله عشر سنين ، وبعد وفاة ابي حنيفة وزفر بن الهذيل استقل ابو يوسف برياسة اصحاب ابي حنيفة ، وساعدته الظروف ، واقبلت الدنيا عليه ، ووقع موقع القبول عند خلفاء بني العباس ، وولي القضاء لثلاثة منهم للمهدي والهادي والرشيد ، وقد نال عند الرشيد حظاً مكيناً وقربه ، وهو الذى نشر مذهب ابي حنيفة في الاقطار على ايدي القضاة الذين كان يعينهم ابو يوسف من اصحابه ، فكان نفوذ المذهب يستمد من نفوذ سلطته ، ولابي يوسف كتب كثيرة دون فيها آراءه وآراء شيخه ، ذكرها ابن النديم منها

كتاب الصلوة ، كتاب الزكاة ، كتاب الصيام ، كتاب الفرائض ، كتاب البيوع ، كتاب الوكالة ، كتاب الوصايا ، كتاب اختلاف الانصار ، كتاب الرد على مالك وغيرها ، وله املاء رواه بشر بن الوليد القاضي ، يحتوى على ستة وثلاثين كتابا ، وابو يوسف هو اول فقهاء اهل الرأي الذين دعوا آراءهم بالحديث وبذلك جمع بين طريقة اهل الرأي واهل الحديث . وقد مرت ترجمته وبعض احواله في هذ الكتاب وما قيل فيه .

٢ ـ محمد بن الحسن ، مولى بنى شيبان ، ولد سنة ١٣٢ وتوفي سنة ١٨٩ ، حضر على ابي حنيفة ، ولم يتم دراسته عليه ، لأن ابا حنيفة مات وعمر محمد نحو الثامنة عشرة ، ولكنه اتم دراسته على ابي يوسف ، واخذ عن الثورى والأوزاعي ورحل الى مالك ، وتلقى عنه فقه الحديث والرواية ، ومكث عنده ثلاث سنين وهو الذي ادخل الحديث فى فقه اهل الرأى ، والف كتباً في ذلك واصبحت هي المرجع الاول لفقه ابى حنيفة ، وكان يخالفه في اكثر مسائله ، وقد مرت ترجمته والاقوال فيه .

٣ ـ الحسن بن زياد اللؤلؤي الكوفي المتوفى سنة ٢٠٤ ، وهو من فقهاء المذهب ورواة آراء ابي حنيفة ، وقد طعن المحدثون عليه ، ورفضوا روايته ، قال ابن معين : انه كذاب غير ثقة ، وقال النضر بن شميل لرجل كتب كتب الحسن ابن زياد : لقد جلبت الى بلدك شراً . وقال ابو ثور : مارأيت اكذب من اللؤلؤي ، وكان ابن ابي شيبة يقول : كان اسامة يسميه الخبيث ووثقه ابن قاسم ـ١ـ وأخرج له ابو عوانة في مستخرجه والحاكم فى مستدركه .

٤ ـ زفر بن الهذيل ، وهو أقدم صحبة لأبي حنيفة من ابي يوسف ومحمد

ـ١ـ لسان الميزان ج ٢ ص ٢٠٨

توفي سنة ١٥٨ ، وكان أبوه عربياً ، وامه فارسية ، أخذ عن ابي حنيفة فقه الرأي ، حتى غاب عليه ، على ما سواه وكان أحدّ أصحاب ابى حنيفة قياساً ، وهو الذي خلف أبا حنيفة فى حلقته ، ثم من بعده ابو يوسف ، ولم تعرف له رواية لشيخه ويعود ذلك الى قصر حياته من بعده ، إذ لم يتسع الزمن للتدوين ولكن نشره لمذهب ابى حنيفة كان بلسانه وتولى القضاء فى زمن ابى حنيفة فى البصرة وهجاه أحمد بن المعذل المالكي بقوله :

(ان كنت كاذبة بما حدثتي) فعليك اثم ابى حنيفة أو زفر
المائلين الى القياس تعمداً والراغبين عن التمسك بالخبر -١-

وقد ترك المحدثون الرواية عنه قال : ابو موسى محمد بن المثنى ما سمعت عبد الرحمن بن مهدي يحدث عن زفر شيئاً وعن معاذ بن معاذ قال : كنت عند سوار القاضي فجاء الغلام فقال زفر بالباب فقال سوار : زفر الرأي لا تأذن له فانه مبتدع وعده العقيلي فى الضعفاء ، وعن بشر بن السري قال ترحمت يوماً على زفر وانا مع سفيان الثوري فاعرض بوجهه عنى ، وقال الأزدي : زفر غير مرضي المذهب والرأي ، وقال أحمد بن ابي العوام قاضي مصر فى مناقب ابي حنيفة : قال لي ابو جعفر الطحاوي سمعت اباحازم سمعت الضبي يقول قدم زفر بن الهذيل البصرة فكان يأتي حلقة عثمان البتي فيناظرهم ويتبع اصولهم فاذا رأى شيئاً خرجوا فيه عن الأصل تكلم فيه مع عثمان حتى يتبين له خروجه عن الأصل ثم يقول فى هذا جواب أحسن من هذا فاذا استحسنوه قال هذا قول ابي حنيفة فلم يلبث أن تحولت الحلقة اليه وبقي عثمان البتي وحده .

* * *

-١- تانيب الخطيب للكوثري ص ٩٥

هؤلاء تلامذة ابي حنيفة الذين نشروا فقهه ونقلوا آراءه ، وأول من دوّن منهم ، هو القاضي ابو يوسف ، ومن بعده محمد بن الحسن مولى بني شيبان وكتبه تعد المرجع الأول لفقه ابي حنيفة ، وقد أخذه عن ابي يوسف ، لأنه أدرك أبا حنيفة وعمره لم يسمح له بنقل فقهه ، ولكنه روى ذلك عن ابي يوسف ، فتراه يذكر في كتابه الجامع الصغير في أول كل فصل روايته عنه ، ولم يذكره في الجامع الكبير ، وقد ذكر ابن نجيم في البحر في باب التشهد ان كل تأليف لمحمد ابن الحسن موصوف بالصغير فهو باتفاق الشيخين ابي يوسف ومحمد ، بخلاف الكبير فانه لم يعرض على ابي يوسف .

ولقد كان ابو يوسف ومحمد . وغيرهم من تلامذة ابي حنيفة مستقلين فى تفكيرهم كل الاستقلال ، غير مقلدين لشيخهم ، بأي نواحي من نواحي التفكير وكونهم درسوا آراءه أو تلقوها عليه وتثقفوا في أول دراستهم عليه لا يمنع استقلال تفكيرهم ، وحرية اجتهادهم ، وإلا كان كل من يتلقن على شخص لابد أن يكون مقلداً له ، وتنتهي القضية لا محالة الى ان تنزل درجة ابي حنيفة عن الاجتهاد ، ويكون مقلداً لشيخه حماد بن ابي سليمان لأنه درس عنده ، وكان كثير التخريج عليه ، وخالفه أحيانا ووافقه أحيانا .

وكذلك كان اصحاب ابى حنيفة منه . فقد درسوا فقهه . وتلقوا عليه طريقة اجتهاده فوافقوه في بعضها وخالفوه في كثير من الآراء والأقوال وما كانت الموافقة عن تقليد بل عن اقتناع واستدلال وتصديق الدليل . وليس ذلك من شأن المقلد فان اولئك الأئمة مجتهدون ولهم آراؤهم الخاصة ولكنهم الطريق الى نقل أقوال ابى حنيفة .

وتجد كتب الحنفية تورد أقوال الأئمة الأربعة وربما يكون لمسألة واحدة

أربعة أقوال لأبي حنيفة قول ، ولأبي يوسف قول ، ولمحمد قول ، ولزفر قول ، حسب ما يظهر لهم من الآثار والمعاني ، يقول العلامة الخضري : وقد حاول بعض الحنفية ان يجعل أقوالهم المخالفة أقوالا للامام ، رجع عنها ، ولكن هذه غفلة شديدة عن تاريخ هؤلاء الأئمة ، بل عما ذكر في كتبهم ، فان ابا يوسف يحكي في كتاب الخراج رأي ابي حنيفة ، ثم يذكر رأيه مصرحاً بانه يخالفه ، ويبين سبب الخلاف ، وكذلك يفعل في كتاب خلاف ابي حنيفة ، وابن ابي ليلى ، فانه أحيانا يقول برأي ابن ابي ليلى بعد ذكر الرأيين ، ومحمد رحمه الله ، يحكي في كتبه أقوال الامام ، وأقوال ابي يوسف وأقواله مصرحاً بالخلاف على انه لو كان كما قالوا لم يكن ما رجع عنه من الآراء مذهباً ، ومن الثابت ان ابا يوسف ومحمد رجعا عن آراء رآها الامام لما اطلعوا على ما عند أهل الحجاز من الحديث ، فالمحقق تاريخياً ان أئمة الحنفية الذين ذكرناهم بعد ابي حنيفة رحمه الله ليسوا مقلدين له ، لأن التقليد لم يكن نشأ في المسلمين في ذلك التاريخ ، بل كان المفتون مستقلين في الفتوى ، بناءً على ما يظهر من الأدلة ، سواء أخالفوا معلميهم أم وافقوهم ، ولم تكن نسبة ابي يوسف ومحمد الى ابي حنيفة إلا كنسبة الشافعي الى مالك ـ١ـ

وسيأتي إنشاء الله في مباحث الفقه ذكر أقوالهم التي خالفوا بها الامام وآرائهم التي انفردوا بها فهم في الواقع أئمة مجتهدون لهم آراؤهم الخاصة، ولكنهم الطريق الى نقل آراء ابي حنيفة وقد نقل كتبهم تلاميذهم المبرزون منهم :

١ — ابراهيم بن رستم المروزي المتوفى سنة ٢١١ ، تفقه على محمد بن الحسن وسمع مالك بن أنس ، وقدم بغداد ، له كتاب النوادر عن محمد استاذه ، وهو ينسب الى مرو بفتح الميم وسكون الراء المهملة في آخرها واو ، بلدة يقال لها مرو،

ـ١ـ الخضرى تاريخ التشريع الاسلامى ص ٢٣٥

والشاهجهان والحاق الزاء المعجمة بعد الواو فى النسبة ، للفرق بينه وبين المروى ، وهي ثياب مشهورة بالعراق منسوبة الى قرية بالكوفة -١- .

٢ — أحمد بن حفص الكبير البخاري ، أخذ الفقه عن محمد بن الحسن ، وروى عنه كتبه ، وكتب المبسوط بيده ، وله اختيارات يخالف بها جمهور أصحابه ، منها ان نية الامامة للامام شرط للاقتداء كما نقل عن علي القارى، وشراح الهداية وله حكاية مع البخاري صاحب الصحيح -٢- توفي سنة ٢٦٤ .

٣ — بشر بن غياث المريسي المتوفى سنة ٢١٨ ابن ابي كريمة مولى زيد ابن الخطاب أدرك مجلس ابي حنيفة وأخذ نبذاً منه ، ثم لازم ابا يوسف ، وأخذ الفقه عنه حتى صار من أخص أصحابه ، وله تصانيف وروايات كثيرة عن ابي يوسف ، وله فى المذهب أقوال غريبة ، منها جواز أكل لحم الحمار وكان بينه وبين الشافعي مناظرات ، واليه تنسب طائفة من المرجئة ، وقد كفره أكثر أهل العلم ، وكان ابو يوسف يذمه ويعرض عنه ، قال الذهبي : بشر بن غياث لا ينبغي أن يروى عنه -٣- وقال ابن خلكان : بشر بن غياث حكي عنه أقوال شنيعة ، منها أن السجود للشمس والقمر ليس بكفر ، ولكنه علامة للكفر -٤- وقال ابو زرعة : بشر المريسي زنديق، وقال اليافعي : بشر المريسي رأس الظلالة الداعي الى البدعة -٥- وقال يزيد بن هرون : بشر كافر حلال الدم . وقال بشر بن الحارث جاء نعي المريسي ، وأنا فى السوق ، فلولا انه ليس موضع سجود لسجدت

-١- انظر ترجمته فى كتاب الفوائد البهية ص ٩

-٢- نفس المصدر ص ١٨ .

-٣- لسان الميزان ج ٢ ص ٢٩

-٤- وفيات الأعيان ج ١ ص ٩١

-٥- مرآة الجنان ج ٤ ص ٢١٨

شكراً ، وقال قتيبة بن سعيد : بشر المريسي كافر -١- الى غير ذلك من الأقوال في ذمه وتكفيره .

٤ — بشر بن الوليد بن خالد الكندي القاضي المتوفى سنة ٢٣٨ أحد أصحاب ابي يوسف ، روى عنه كتبه وأماليه ، ولي قضاء بغداد في زمان المعتصم ، وكان متحاملا على محمد بن الحسن الشيباني ، وكان الحسن بن مالك ينهاه ، وثقه الدارقطني وقال صالح بن محمد هو صدوق ولكنه لا يعقل .

٥ — محمد بن شجاع الثلجي المتوفى سنة ٢٦٧ ، تفقه بالحسن بن زياد ، والحسن بن ابي مالك ، له كتاب تصحيح الآثار ، وكتاب النوادر ، وكتاب المضاربة ، وكتاب الرد على المشبهة ، وهو ضعيف الرواية عند أهل الحديث ، جرحوه بكثير من القول ، سئل عنه أحمد بن حنبل فقال : مبتدع صاحب هوى -٢- . وقال الساجي : محمد بن شجاع كان كذابا ، احتال الى ابطال حديث رسول الله ، نصرة لأبي حنيفة . وبعث المتوكل الى احمد بن حنبل يسأله في تولية ابن الثلجي القضاء فقال : لا ولا على حارس -٣- وقال ابن الجوزي عن ابن عدي : أنه كان يضع الحديث في التشبيه وينسبه الى أهل الحديث الى غير ذلك من الأقوال فيه ، والثلجي نسبة لبيع الثلج فان اباه كان يبيعه وما ذهب اليه العيني خطأ في نسبته الى ثلج بن عمر بن مالك .

٦ — ابو سليمان موسى بن سليمان الجوزجاني المتوفى بعد المائتين ، أخذ العلم عن محمد وكتب مسائل الاصول والامالي ، عرض عليه المأمون القضاء فلم يقبل ،

-١- الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص ٥٤

-٢- نفس المصدر ص ١٧١ .

-٣- المنتظم لابن الجوزي ج ٥ ص ٥٧

وله كتاب السير الصغير ، والنوادر ، وغير ذلك .

٧ — محمد بن سماعة التميمي ، حدث عن الليث ، وابي يوسف ، ومحمد ، وأخذ الفقه عنهما ، وعن الحسن بن زياد ، وكتب النوادر عن ابي يوسف ، ومحمد ولد سنة ١٣٠ ومات سنة ٢٣٣ ، وولي القضاء بعد موت يوسف بن الامام ابي يوسف سنة ١٩٢ ، له كتاب أدب القاضي ، وكتاب المحاضرات ، والسجلات ، والنوادر .

٨ — هلال بن يحيى بن مسلم ، تفقه بابي يوسف وزفر ، وله مصنف فى الشروط ، وأحكام الوقف توفي سنة ٢٤٥ .

٩ — أحمد بن عمر بن مهير الخصاف المتوفى سنة ٢٦١ أخذ عن أبيه عن الحسن بن زياد عن ابي حنيفة ، كان عارفا بالمذهب ، صنف للمهتدي كتاب الخراج ، له كتاب الوصايا ، وكتاب الشروط الكبير والصغير ، وكتاب الرضاع وكتاب أدب القاضي ، وكتاب الحيل الشرعية (١) .

١٠ — ابو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الازدي الطحاوي المتوفى سنة ٣٢١ .

قال المولى عبد العزيز الدهلوي : انه كان مجتهداً ولم يكن مقلداً للمذهب تقليداً محضاً ، فانه اختار فيه أشياء تخالف مذهب ابي حنيفة . لما لاح له من الأدلة

---

(١) للحنفية كتابان فى استعمال الحيل الشرعية ، أحدهما لمحمد بن الحسن الشيبانى ، والثانى للخصاف ، ويقال أن لأبي حنيفة كتاباً فى الحيل وكان يفتى به الناس للتحلل من الاحكام الشرعية والقيود الفقهية ، روى أن عبد الله بن المبارك قال : من كان عنده كتاب الحيل لأبي حنيفة يستعمله أو يفتى به ، فقد بطل حجه ، وبانت منه امرأته . انظر كتاب ابو حنيفة ، محمد ابو زهرة ص ٤١٧ وكتاب تاريخ التشريع الاسلامى ص ٢٨٠ وسيأتي ذكر ذلك وتحقيقه .

القوية ، وقال محمد بن عبد الحي : هو في طبقة ابي يوسف ومحمد ، لا ينحط عن درجتها . وأن له درجة عالية ورتبة شامخة قد خالف بها صاحب المذهب كثيراً . وانه من المجتهدين المنتسبين الى امام معين من المجتهدين . لكن لا يقلدونه لا في الفروع ولا في الاصول لكونهم متصفين بالاجتهاد وانما انتسبوا اليه لسلوكهم طريقه في الاجتهاد ـ١ـ .

وبهذه الصورة أخذ مذهب ابي حنيفة . فهو في عصره لم يدون آراءه وأقواله وانما دونها أصحابه . ولم يكتفوا باخذهم عنه ، فابو يوسف لزم أهل الحديث وأخذ عنهم أحاديث كثيرة لعل ابا حنيفة لم يطلع على كثير منها ، ومن التجني على الحقائق أن نقول إن ذلك كله قد قاله ابو حنيفة ، واختاره ابو يوسف .

ومحمد لم يلازم ابا حنيفة إلا مدة قليلة ، فى صدر حياته ، ثم اتصل بمالك ، وروى عنه وروايته له تعد من أصح الروايات اسناداً ، فاذا كان مقلداً فلأي الامامين ، ألأبي حنيفة أم لمالك أم لهما معاً ؟ ان الانصاف ، والمنطق يوجبان ان نقول : إنه كان مجتهداً اجتهاداً مطلقاً وكذلك كل جميع الاصحاب ـ٢ـ .

اذاً فعدهم من المجتهدين في المذهب كما ذهب اليه ابن عابدين خطأ بين وخلاف ظاهر ، لأنهم استقلوا بتخريج الأحكام ، ولم يتبعوا في اجتهادهم شيخ المذهب وهو ابو حنيفة ، هذا هو الأمر الذي لا خفاء عليه . ولكن المتعصبين لأبي حنيفة والذين لا يروق لهم امتزاج أقواله باقوال اصحابه التي أصبحت قواماً للمذهب ـ يحاولون جعل تلك الاقوال والآراء التي انفرد اصحابه بها عنه ، أو خالفوه فيها أقوالا له يقول ابن عابدين :

ـ١ـ الفوائد البهية ص ٣١

ـ٢ـ انظر ابو حنيفة محمد ابو زهرة ص ٤٤١

إن الامام لما أمر أصحابه بأن يأخذوا من أقواله بما يتجه لهم من الدليل عليه صار ماقالوه قولا له لابتنائه على قواعده التي أسسها لهم . ونظير هذا ما نقله العلامة البيري في أول شرحه على الاشباه على شرح الهداية لابن الشحنة الكبير وهذا نصه : « اذا صح الحديث وكان على خلاف المذهب عمل بالحديث ويكون ذلك مذهبه ـ أي مذهب ابي حنيفة ـ فقد صح عن ابي حنيفة انه قال : اذا صح الحديث فهو مذهبي . . . فاذا نظر أهل المذهب في الدليل وعملوا به صحت نسبته الى المذهب لكونه صادراً باذن صاحب المذهب . إذ لا شك انه لو علم بضعف دليله لرجع عنه واتبع الدليل الأقوى » ـ١ـ .

وهذا قول لا محل له ومحاولة فاشلة وإلا لو كان كذلك فان كل فتوى تصدر عن صحة الحديث من أي عالم كان ومن أي مذهب هو . فاللازم نسبة ذلك الى مذهب ابي حنيفة . ولعلهم يرون ذلك فجعلوه أعلم الامة على الاطلاق بل أفضل التابعين وأعلمهم من هذا الباب . والغرض ان الوصول الى معرفة قول ابي حنيفة ومذهبه الخاص قليل جداً . وانما هو مجموع الاقوال منه ومن اصحابه وتلامذتهم الذين أخذوا عنهم فلا يمكن استخلاص أقواله منفردة . وتكوين وحدة فكرية خالصة له من كل الوجوه من غير اقتران اقوال اصحابه به . فان محمد بن الحسن جمع اقوال فقهاء العراق . ولم يجمع اقوال ابي حنيفة وحده . ولم يفصل آراءه . عن آراء غيره . من اصحابه ومعاصريه . بل القى بالفروع والحلول ما بين متفق عليه . ومختلف فيه فجاءت الاجيال وتوارثت تلك المجموعة الفقهية التي تجمع اقوال فقهاء العراق في الجملة واقوال ابي حنيفة واصحابه وتلاميذه خاصة . وقد نهج ذلك المنهج غير محمد ممن روى فقه ابي حنيفة .

ـ١ـ انظر ابو حنيفة محمد ابو زهرة ص ٤٥١

وهكذا نجد الرواية لآراء ابي حنيفة تذكر مخلوطة بالرواية عن غيره ، وممزوجة بها . وعلى ذلك النهج تدارس العلماء تلك الآراء . وسموها المذهب الحنفي . واختاروا للنسبة اسم كبير اولئك الأئمة وشيخهم — وهو ابو حنيفة — ومن التهجم على الحقائق . سلبهم شخصيتهم لتفنى في شخصية الامام —١—

والخلاصة أن المذهب الحنفي اتسع باتساع دائرة نفوذ السلطة ، وعلم ابي حنيفة لا يكاد يعرف لعدم انفراده عن اصحابه ، فالموازنة بينه وبين غيره لا تحصل إلا اذا اتجهنا الى الموازنة بين علماء المذاهب وبين مجموع مؤسسي المذهب الحنفي ، الذين كونوا مجموعة فقهية مزيجة باقوال فقهاء العراق وأقوالهم ، وهذا أمر لا يمكن ، ومحاولة الحنفية بارجاع الجميع اليه أمر غير وجيه ، وسيتضح الأمر عند البحث عن آراء ابي حنيفة وأقواله ، وما ذهب اليه اصحابه في خلافه ، فالقول بانه قال ستين الف مسألة ، أو ثلاث وثمانين الفاً ، منها ثمانية وثلاثين الفاً فى العبادات وخمسة واربعين الفاً في المعاملات —٢— . لا يصح وهو ضرب من المبالغة التي سار عليها مؤلفوا المناقب ، في كل ما كتبوه عنه ولنا ان نتساءل عنها وعن وجودها ، ولماذا أهملها من دون أقواله وآراءه ولكن كما قلنا انهم يقصدون بذلك مزج اقوال اصحابه باقواله وتكوين وحدة فكرية ترجع اليه لأنهم درسوا عنده وهذا خطأ ، وقد مر بيان ذلك .

—١— انظر ابو حنيفة لمحمد ابو زهرة

—٢— مناقب أبى حنيفة المكي ج ١ ص ٩٦ .

حديثه

اختلف المحدثون فى قبول حديث ابي حنيفة ، فمنهم من قبله ومنهم من لينه لكثرة غلطه في الحديث ليس إلا ، قال علي بن المديني ليحيي بن سعيد القطان كيف كان حديث ابي حنيفة؟ قال لم يكن بصاحب حديث -١-

وقد عده البخاري في الضعفاء والمتروكين ، ولم يخرج له فى صحيحه ، وكذلك بقية أصحاب الصحاح والسنن . نعم خرج له النسائي حديثاً واحداً عن ابن عباس قال: ليس على من اتى بهيمةً حد.

وفي رواية ابي علي الاسيوطي ، والمغاربة عن النسائي قال : حدثنا علي بن حجر حدثنا عيسى هو ابن يونس عن النعمان عن عاصم فذكره ولم ينسب النعمان ولعله غير ابي حنيفة ، وبهذا لا يكون له حديث عند النسائي .

وخرج له الترمذي من رواية عبد الحميد الحماني ، عن ابي حنيفة انه قال : مارأيت أكذب من جابر الجعفي ولا أفضل من عطاء .

هذه هي رواية الترمذي في صحيحه عن ابي حنيفة ، وهذا ليس بحديث بل هو قول قاله فى جابر وهو استاذه ومعلمه فان صح ذلك فهو غير صحيح منه ،

-١- الذهبي مناقب ابي حنيفة ص ٢٨

ولعل الباحث له هو البغض لجابر أو الحب لعطاء فجابر عربي (١) وعطاء من الموالي وإلا فقد ورد توثيق جابر من اناس لهم منزلة في العلم ، وتمييز درجة الرجال ، فهذا سفيان الثوري يقول : ما رأيت أورع في الحديث من جابر ، ويقول شعبة : جابر صدوق في الحديث ، ويقول وكيع : مهما شككتم فى شيء فلا تشكو فى ان جابراً ثقة ، وقال الشافعي : قال سفيان الثورى لشعبة : لان تكلمت في جابر الجعفي لأتكلمن فيك ، الى آخر أقوال العلماء في توثيق جابر وهو من علماء التابعين ومن اصحاب الامام الباقر وابنه الصادق عليهما السلام ، وروى عنه كبار عصره كالثوري ، وشعبه ، واسرائيل ، والحسن بن حي ، وشريك ، ومسعر ، ومعمر ، وغيرهم .

والغرض ان ابا حنيفة لم يخرج له اصحاب الصحاح والسنن حديثاً واحداً وضعفه الكثير منهم ، قال ابن سعد : ابو حنيفة النعمان بن ثابت مولى لبني تيم الله وهو صاحب الرأي . وكان ضعيفاً في الحديث -٢- قال ابن خلدون : بلغت رواية ابي حنيفة الى سبعة عشر حديثاً ، ويعلل ذلك بقوله : انما قلّت رواية ابي حنيفة ، لما شدد في شروط الرواية والتحمل وضعف رواية الحديث اليقيني اذا عارضها الفعل النفسي -٣- وهي عبارة وان كانت موجزة وغامضة بعض الغموض ، إلا انها تدلنا على هذا الاتجاه ، وهو عدم الاكتفاء بالرواة ، بل عرضها على الطبائع النفسية والبيئة الاجتماعية -٤-

(١) جابر هو ابن يزيد بن الحارث بن عبد يغوث الجعفي المتوفى سنة ١٢٨ وهو من علماء التابعين ومن له منزلة فى عصره .

-٢- الطبقات ج ٦ ص ٢٥٦

-٣- مقدمة ابن خلدون ص ٣٧٢

-٤- ضحى الاسلام ج ٢ ص ١٣١ .

وقد شنع أصحاب الحديث على أهل الرأي بقلة حديثهم ، أو عدم أخذهم بالحديث لأجل القياس والاستحسان ، لذلك ادخل ابو يوسف في فقه ابي حنيفة أحاديث كثيرة ، ومن بعده محمد بن الحسن ، فانه لقي مالكا ، وقرأ الموطأ عليه ثم رجع الى بلده ، وطبق مذهب اصحابه على الموطأ مسألة مسألة -١- ثم كثر التخريج وادخال الحديث في الفقه الحنفي ، ولم يتشدد اصحاب ابي حنيفة كتشدده في قبول الرواية ، فانه كان لا يقبل الخبر عن رسول الله ، إلا اذا رواه جماعة عن جماعة ، أو كما يعبر اصحابه اذا كان خبر عام عن عامة ، أو كان خبر اتفق فقهاء الأمصار على العمل به ، يقول ابو يوسف : فعليك من الحديث بما تعرف العامة ، وإياك والشاذ منه الى آخر مانقله عنه الشافعي في الام وهو عدم التوسع في الحديث وتضييق دائرته .

وخلاصة القول ان ابا حنيفة لم يكن بصاحب حديث ولكن كان قياساً سلك فى القياس مسلكا استوجب شدة الانكار عليه من علماء عصره ، فعن مالك بن مغول قال : قال لي الشعبي : ونظر الى اصحاب الرأي ، ماحدثك هؤلاء عن اصحاب محمد صلى الله عليه وآله فاقبله ، وما خبروك به عن رأيهم فارم به في الحش ، وكان يقول اياكم والقياس فانكم ان اخذتم به حرمتم الحلال واحللتم الحرام -٢-

ومرّ قوم على رقبة فقال : من أين جئتم ؟ فقالوا : من عند ابى حنيفة جئنا فقال : يكفيكم من رأيه ما مضغتم ، وترجعون الى اهليكم بغير ثقة ، ومثله عن مسعر بن كدام ، انه مر به رجل ، فقال : اين تريد ؟ قال اريد ابا حنيفة :

-١- رسالة الانصاف ص ٨

-٢- تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٧٠ .

قال : يكفيك من رأيه ما مضغت ، وترجع الى أهلك بغير ثقة -١-

هذا مجمل القول فى حديث ابي حنيفة ، ومنزلته عند المحدثين ، وانى استبعد صحة القول بانه لم يرو إلا سبعة عشر حديثاً ، فقد تبين لنا انه سافر الى مكة ، وبقي مدة هناك ، وسمع من التابعين ، ودخل المدينة وانتسب لمدرسة اهل البيت وانتهل من ينبوع الوحي واخذ عن زعيم عصره الامام جعفر بن محمد الصادق ، وافتخر بذلك ، و كان يرى من سعادته ونجاته حضوره فى مدرسته ، فكان يقول لولا السنتان لهلك النعمان ، وقد روى عنه وعن ابيه الباقر عليهما السلام فى مسنده فالقول بانه لم يرو إلا هذا العدد القليل ، غير وجيه . نعم كان صاحب قياس مهر فى تطبيقه تطبيقاً واسعاً . وبه نقم المحدثون والفقهاء عليه . وجعلوا ذلك من باب اتباع الهوى . وقد كان لا يتحرج من الفتيا تحرج اهل الحديث . وحدث من وراء ذلك ثورة فكرية عنيفة . واصبح الموقف حرجاً كما مر بيانه .

-١- الانتقاء ص ١٤٩ .

مع الامام الصادق

ان عصر ابي حنيفة كان عصر مناظرات وجدل الى اقصى حد فمناظرات بين اهل الاهواء وبين الفرق المختلفة ، وبين الفقهاء بعضهم بعضاً . وكان ابوحنيفة قوي المناظرة شديد الجدل ، يتسلح بكل الوسائل التي تعينه على الوصول الى الفوز في النتيجة فى غالب الأحيان ، كما وصفه الامام مالك بقوله : رأيت رجلا لو كلمك في هذه السارية ان يجعلها ذهباً لقام بحجته . وفى رواية انه قال : تالله لو قال : ان هذه الاسطوانة من ذهب لأقام الدليل القياسي على صحة قوله وبالطبع ان مثله ينال في تلك المعارك نصيبه من الشهرة على ان المنصور نظر اليه بعين التقدير والعناية تكريماً له ولأبناء قومه الذين طلع نجمهم فى ذلك العصر . ومما يدلنا على قوة مناظرته ان المنصور انتدبه فى مهمة عجزت قوته عن دفعها وخانته حيلته في التخلص منها وهي مسألة انتشار ذكر جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، ومن الصعب على المنصور أن تصبح في الكوفة ، ومكة ، والمدينة ، وقم حلقات علمية هي أشبه شيء بفروع لمدرسة الامام جعفر بن محمد الصادق ، وكانت تقرع سمعه أصوات شيوخ الكوفة ، بكلمة يضطرب لها لبه ، ويفقد عندها اتزانه ، وهي قولهم فى مناظراتهم كل يقول حدثني جعفر بن محمد الصادق ، لذلك اضطر الى جلب الامام من المدينة الى الكوفة محاولة للفتك به ، وأراد من ابي حنيفة الذي عرف بقوة المناظرة وسرعة الجواب ، ان يهيء من مهمات المسائل فيسأل الامام بها في مجلس عام ،

عساه أن يظفر بشيء ينال به من الحظ في كرامة الامام الصادق ، ولم يغب عن المنصور ما للامام الصادق من المكانة العلمية ، ولكنه من باب (الغريق يتعلق بالطحلب) وما كان ابو حنيفة بذلك الرجل الذي يجهل فضل سيده ومعلمه ، ومن افتخر بالانتساب لمدرسته ، فيأمل النجاح بهذا الموقف الحرج ومن الغلط ذلك .

ولكنه استجاب لهذا الطلب مرغماً ، ارضاءً للمنصور ، وحذراً من خلافه ، فهو يعلم نتيجة الأمر ، قبل أن يقوم بهذه المهمة ، فأعد أربعين مسألة من المسائل المشكلة ، ليواجه بها الامام في ذلك المجلس ، فكانت النتيجة معكوسة ، ووقع الأمر بخلاف ما طلبه المنصور ، واذا بابي حنيفة يعلن بكل صراحة أنه ما رأى أعلم من جعفر بن محمد كما مر بيان هذه القصة في ص ٤٤ من هذا الكتاب وكان هذا شأنه في جميع المواقف التي يقابل بها الامام ، فهو لا يمكنه ان يرد أي شيء على ما يوجه اليه ، ولم يستعمل سلاح الجدل والمناقشة .

وكان عليه السلام ينهى ابا حنيفة عن القياس ويشدد الانكار عليه ويقول بلغني انك تقيس الدين برأيك لا تفعل فان أول من قاس ابليس -١-

وقال له يا ابا حنيفة : ما تقول في محرم كسر رباعية ظبي؟ قال: يابن رسول الله ما أعلم فيه ، فقال : أنت تتداهى ولا تعلم أن الظبي لا يكون له رباعية وهو ثني ابداً -٢-

ويحدثنا ابو نعيم : ان ابا حنيفة وعبد الله بن ابي شبرمة وابن ابي ليلى ، دخلوا على جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، فقال لابن ابي ليلى : من هذا معك؟

-١- الطبقات الكبرى للشعراني ج ١ ص ٢٨ ، والحلية ج ٣ ص ١٩٣

-٢- وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٩٢ ، ومرآة الجنان ج ١ ص ٣٠٥ وشذرات الذهب ج ١ ص ٢٢٠

قال : هذا رجل له بصر ونفاذ في الدين . قال : لعله يقيس امر الدين برأيه ؟ قال نعم ! فقال جعفر لأبي حنيفة : ما اسمك ؟ قال نعمان : قال : هل قست رأسك بعد ؟ قال : كيف اقيس رأسي ؟ ! قال: قال: ما اراك تحسن شيئاً ، ثم جعل يوجه اليه اسئلة فكان جواب ابي حنيفة عدم الجواب عنها فاجابه الامام عنها .

ثم قال : يا نعمان حدثني ابي عن جدي ، ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « أول من قاس امر الدين برأيه ابليس » قال الله تعالى له : اسجد لآدم فقال:(انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) فمن قاس الدين برأيه قرنه الله يوم القيامة بابليس لأنه اتبعه بالقياس » .

قال ابن شبرمه : ثم قال جعفر ايهما اعظم قتل النفس أو الزنا ؟ قال ـ ابو حنيفة ـ : قتل النفس . قال ـ الصادق ـ : فان الله عز وجل قبل فى قتل النفس شاهدين ولم يقبل فى الزنا إلا اربعة . ثم قال ايهما اعظم الصلاة ام الصوم ؟ قال ابو حنيفة الصلاة : قال الصادق : فما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة . فكيف ويحك يقوم لك قياسك ! اتق الله ولا تقس الدين برأيك ـ١ـ

وقد احتفظ لنا التاريخ بكثير من تلك المواقف ، التي كان موقف ابي حنيفة فيها موقف تسليم ، لأنه أمام أمر واقع لا مجال للجدل والمناقشة وهو يعرف الامام الصادق وخطته فى مناظراته التي لا يريد بها إلا توجيه الأفراد ، توجيهاً صحيحاً وكان بيته يختلط فيه اشتات الناس على اختلاف آراءهم ، ومبادءهم ونحلهم ، وكان ميدان المعترك الفكري واسعاً في جميع الانحاء ، فكان عليه السلام في ذلك العصر مرجعاً لكل مشكلة ومهمة ، يقصده طلاب الحقيقة من الانحاء

ـ١ـ انظر حلية الأولياء ج ٣ ص ١٩٧

القاصية ، ويختلف اليـــه اهل الجدل والنظر فكان جوابه هو القول الفصل والحـكم العدل .

كان الجعد بن درهم من الزنادقة، وله اخبار فيها ، منها انه جعل في قارورة ترابا وماء ، فاستحال دوداً وهواماً ، فقال : انا خلقت هذا ، لأني كنت سبب كونه ، فبلغ ذلك جعفر بن محمد الصادق (ع) فقال : قولوا له : كم هو ؟ وكم الذكران منه والاناث ؟ إن كان خلقه ، وليأمر الذي يسعى الى هذا ان يرجع الى غيره فبلغه ذلك -١- فرجع الجعد عن هذه الفـكرة .

ودخل عليـه ابن ابي العوجاء وكان ملحداً ، فقال للامام عليه السلام ما تقول في هذه الآية « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها » ؟ هب ان هذه الجلود عصت فعذبت فما بال الغير يعذب ؟ قال ابو عبد الله : ويحك هي هي وهي غيرهـا ، فقال ابن ابي العوجاء : اعقلني هـــذا القول فقال عليه السلام : أرأيت لو أن رجلاً عهد الى لبنة فكسرها ثم صب عليها الماء وجبلها ثم ردها الى هيئتها الاولى ألم تـكن هي هي وهي غيرهـــا ؟ قال : بلى متع الله بك -١- .

والغرض ان الامام الصادق (ع) كان في عصره مرجعاً للامة في مهماتها وله مناظرات مع الفرق المختلفة وأهل الأهواء والبدع .

وكان علماء الاسلام يقصدونه فيما اشكل عليهم فى امور دينهم فيرجعون منه بالحقيقة ، وكان ابو حنيفة يقصد الامام الصادق ويغتنم فرصة حضوره عنـده فيسأله عن مهماته وكان الامام يناظره بامور كثيرة تأتي في موضعها .

-١- لسان الميزان ج ٢ ص ١٠٥

-٢- البحار ج ٤ ص

ويحدثنا البزاز والمكي في المناقب عن اجتماعات ابي حنيفة ، مع الامام الصادق ، عند وروده الكوفة ، وحرصه على الاستفادة منه ، وان كان في بعضها نوع من التحريف ، ولكنها تعطينا صورة عن اقتناع ابي حنيفة باقوال الامام دونما خلاف منه واستعمال مناظرة أو جدل هناك .

وبقي هنا شيء يلزمنا التعرض له لمناسبة الموضوع ، وهو بيان أسباب غضب المنصور على ابي حنيفة ، وسجنه ، فهل كان ذلك لعدم قبوله القضاء أو لشيء آخر ؟

اختلفت أقوال المؤرخين في ذلك ، فمنهم من ارجع الاسباب الى عدم قبوله القضاء فقط ، عندما اشخصه المنصور من الكوفة الى بغداد وعرض عليه القضاء ولكنه ابى فحبسه ومات في الحبس ، والروايات في هذه الحادثة مختلفة ، فبعضهم يرويها على هذا الوجه ، وآخرون يروون أن المنصور هدده بالضرب ، فقبل القضاء على كره -١- ثم مات بعد ايام ، وآخرون يروون ان المنصور انما استقدمه من الكوفة لأنه اتهم بالتشيع لابراهيم بن عبد الله بن الحسن ، فانه اعلن الانضمام لجانب دعوة محمد وابراهيم ، وافتى بوجوب الخروج مع ابراهيم . يحدثنا ابو الفرج الاصفهاني عن عبد الله بن ادريس قال : سمعت ابا حنيفة وهو قائم على درجته ، ورجلان يستفتيانه في الخروج مع ابراهيم ، وهو يقول : اخرجا. وانه كتب الى ابراهيم يشير عليه ، ان يقصد الكوفة ، ويدخلها سراً ، فان من فيها من شيعتكم يبيتون ابا جعفر فيقتلونه ، أو يأخذون برقبته ، فيأتونك به ، وكتب له كتابا آخر فظفر ابو جعفر بكتابه ، فسيره وبعث اليه ، فاشخصه وسقاه

-١- مناقب أبي حنيفة لابن البزاز والمكي .

شربة فمات منها ـ١ـ

والتسليم لهذه الرواية غير ممكن لأن قتل ابراهيم كان في سنة ٤٥ ووفاة ابي حنيفة فى سنة ١٥٠ وليس فى امكان المنصور التريث فى امر ابي حنيفة ، مدة خمس سنوات عندما تحقق منه ذلك فانه كان لا يقف عند حد ، فى تركيز دعائم ملكه ، ولا يتورع في سفك الدماء ، وان له من القوة ما يخول له قتل ابي حنيفة بسرعة ، فان بقاءه خطر على الدولة ولا يمكن المنصور ان يغض عن ذلك ، وقد فتك بابي مسلم مع قوته وكثرة جنده ، وفتك بزعماء اهل البيت ، مع علمه بحراجة الموقف ، كما فتك بكثير من الزعماء وذوي الوجاهة ، والنفوذ .

وكان ابو حنيفة من جملة الفقهاء المنتصرين لمحمد وابراهيم كمالك بن أنس والأعمش ومسعر بن كدام وعبادة بن العوام وعمران بن داود القطان وشعبة ابن الحجاج وغيرهم ، وكان بعضهم حضر حربه (٢) وكانوا يعدون شهداء وقعته كشهداء بدر ويسمونها بدر الصغرى وقد رأينا المنصور يغض عن مؤاخذة اولئك الفقهاء لأنه بحاجة ماسة لبقائهم والمعاونة معهم وبذلك يقصد ايجاد مجموعة منهم لتخفيف خطر انتشار ذكر جعفر بن محمد في الاقطار فقد كان هو الشجى المعترض في حلقه .

ـ١ـ مقاتل الطالبيين ص ٢٤٧ .

(٢) كان خروج محمد فى المدينة سنة ١٤٤ وبايعه أهل الحجاز ، قال ابن العماد : وأحبه الناس حباً عظيما لما كان فيه من الكمال وخصال الفضل ، ويشبه النبي فى الخَلق والخُلق ، واسمه واسم أبيه . وبايعه المنصور والسفاح ، وكانا من دعاته أيام بنى امية ، وقتل فى المدينة قتله المنصور الدوانيق ، وخرج أخوه ابراهيم فى العراق بعد قتله وكاد أن يظفر بالمنصور لكثرة جيشه ومحبة الناس له وتأييد الفقهاء لنهضته ، ودعوه لدخول الكوفة ليلا فقال أخاف أن يستباح الصغير والكبير . وان حادثة ابراهيم ومحمد من أهم الحوادث التاريخية ولم تنل نصيبها من التحقيق والبحث .

والحاصل ان غضب المنصور على ابي حنيفة قد اختلفت الاقوال فيه ومهما تعددت الأسباب فيه فالمرجع كله يعود الى مخالفة ابي حنيفة لرأي السلطة التي تريد تجريد العلماء من مواهب الادراك والتفكير ومنعهم من حرية الرأي والصراحة بالحق وعلى كل فقد مضى ابو حنيفة ضحية فتك المنصور وسطوته .

والى هنا ينتهي البحث عن حياة ابي حنيفة من الوجهة التاريخية وقد اعطينا صورة عن اختلاف الناس فيه من قادح ومادح ومغال ومتعصب وذكرنا طرفا من أقوال خصومه بدون تعرض لاثباتها أو نفيها وبقيت أقوال المعتدلين فيه ضاق المجال عن ذكرها وستأتي .

وهناك نعطي رأينا فيه ، وقد فاتنا التنبيه عن كنيته بابي حنيفة وذلك انه كان ملازماً للدواة المسماة بلغة العراقيين حنيفة فكني بها أو ان له ابنة اسمها حنيفة ذكر ذلك ابن حجر في الخيرات الحسان .

خلاصة البحث

— ١ —

اظهار الحقيقة من حيث هي أمر يشق على بعض النفوس التي خضعت لسلطان الهوى وفهمت الأشياء من طريق التقليد ، لا من طريق التثبت والواقع ، فكان الأثر سيئاً والنتيجة غير صالحة .

وان البحث عن المذاهب هو من أهم الابحاث التي توقع الكاتب في حيرة وارتباك ، لأن مسالك الوصول الى الحقيقة ملتوية ، والحواجز متكاثرة كما اني لا أجهل أهمية الموضوع وخطره ، فهو من أهم أسباب العداء ، والبغضاء ، بين طوائف المسلمين ، وهو منبع التباعد والتضارب ، مما أدى بالمسلمين الى الانحطاط ، واتساع نفوذ اعداء الدين الاسلامي ، في بث روح الفرقة وايقاد نار الخصومة بينهم لانصراف المسلمين ، بكل قوتهم الى الوقيعة بعضهم ببعض لتأييد كل مذهبه الذي يرتضيه فنشأ من وراء ذلك فتن ونزاع ، وتخاصم واتهام بالسوء ، وفرقة وتباعد ، وتركوا وراءهم الأخذ بما أمرهم الله من الاعتصام بحبل الاسلام وان لا يتفرقوا فتذهب ريحهم ، ويتسلط عليهم عدوهم .

ولم يسعد المسلمون بالتفاهم حول أسباب النزاع ، وعوامل التفرقة ومعالجة مشكلة العصبيات لأن الخلاف اصبح في الجملة طبيعة ارتكازية ، وقد عد ازالته من المستحيل ، وليس كذلك ان نركز البحث على ضوء الأدلة العقلية ،

والشرعية ، والتجرد عن الهوس والعصبيات ، وترك المغالطات واتحاد الهدف ، وهو اظهار الحقيقة وتقبل الحق وان كان مراً .

وقد مضى زمن رجال وسعوا دائرة الخلاف ليتسع نفوذهم وتم لهم ما أرادوا فى تفريق كلمة المسلمين ، لتركيز دعائم الملك ، وامتداد سلطان الاستبداد إذ اتحاد كلمة الامة يضيق عليهم الدائرة ويرغمهم على اعطاء المجتمع حرية التفكير ، وبذلك تعتدل طرق سيرتهم ويقل ضرر استبدادهم .

وهذا الخلاف خلاف غرض أئمة المذاهب ، كيف وقد أصبح اتباعهم في أخذ الأحكام سبباً لانفجار براكين الحقد والكراهية ، واتساع شقة الخلاف ، وتكفير البعض للبعض كما مرّ بيانه ، فحدث من ذلك فساد عظيم وخلقت مشاكل .

— ٢ —

اتضح لنا من سير الحوادث اهتمام ولاة الأمر فى تلك العصور الى تحويل أنظار الناس عن أتباع أهل البيت ، والأخذ في تعاليمهم ، ووجهوا الناس بكل حول وقوة لمعادات من اتبعهم في الأحكام الشرعية .

ولما كانت الشيعة مترابطين على الدعوة لآل محمد ، وتقديم مذهبهم على جميع المذاهب التي نصرتها السلطة ، فالشيعة يرون أحقية أهل البيت بالأمر ، وانهم حملة رسالة الاسلام ، ودعاة نشره ، وأولياء أمر الأمة يقودونهم الى السعادة ، وينفذون احكام الله ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، وهم المثل الأعلى فى طهارة النفس ، وهم ينبوع فياض تتدفق منه انواع توجيه الحياة الانسانية ، فاتباعهم لازم بدليل العقل والشرع .

لذلك نظرت اليهم السلطة نظر خصم لا تلين قناته ، ولا تعمل الارهابات عملها المطلوب وقـــد عجزوا عن تحويل عقيدتهم الراسخة رسوخ الطود فراحوا يلسقون بهم التهم ويتقولون عليهم ، وهم يعلمون عن الشيعة خلاف ذلك ولـكنهم عرفوا ان تقويم ملكهم وبقاء عزهم لا يتم إلا بالجام الألسن ، وكم الأفواه ، عن المؤاخذات التي توجه اليهم بصفتهم ساسة الأمة وحكام الاسلام وحاولوا افهام الناس انهم على الحق وخصومهم على الباطل فطبعوا في قلوب أنصارهم بغض المعارضين لهم ، حتى أخرجوهم عن الاسلام ، ووجهوا اليهم كل مكروه ، واتبعوهم بالأذى ، وعاملوهم بالقسوة والشدة حتى توصلوا الى مخالفة الأحكام ، وهجر السنن الصحيحة عن صاحب الرسالة ، لأن الشيعة قاموا بالعمل بها ، ولنضع صوراً بين يدي القارىء من تلك المخالفات .

يقول ابن تيمية (١) في منهاجه عند بيان التشبه بالشيعة : ومن هنا ذهب من ذهب من الفقهاء الى ترك بعض المستحبات ، اذ صارت شعاراً لهم ، فانه وان لم يكن الترك واجباً لذلك لـكن في اظهار ذلك مشابهة لهم ، فلا يتميز السني من الرافضي ، ومصلحة التمييز عنهم لأجل هجرانهم ومخالفتهم أعظم من مصلحة ذلك المستحب .

وقال مصنف الهداية من الحنفية : ان المشروع التختم باليمين ، ولـكن لما

---

(١) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام المتولد سنة ٦٦١ والمتوفى سنة ٧٢٨ .
قال ابن حجر في فتاواه ص ٨٣ : ابن تيمية عبد خذله الله وأضله وأعماه وأصمه وأذله وبذلك صرح الأئمة الذين بينوا فساد أحواله وكذب أقواله ، وهو الذي يذهب الى أن النبي لا جاه له ولا يتوسل بـــه وذهب الى الطعن على علي (ع) وعمر بن الخطاب ، وكفر فرق المسلمين وله بدع وأقوال شاذة تجد تفصيل ذلك في الفتاوى الحديثـــة لابن حجر وشفاء السقام للسبكي ومقدمة الشفاء للشيخ محمد بخيت والصارم الصقيل للسبكي وغيرها .

اتخذته الرافضة جعلناه فى اليسار .

وقال الغزالي : ان تسطيح القبور هو المشروع ، ولكن لما جعلته الرافضة شعاراً لها ، عدلنا عنه الى التسنيم . انظر الغدير ج ١٠ ص ٢١٠

وقال الشيخ محمد بن عبد الرحمن في كتاب رحمة الأمة في اختلاف الأئمة المطبوع في هامش ميزان الشعراني ج ١ ص ٨٨ : السنة في القبر التسطيح وهو أولى على الراجح ، من مذهب الشافعي . وقال ابو حنيفة وأحمد : التسنيم أولى ، لأن التسطيح صار شعاراً للشيعة .

وبهذا نعرف مقدار تحملهم من البغض والعداء لشيعة أهل البيت حتى جرهم الأمر الى مناوءة آل محمد واخفاء فضلهم وترك أحاديثهم كل ذلك من عوامل السلطة .

والغريب أن هذه الحقيقة يقررها الكثير ولكنهم يذهلون عنها ، ولا يحاسبون أنفسهم على أخطائهم فى ذم الشيعة والتحامل عليهم .

ومهما يكن من أمر فان امتحانات الشيعة وما نالهم من الأذى ، انما هو في سبيل الانتصار لآل محمد (ص) والانضمام الى جانبهم وخاضوا تلك المعارك في سبيل نصرتهم ، ونشر مبدإهم وإلا لو انهم استجابوا لداعي السلطة ، ورغبوا في لذة الحيـاة ، فليس بينهم وبينها إلا النزول على رغبات اولئك القوم الذين لا يرغبون إلا في القضاء على مبادىء آل محمد (ص) ، ومحو ذكرهم . لذلك نرى بعض الملوك أو الامراء الذين كدسوا جهودهم فى مقابلة الشيعة والانتصار للسنة ارتكبوا اموراً منكرة يتبرأ منها الدين الاسلامي يريدون بذلك ادخال الأذى على الشيعة وارغام انوفهم باظهار ما يكرهون .

نرى ملوك بني ايوب في مصر الذين وسموهم بكل مدح واطروهم بثناء

جميل . اتخذوا يوم عاشوراء يوم سرور ، يوسعون فيه على عيالهم ويتبسطون في المطاعم ويصنعون الحلاوات ، ويتخذون الأواني الجديدة ، ويكتحلون ويدخلون الحمام ، جريا على عادة أهل الشام ، التي سنها لهم الحجاج في أيام عبد الملك بن مروان ليرغموا بذلك آناف شيعة علي بن ابي طالب الذين يتخذون يوم عاشوراء يوم عزاء وحزن على الحسين بن علي لأنه قتل فيه . يقول : المقريزي وقد ادركنا بقايا مما عمله بنو أيوب من اتخاذ يوم عاشوراء يوم سرور . -١-

ويكفي خصوم الشيعة انهم يسيرون على ماسنه الحجاج من ذلك الفعل القبيح ، فهل ترى انهم ذهلوا عن قبح هذا العمل ؟ أم ترى انهم لا يعلمون ان هذا الفعل كان يسيء رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ يظهرون الحزن في يوم بكى رسول الله (ص) له قبل وقوعه وكان يتألم منه ، وهل جهلوا منزلة الحسين عليه السلام ؟ فعمدوا الى هذا الفعل المنكر .

— ٣ —

اندفع ولاة الجور للدفاع عن مراكزهم ، والمحافظة عن كيان ملكهم ، يبث روح الفرقة بين أفراد الامة ، لحصول غاياتهم التي رأوا استحالة حصولها مع الوحدة ، وصبغوا أعمالهم بصبغة دينية ولكنها في الواقع بعيدة كل البعد عن روح الدين ، وقد أفصح لنا التاريخ عن نواياهم السيئة وما يقصدون من وراء ذلك ، ووازرهم رجال ابتعدوا عن الحق ، وتهجموا على الحقائق ، ودعاهم جشعهم الى الابتعاد عن حدود الانسانية ، وخلعوا ابراد الحشمة ، واطفأت الأطماع شعلة عقولهم ، « فهم في غيهم يعمهون » .

-١- الخطط للمقريزي .

تفرقت الامة كما شاءت السياسة ، وكما شاء ولاة الجور ، بمقتضى العوامل التي وجهوها على هدم كيان الوحدة ، فاتسع الخلاف وعظم الارتباك ، ووقعت الخصومة ، وبين هذا وذاك رفع الاستبداد رأسه وافترس كلما وجده صالحاً للامة .

وأصبحت المسألة سيئة الوضع نشأ من ورائها عداء متأصل ، توارثته الاجيال حتى عجز المصلحون عن معالجة .مشا كل الامة ، وقد اتخذه المستبدون أعظم وسيلة لتفريق المجتمع الاسلامي ، تقوية لسلطانهم ، وقوة لنفوذهم ، على ممر العصور ، وهم يتظاهرون بمحاربة هذه النعرة ، ولكنهم يبذلون جهودهم فى نصرتها من وراء الستار ، باستخدامهم مرتزقة سلبوا مواهب الادراك وفقدوا شعورهم عند حصول تلك الأجرة الزهيدة ، واشتروا الضلالة بالهدى ، يكتبون باقلامهم المسمومة ، ما يثير الشعور ويحرك العواطف ، فكانت لهجتهم لا شعورية ، يتقولون ويفتعلون بدون قيد وشرط تقربا لأسيادهم .

هذه بين يدي عشرات من تلكم الكتب التي حررتها تلك الاقلام المأجورة ، الفها مهرجون لا يعرفون من الحق موضع أقدامهم يكيلون الذم لأمة عرفوا باخلاصهم وولائهم لأهل البيت ، واعتناق مذهبهم الذي ركزت دعائمه بتعاليم صاحب الرسالة وانتشر بجهود أصحابه ، وقد رأت السلطة مخالفة ذلك لمصالحهم فجعلوا اتباع النبي (ص) وأخذ تعاليمه عن أهل بيته بدعة نظراً لعدم تشريع السياسة لذلك .

ولم يجدوا طريقاً لمؤاخذة الشيعة بأي شيء ، ولكنهم حاكوا لهم التهم ، تقولا بالباطل وابتعاداً عن الحق ، بل هو تهريج وهوس وحركات لا شعورية ، ومن أعظم تلك التهم التي لصقوها بالشيعة هو قولهم بتكفير الشيعة للصحابة وحكموا عليهم في ذلك بالخروج عن الدين ما أقسى هذا الحكم وما أعظم هذه

التهمة « نفوك اللهم عفوك » .

— ٤ —

أخذت هذه التهمة نصيبها من التهويل وحظها من الشيوع ، فى عصر اتخذ خصوم الشيعة من سلطانه قوة الانتصار عليهم ، وازداد نشاطهم بتلك المفتريات ، والاتهامات التي سلكوا بها طرق المكر والخداع والتمويه على السذج وعوام الامة ، فتركزت في أدمغتهم تلك الفكرة السيئة ، وبحكم مؤثرات الدعاية التي بثتها الطبقة الحاكمة ضد الشيعة ، ليثيروا البغضاء ويبذروا الحقد ويبرزوا للشيعة صورة تشمئز منها النفوس ، فكانت دماؤهم مهدورة وأموالهم مباحة .

ولم تقف الشيعة تجاه هذه المنكرات مكتوفة اليد ، بل دافعت عن مبدئها وعقيدتها بساطع البرهان وقوة المنطق وحد السيف ، فكانت هناك ثورات يتبع بعضها بعضاً وحروب طاحنة دفاعاً عن المبدأ وحفظاً لكرامة الدين .

ما أقسى هذا الحكم وما أعظم هذه التهم ، ولا تستطيع الشيعة السكوت عليه ، ولكن ماذا تصنع وزاوية التعصب مفتوحة يطل منها أولئك الحول القلب الذين يفترون الكذب .

ربنا احكم بيننا وبين قومنا بالحق ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، ربنا إنا آمنا بك واتبعنا نبيك ، ووالينا اصحابه الذين نهجوا نهجه ، واهتدوا بهديه وسمعوا دعوة الحق فلاقتها نفوسهم بكل قبول وصدق ، واخلاص بالقول والعمل، ونظروا لمصلحة المسلمين قبل مصالح أنفسهم أولئك هم اصحاب محمد (ص) « أشداء على الكفار رحماء بينهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا » سبقوا الى الاسلام وهاجروا وجاهدوا باموالهم وأنفسهم ، ونشروا الدين وأظهروا شعار

الاسلام ، وأقاموا الفرائض ، وأحيوا السنن ، آمنو بمحمد (ص) ونصروه ، واتبعوا النور الذي انزل معه فايدت نبيك فيهم ، والفت بين قلوبهم فاتحدوا وآزروا ونصروا وصدقوا ما عاهدوا عليه الله ربنا انا آمنا بنبيك ، وتبرأنا من المنافقين الذين مردوا على النفاق ، ونصبوا لنبيك الغوائل ، ولم يؤمنوا ايمان القلب والجنان ، بل ايمان الشفة واللسان فاخبرت نبيك عنهم « اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون ، اتخذوا ايمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله انهم ساء ما كانوا يعملون »

الذين « يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ، مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا »

ونتبرأ من الذين شاقوا رسولك « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » .

* * *

حقاً انها مؤاخذة عظيمة ، لو كان لها من الصحة نصيب ، ولكنها فرية وبهتان ، بعثتها الأغراض ، وأوحتها الأوهام والخيالات ، فتوارثتها الأجيال ، ولو تناولتها الأقلام الغير المأجورة لقبرتها في مقرها الأخير .

أتكون الشيعة بميلها عن معاوية وحزبه ، ومناقشتهم على اجرامه ، نقاشاً علمياً يتركز على حرية الرأي مجرمة في نظر العدالة ، ويحكم عليهم بعدم الاستقامة فتطرح رواياتهم ، نصفاً باحكام الجرح والتعديل ؟ فهل القيت أقوال من تجرأ على سب علي وبغضه والحط من كرامته ؟ لا لا انه مقبول القول ثقة في الرواية ، ويقال انه حسن الاعتقاد ، ناصر للسنة . ولا يسعنا التوسع بالبحث فى هذا الموضوع فهو

واسع ، وستأتيك أسباب توجه التهمة الى الشيعة في ذلك وتوقفك على الافتراء فيها والى اللقاء في الجزء القادم ان شاء الله .

وكنا نظن ان تلك المفتريات ذهبت مع تلك العصور التي اقتضت اختراعها وافتعالها لتفريق صفوف الامة ، وكنا نتخيل انها قبرت مع أصحابها ومرت على عجلة الزمن ، فابتعدنا عنها ونحن بعصر انطلاق حرية العقل ، ورفع حواجز السلطة وازالة ستار التمويه ، وبمزيد الاسف انا نجد حثالة يريدون إحياء تلك النعرات ، ويعيدون تلك العصور الغابرة ويضربون على وتر العصبية .

وليس من أصل موضوعي التعرض لأقوال المهرجين فان سلة المهملات لا تضيق عنهم ولكن هناك نفر يعتنى بهم سنشير لاقوالهم بل لتقولاتهم في الجزء القادم إن شاء الله .

والى هنا ينتهي الجزء الأول من هذا الكتاب والحمد لله رب العالمين والصلاة على رسوله الذي ارسله « بالهدى ودين الحق ليظهره علي الدين كله ولو كره المشركون » .

والتحية الدائمة على آله الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا .

تفضل صديقنا الاستاذ الكبير الشيخ محمد الخليلي بهذا التاريخ حين طبع الكتاب فله الشكر .

كم تفعل الأهواء فى أنفس ... لما بها أمست لها طيعه
تميل للباطل طبعاً ولن ... ترغب للحق ولن تتبعه
ألا تراها اختلفت امة ... كانت بماء واحد مترعه
فاعرضت عن عذبه وارتوت ... من آسن ما حققت منبعه
ضات ولم تهد بنور الحجا ... لما أضاعت للحجا موضعه
فاستخبر التاريخ إذ أظهر الـ ... خلف وأبدى تلكم المعمعه
واستوضح الكتاب إذ صرحوا ... عما أثار الحقد من زوبعه
وانظر الى السلطة فى عصرها ... كيف استباحت الهدى مصرعه
قد فرق الطامع مجموعة ... ونال في تفريقها مطمعه
فقام داعي الحق يدعو الى ... الوحدة في الامة كي تسمعه
وقال في تاريخها (إنه ... الصادق والمذاهب الأربعه)

فهرس موضوعات الكتاب

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحــة

الصفحة

استدراك وتصويب

ص	س	خطأ	صواب
٣٢	١٧	جعفر محمد	جعفر بن محمد
٣٣	١١	الجنسية	النفسية
٤٣	١٠	الذي	الذين
٧٦	٧	حريز	عثمان بن حريز
٨٨	٢٤	صدر	صدرت
٨٨	٢٤	مجلد	مجلداً
٩٢	١	الثقلين	حديث الثقلين
١١١	١	يزيد بن عبد الملك	الوليد بن يزيد بن عبد الملك
١٥٣	٣	المعتصم	المستعصم
١٩٦	٣	التشيح	التشيع
٢٠٩	٦	عهد الصحابة	في عهد الصحابة
٢٢٤	١٢	الامية	الاسلامية
٢٦١	١٣	هي	هو
٢٦٤	١٨	امرأ	امر
٢٧٠	٧	يحيى الحماني	ابو يحيى الحماني
٣١٥	٢٤	لابن عمر	لأبي عمر

حكميات

إياكم وظلم من لا يجد عليكم ناصراً إلا الله .

العامل بالظلم والمعين له والراضي به كلهم شركاء .

أتقوا الظلم فان دعوة المظلوم تصعد الى السماء .

إن الامامة لا تصلح إلا لرجل فيه ثلاث خصال ، ورع يحجزه عن المحارم ، وحلم يملك به غضبه ، وحسن الخلافة على من ولي حتى يكون له كالوالد الرحيم.

إن من حقيقة الايمان أن تؤثر الحق وأن ضرك على الباطل وإن نفعك ، وان لا يجوز منطقك علمك .

ما ضعف بدن عما قويت عليه النية .

الامام الصادق

آثار المؤلف

١ — عائشة والتشريع الاسلامي	لم تطبع
٢ — عبد الرحمن بن عوف	»
٣ — بنو امية في التاريخ	»
٤ — المختار من صحاح الأخبار	»
٥ — منهاج السعادة أخلاق	»

انتظروا صدور

الشيعة في قفص الاتهام



الشيعة في قفص الاتهام

للمؤلف

كتاب علمي يتكفل الرد عما قاله خصوم الشيعة — قديماً وحديثاً — من الشبه الملصقة بهم رداً بالطرق العلميـــة والأدلة المنطقية إظهاراً للحقيقة وطلباً للوحدة .